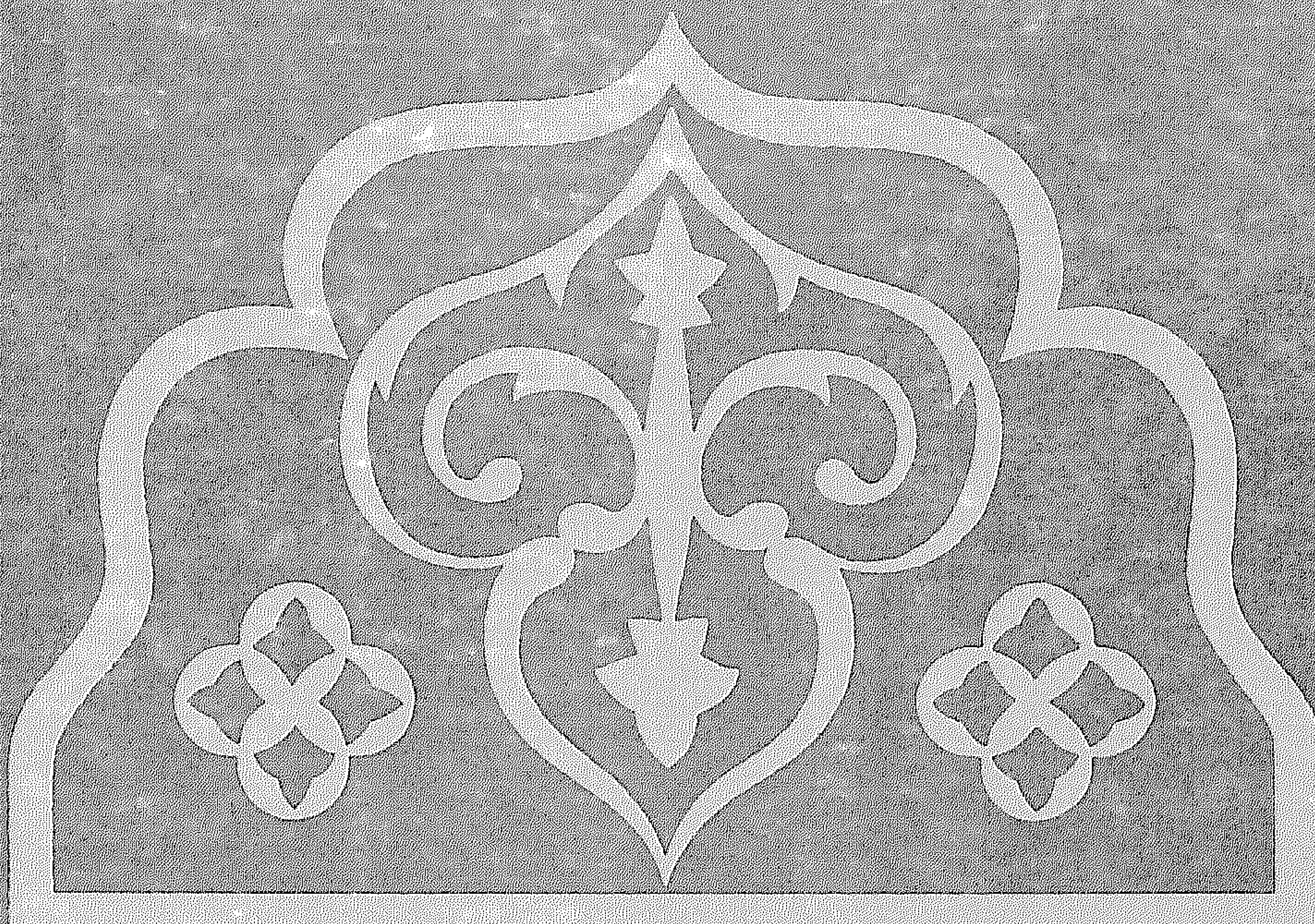
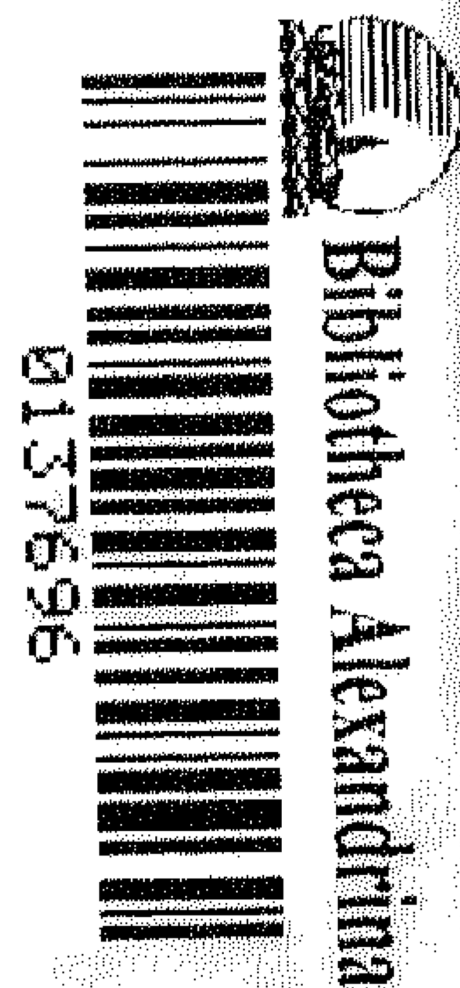


رئيف خوري

الفكر العربي الحديث

أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي



تحقيق وتقديم

محمد كامل الخطيب

ة الثالثة

١٩٩

قضايا وحوارات النهضة العربية «١٤»

الإشراف الفني زهـير الحمـو

الفكر العربي الحديث

أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي

قضايا وحوارات النهضة العربية

« ١٤ »

رئيف خوري

الفكر العربي الحديث

أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي

منشورات « دار المكشوف

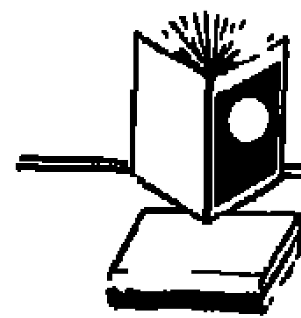
بيروت ، لبنان ، ١٩٤٣

الطبعة الثالثة

١٩٩٣

تحقيق وتقديم

محمد كامل الخطيب



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٣

الفكر العربي الحديث : أثر الثورة الفرنسية في توجيهه
السياسي والاجتماعي / رئيف خوري ؛ تحقيق وتقديم محمد
كامل الخطيب . ـ ط ٣ . ـ دمشق : وزارة الثقافة ،
١٩٩٣ . ـ ٢٩٠ ص ؛ ٢٤ سم . ـ (قضايا وحوارات النهضة
العربية ؛ ١٤) .

من منشورات دار المكشوف في بيروت ١٩٤٣ .
١ ـ ٣٠٣,٤ خ و ر ف ٢ ـ العنوان ٣ ـ خوري
٤ ـ الخطيب ٥ ـ السلسلة

مكتبة الاسد

الايداع القانوني : ع ـ ١٧١٠ / ١١/١١/١٩٩٣

فهرس

ملحق شعري .

تدارك خطا

ورد في « اهم مراجع الكتاب » اسم « مجموعة المحررات السياسية » بين المراجع التركية والصحيح انها من المراجع العربية .

ووردت في الصفحة ١٠٨ اشارة الى ان مقالة الدكتور شبلي الشميل عن فرنسا بمناسبة حوادث دريفوس ، ستأتي مع مختارات الدكتور شبلي في « نصوص مختارة » والواقع انها وردت في الصفحة ١٣٨–١٣٩ . .

ووردت في قسم « نصوص مختارة » مقالة للدكتور شاكر الخوري بدون عنوان وعنوانها : الانقلابات بقدر استعداد الجمهور .

مقدمة

« يا عدو التاريخ ! » بهذه الصيحة تلقيت ذات مساء ، صديقنا رئيف خوري . لست اذكر لاية مناسبة ، لكن اكبر الظن اني رأيته يومذاك يشن احدى غاراته العنيفة ، الموفقة ، على جزء من التاريخ ، او على بعض انواعه . فرد علي بابتسامته الطلقة الصريحة التي لا يعوزها من القهقهة غير الصوت .. ان ابتسامة رئيف خوري هي « عنوان » الصحة التي يتمتع بها في جسمه وروحه على السواء ، تلك العافية السابغة التي لا تفتأ تنعكس متضاعفة متزايدة ، من احدهما على الآخر ، حتى ليس يُعلم ايهما الاوفر ربحاً ، او الاكثر غنيمة . على اني لم اعرف فتى هو اعظم من رئيف خوري ، انفاقاً مما رزقه الله ..

ومن قبيل العافية ايضاً ما راض عليه رئيف خوري نفسه ، من ان لا يقبل على « علاته » شيئاً . اعني انه « يصحح » كل ما يسمع ويشهد ، من اقوال ووقائع . فهو يترجمها رأساً ، دون تقاعس ، او التواء ، في لغة الحقيقة التي يجيدها قراءة وكتابة ، فكراً وعملاً . وليس لهذه الحقيقة عنده الا خصمان لا ثالث لهما (لكن لله ، ما اضخم جيشيهما !) : سوء النية وسوء الفهم .. الحقيقة الاخيرة ، لا للنهائية .. « الاخيرة » بمعنى المحصل الحسابي لوجوه المسألة المتعددة ، ولظروفها الملازمة لها ، ولاطوارها المتعاقبة التي لا تتغاير تماماً كما انها

لا تتشابه تماماً .. اما « النهائي » فليس له ، مع الحياة والصيرورة ، وجود .

« يا عدو التاريخ ! » لقد صحت بها حقاً .. لكن لو اتاني الان من يزعم اني اذ قلتها ، اسمعتُ ايضاً كرجع الصدى : « يا عدو نفسه ! » لم اتهم اذنه ، ولا ذهنه . ان اكبر شطري التاريخ اسماء تود لو تنسى ، واحداث تريد ان تضيع ، بقدر ما يحتمل « الكون » ضياعاً ، او يصبر على خسارة . فلا جرم ان رئيف خوري يخال نفسه موكلاً بصديقه التاريخ ، يسعده على طرح بعض اعبائه ، لانقاذ السفينة من الغرق .. ان صداقة رئيف خوري والتاريخ لمن ذلك النوع الجيد الذي أرسلت في مدحه الامثال : « صديقك من صدَقك ، لا من صدّقك » .

لقد اولع رئيف خوري زمناً ، بنظم السلسلة الذهبية التي تجمع بين طرفيها « تقليدنا الثوري التحرري » منذ المحاولات الاولى . فطفق يبحث جاداً ، في كتب التاريخ والادب العربية ، عن الحلقات الضائعة من ذلك « التراث الانساني النفيس » . وكان كل مرة يرجع مثقلاً كالنحلة ، مما اشتاره من كلام مأثور ، وصنيع مشكور . وفي النادر ما كان يقف من التاريخ على اطلاله ، حيث تطن النحلة كما يطن الذباب ، انما لا تجني ما يجنيه النحل .

ولعل اطول وقفة لرئيف خوري على اطلال التاريخ ، هذه الفصول عقدها حول « الفكر العربي الحديث » كيف تمّ لقاحه بمبادىء « الثورة الفرنسية » . سوى اننا نظلم المؤلف اذا نحن لم نسلم عن طيب

خاطر ، بان اكثر تمهله وتأمله هو في الامكنة الطيبة بين رسوم دوارس : زهرة هنا ما تزال متألقة تضوع ، وبقية ارج هناك من جنينة مفقودة . وكأيّ من اسماء منسية يذكرها وصحائف مطوية ينشرها .. تلك خطته في « الانقاذ التاريخي » لم يحد عنها ، لكنه اليوم يجري عليها عكساً لا طرداً ، اذ يعمل على ان يستنقذ « من » السفينة ، بعض حمولتها الثمينة ، ثم يترك المركب لمصيره .

ونضرب لك مثلاً لتنظر كيف « يعامل » رئيف خوري طائفة من الاخبار التي يكفي ان تتواتر حتى تصير « تاريخاً » : يقص المؤلف فيما يقصه علينا ، نبأ المفاوضة بين العرب والفرس قبل القادسية الحاسمة . ففي رواية ان المفاوض العربي كان المغيرة بن شعبة : من معارف التاريخ . وفي رواية اخرى ان المفاوض كان انساناً يدعى زهرة : من نكراته . ليس بمستبعد ان يكون ثمة مفاوضان ، او مفاوض وترجمانه .. لكن هذا يهم التحقيق التاريخي (او الاصطلاحي) وحده . اما « الحقيقة الانسانية » فهي هي ، في كلتا الروايتين على السواء : في اولاهما يسمع رستم قائد الفرس كلاماً من زهرة : « ان الدين الجديد (اي الاسلام) يخرج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله . » وهي عبارة تحمل على الظن بانها مترجمة عن الفارسية .. فيحتج رستم بان « اهل فارس ، منذ ولي اردشير ، لم يدعوا احداً يخرج من عمله ، من السفلة . وكانوا يقولون : اذا خرجوا من اعمالهم تعدوا طورهم ، وعادوا اشرافهم . » اما في الرواية الاخرى فيسمع اشراف الفرس كلاماً من المغيرة بن شعبة : « انا معشر العرب لا

يستعبد بعضنا بعضاً .. كان احسن من الذي صنعتم ان تخبروني ان بعضكم ارباب بعض .. اليوم علمت انكم مغلوبون . ان ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا هذه العقول . » فيتهامس الاشراف قائلين : « والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون — اي يميلون — اليه . »

ويقول رئيف خوري ان « معنى هذا في لغة علم الاجتماع الحديث ان النظام الاجتماعي الفارسي كان نظاماً يقسم السفلة (اي جماهير الشعب) الى طوائف ، يلتزم كل فرد طائفته التي ولد فيها ووضعه الاجتماعي ، لا حق له ان يتزحزح عنه . فهو فلاح قن مثلاً ، يكون ابنه فلاحاً قناً ايضاً ، وهو محترف عمل الاحذية مثلاً ، يكون ابنه محترفاً عمل الاحذية ايضاً .. ان هذا الدين الجديد لن يقبل بنظام اجتماعي اقطاعي متحجر كالنظام الفارسي ، ولن يقر الاتوقراطيــة الفارسية ويلقي الحبل عــلى الغارب للاشراف والدهاقين . » وهكذا نرى رئيف خوري الذي يسمي « الاخبار » عن المفاوضة بين العرب والفرس « محاضر » توكيداً لصحتها رغم كل الظواهر ، يرسل على الناحية « الثورية التقدمية » في الاسلام نوراً كاشفاً . ان المفاوض العربي ، كيفما تسمى ، كان في الحقيقة التي تهم التاريخ الانساني واحداً ، كما ان المفاوض الفارسي كان واحــداً في تلك الحقيقة ايضاً ، لان الحوار الذي استؤنف عهد ذاك بينهما ، انما هو الحوار المستمر بين عالمين : قديم وجديد .. حوار واحد لم يتعدد .

وذاك وامثاله ، في رأي رئيف خوري ، مــا كان يقرأه اعــلام نهضتنا الحديثة ، في اثناء التراث العربي القديم ، ويتدبرونــه « فيخلق فيهم استعداداً نفسياً كبيراً للاعجاب بالثورة الفرنسية . » فالحادثة

التاريخي الذي اراد المؤلف اثباته و« تحقيقه » ليس « خبر » المفاوضة بين العرب والفرس بل « خبر » الاستعداد النفسي عند مفكري العرب الاصلاحيين ، في القرن الماضي ، لتقبل المبادىء الجديدة ، الاجنبية في صيغها او اشكالها ، الاصيلة في جوهرها او فحواها « تبعاً لتقارب الاشواق الانسانية واتجاهها في الحياة الاجتماعية نحو الخير والتجديد والعدل والرفق والحرية وسائر المثل والقيم العليا .. على ان الاسلام وثبة تقدمية جبارة ، والوثبات التقدمية الجبارة في كل العصور ، لا يخلو بعضها من مضمون بعض . » واذا كان غوته قد هتف مساء اليوم الذي نشبت فيه معركة فالمي : « من هذا المكان ، منذ اليوم ، تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الدنيا » ، فان نقولا الترك لم يبعد عنه كثيراً ، اذ ذكر « الثورة الكبرى وقيام المشيخة الفرنساوية » في جملة « الحادثات الكونية ، والحركات الكلية » . على ان في الكتاب نماذج شتى وطريفة من هذا « التقارب الانساني » الذي يعد المؤلف بين خيرة ممثليه في الجيل الحاضر .

ان رئيف خوري الاديب في سويدائه ، والشاعر الذي يحرص على صياغة قصائده وصقلها كما كانوا يحرصون على تجويد السيوف والالطاف ، يعرف ايضاً كيف يترسل في نثره الكتابي والخطابي ترسلاً لا اثر للصنعة فيه ، بل لا ضابط له غير المنطق الخفي حيناً ، الظاهر احياناً . وهو في مواقفه هذه ، الغنية السخية ، لا يخشى تهمة ابتذال يقذفه بها متأنق او متظرف ، من اولئك الذين يرتمون في احضان تفكيرهم « الذاتي » كمن يتمتع بجسد خيالي .. حرية ، مساواة ،

اخاه ! ما ذنبنا ان تكن « الالفاظ » غزيرة الاصدار في السوق ، كالنقد المتضخم الذي لا يني ينحط قيمة وثمناً ؟ وما ذنبنا ان تكن « المبادىء » ابعد شيء عن الابتذال ، لانها ما زالت أبعد شيء عن التحقيق العملي ؟ يقول رئيف خوري في معرض كلامه على روسو :
« .. ان غيره ظل يفكر في نطاق مكتبة صغيرة او حلقة ضيقة من النخبة المختارة ، بينما استطاع روسو ان يحرك اعماق الشعب ويجعل من مذهبه دستوراً للعمل . انه من الكتّاب القلائل الذين ترن كلماتهم برنة الصدق ويشعر القارىء لدى مطالعتهم انهم اذ يدعونه للتفكير ، يدعونه الى العمل ايضاً . » كأن الكلمة مقولة في رئيف خوري نفسه !

وبالجملة ان رئيف خوري ، حتى في كتابته التاريخ ، لا يقف على اطلال الماضي مقدار ما يقف على تصاميم المستقبل . ولقد ولد كتابه هذا تحت طالع مزدوج من « العقل الذي يبدد سحب الجهالة » ومن العاطفة التي تمنح القلوب حرارتها . فبورك في ذلك القران السعيد !

عمر فاخوري

اعلان حقوق الانسان (١)

١ الناس يولدون ويظلون احرارا ومتساوين في الحقوق .

٢ هذه الحقوق هي الحرية والتملك والامن ومقاومة الجور .

٣ مبدأ كل سلطة مستقر في الامة . لا يمكن لاي مجموع او لاي فرد كان ان يستخدم سلطة غير آتية عنها صراحة .

٤ قوام الحرية ان يستطاع عمل كل ما لا يضر بالغير .

٥ لا يحق للقانون ان يمنع غير الاعمال المضرة بالهيأة العامة .

٦ الشريعة هي مظهر الارادة العامة ولكل الوطنيين ذاتياً او بواسطة نوابهم حق الاشتراك في سنها . ويجب ان تكون واحدة للكل سواء كان في صون الحقوق ام في العقوبات . ولما كان كل الوطنيين متساوين ازاءها فهم كذلك يقبلون في كل المراتب والمناصب والوظائف العامة بحسب اقتدارهم وفضائلهم ومواهبهم العقلية .

٧ لا يمكن الشكوى على اي انسان كان او القبض عليه او توقيفه الا في الاحوال المعينة في القانون وبحسب الكيفية المرسومة فيه .

٨ لا يسوغ للقانون ان يضع غير العقوبات الضرورية ضرورة اكيدة وصريحة ولا يمكن معاقبة اي كان الا بموجب قانون وضع ونشر واصبح نافذا قبل وقوع الجرم وعمل به على النظام .

٩ لما كان كل انسان يعتبر بريئاً الى ان يعلن مجرماً فاذا ارتؤي وجوب توقيفه واستعمل بحقه عنف لم يكن ضرورياً للتأمين من شخصه فعلى القانون ان يعاقب على ذلك بكل شدة .

١٠ لا يجوز تنكيد اي كان بسبب آرائه حتى الدينية منها ما دام ابداؤها لا يخل بالنظام العام حسبما قرره القانون .

١١ حرية نشر الافكار والاراء حق من اثمن حقوق الانسان، فلكل وطني اذن ان يتكلم ويكتب ويطبع بملء الحرية الا انه مسؤول عن خرق هذه الحرية في الاحوال المعينة في القانون .

١٢ ضمان حقوق الانسان والوطنيين يستلزم قوة عامة .

١٣ يتحتم للقيام بهذه القوة العامة ونفقات الادارة وضع رسوم عامة يجب توزيعها على جميع الوطنيين بالسواء كل على قدر طاقته .

١٤ يحق لكل الوطنيين ان يتحققوا بالذات او بواسطة نوابهم لزوم الرسوم العامة وان يقبلوا بها عن رضى وان يحددوا مقدارها ومدتها وكيفية تقسيمها وتحصيلها وان يتتبعوا كيفية صرفها .

١٥ يحق للهيأة العامة ان تسأل كل موظف عام عن ادارته .

١٦ كل هيأة عامة لا يكون فيها ضمان الحقوق مكفولا وتفريق السلطة محدودا فليست هي على شيء من القانون الاساسي .

١٧ لما كان التملك حقاً مقدساً لا يمس فلا يمكن نزعه عن اي انسان كان الا اذا استلزمت ذلك المصلحة العامة استلزاماً بيناً ثابتاً شرعاً وبشرط دفع تعويض عادل مقدماً .

---

١) تعريب الدكتور ايوب ثابت ، نقلا عن مجموعة مقالاته « عبرة وذكرى » ، ساعده على تعريبه ، كما ذكر : « جملة من القانونيين والكتاب الافاضل اخص بالذكر منهم صديقي المحامي شارل دباس » . وهو خير تعريب حرفي لهذا النص التاريخي .

فَاتِحَة

ان الثورة الفرنسية ، وفرنسا الثائرة ، وما أشبه مما رأيته في عنوان الكتاب ، وتراه مردداً في تضاعيف سطوره ، كلام له ، ايها القارىء ، معنى يجب ان لا يُخلط بينه وبين غيره من المعاني .

هذه كلمتي الاولى اقولها لك ، واتركك وهذه الفصول الطويلة ، والنصوص المختارة من كبار ادبائنا ومفكرينا . وقد كنت احب أن اقول شيئاً في هذه الفاتحة آثرت ان اتركه للخاتمة . وما دامت مقدمات الكتب توضع آخر شيء ، بعد الفراغ من التأليف ، فانني أرى أن تكون مقدمتي آخر صفحات الكتاب لا اوله .

أما ارنست رينان ، وما عيّرنا به من أننا عدمنا ولو ثائراً واحداً ، فارجو ان لا يعطيه هذا الكتاب إلّا نصف الحق على الاكثر .

بيروت ٨ ايلول ، ١٩٤٣ — رئيف خوري

تنبيه : في هذا الكتاب قسم مستقل اشرنا اليه بعنوان « نصوص مختارة » . وقد جمعنا النصوص ، التي اخترناها لكل اديب ، في فصل على حدة توجناه باسمه .

للحياة وجهان : احدهما الاغتذاء والهضم ، والآخر الانتاج والخصب . وبالقدر الذي تأخذ الحياة ينبغي لها ان تعطي . هذا قانونها ... الحياة كاللهب ، ليس يمكن حفظها الا اذا هي اعطت من مادتها . يصح هذا على العقل كما يصح على البدن . ومن المستحيل على العقل (الذكاء) ان ينحصر في ذاته . انه كاللهب الذي لا بد له من اعطاء النور بطبيعة خلقه . وهذه القوّة نفسها — قوة التمدد — قائمة في احاسيسنا . فعلينا ان نقاسم (غيرنا) افراحنا واحزاننا ... ان من طبيعتنا ان نكون اجتماعيين . نحن لا نكتفي ذاتنا بذاتنا . فلدينا من الدموع اكثر مما نحتاج لاحزاننا ، ولدينا من احتياطي السرور اكثر مما تستطيع سعادتنا ان تبرر . يجب ان نمضي الى الآخرين ، ونكثّر انفسنا بالاتصال عن طريق الفكر والشعور . الحياة هي الخصب ، وبالعكس ، الخصب هو الحياة — (الحياة) الأشدّ امتلاء . انه الوجود الصحيح . هناك سخاء وكرم لا ينسلخان عن الوجود ، وبدونهما نموت ونجف من الصميم . فيجب ان نزهر . والاخلاق الطيبة والنزاهة تلك هي زهرة الحياة الانسانية . والمثل الاعلى ليس على نقيض العالم ، ولكنه سابق له . ان المثل الاعلى — في اصله — شبيه بفكرنا الذي ينشق عن الطبيعة ، ويمشي قدامها مستطلعاً ، مهيئاً الرقي المطرد . الواقع والمثل الاعلى متفاهمان في الحياة ، لان الحياة على وجه العموم كائنة وفي حالة الصيرورة ، في آن واحد . من يقل الحياة يقل التطوّر ا — ج . م . غيو — « صفحات مختارة » .

ماذا اغنت عنا جميع تدابيرنا ؟ ان الايمان والفكر قد حطما قيود الشعب . ان الايمان والفكر قد حررا الارض . اردنا ان نفرّق الناس بعضهم عن بعض ، ولكن جورنا آلف بينهم وألبهم علينا . هرقنا دماءهم فوقعت على رؤوسنا . بذرنا الفساد فتشبثت جذوره بتربتنا وتآكلت عظامنا . ولقد حسبنا اننا خنقنا الحرية ، ولكن انفاسها لفحت جذور سلطتنا وأيبستها ا — « لامنيه » (Lammenais) « اقوال مؤمن » .

ما معنى ان يحب الانسان وطنه ؟ ما معنى ان يكون الانسان وطنياً ؟ اذا كان الشاعر منصرفاً مدى حياته الى محاربة التعصب ، وازالة النظرات الضيقة ، وانارة ذهن قومه ، وتصفية ذوقهم وترقية آرائهم وافكارهم ، فقولوا كيف يمكنه ان يكون وطنياً على وجه خير من هذا الوجه ؟ — غوته في كتابه « احاديث مع اكرمن » .

أما بعد ، فقد وُليت عليكم ولست بخيركم ، فاذا استقمت فاعينوني واذا زغت فقوّموني . — الصديق ، ابو بكر .

... فئة لا يزالون يؤلمون اسماعنا بما يكررون من سفساف القول ، من مثل اذّا تعودنا احتمال الظلم والحيف والعناء والخدمة ، والرق ، فلن يستقلّ لنا رأي وان نهتدي سبيل الحرية ، كأنما هم لا يعلمون ان أهل الغرب اجمعين تعودوا مثل ذلك الحيف اعصاراً ، أو كانوا في قديم الايام على ضروب من الرق وانخفاض الجناح ، وان العالم باسره كان فريقين : احراراً يظلمون ، وعبيداً يطيعون ! — أديب اسحاق .

دم الثوار تعرفه فرنسا ، وتعلم انه نور وحق
جرى في ارضها فيه حياة كمنهلّ السماء ، وفيه رزق
بلاد مات فتيتها لتحيا ، وزالوا دون قومهم ليبقوا
وحُررت الشعوب على قناها فكيف على قناها تسترق ؟

احمد شوقي

اذا كانت آلامنا من السياسة الفرنسية شديدة ... فاننا لا نريد ان ندخل اليأس على قلوبنا من حياة الامة الفرنسية ويقظتها ومستقبلها العظيم . — مصطفى كامل باشا .

لا تقولوا لي : كم هي شاحبة فرنسا هذه ! فقد هرقت دمها من اجلكم ... ولما فرغت يدها اعطت روحها التي منها تحيون . — « ميشله » في كتابه : « الشعب » يخاطب الأمم .

أهم مراجع الكتاب

المراجع الفرنسية :

Michelet. — Histoire de la Révolution Française (1847-1853).
Encyclopédie Française. — vol. X, chap. IV (Les Libertés Individuelles). et autres chapitres . . .
E. Lavisse (en collaboration avec P. Conard). — Histoire de France (Armand Colin, Paris, 1937).
Rogie et Despiques. — Histoire de la France et de Ses Institutions (Rieder, Paris).
L'Abbé Courval. — Histoire Moderne, tome II (1896).
E. Herriot. — Précis de l'Histoire des Lettres Françaises (Rieder, Paris).
J. R. Bloch. — Naissance d'une Culture (Rieder, Paris).
R. Rolland. —Les Pages Immortelles de J. J. Rousseau (Editions Correa, Paris).
Diderot. — Extraits (édités par les Lettres Françaises en Proche Orient).
Montesquieu. — Extraits (édités par les Lettres Françaises en Proche Orient).

بيير فيلار : الثورة الفرنسية والمستعمرات (فصل نشرته مجلة « الطليعة » عدد خاص بالثورة الفرنسية ، دمشق تموز سنة ١٩٣٩) .

سنيوبوس : تاريخ التمدن الحديث ، تعريب « الكـاتب المحجوب » ، نشر دار الهلال ، ١٩٠٩ .

دماس (الكبير) : روايته عن الثورة الفرنسية ، نهضة الاسد ، الخ ... ، في اربعة اجزاء ومجلدين ، تعريب فرح انطون ، مطبعة المعارف ، مصر .

غوستاف لوبون : روح الثورات والثورة الفرنساوية ، ترجمة محمد عادل زعيتر ، طبع عبيد اخوان ، دمشق .

المراجع الانكليزية والاميركية :

Carlyle .— History of the French Revolution. (Modern Library Edition).
H. W. Nevinson .— The Growth of Freedom . (People's Books, London).
Randall . — The Making of the Modern Mind . (Allen and Unwin) .
Encyclopedea of Social Sciences . — Art. Revolution .

المراجع الالمانية :

جورج كونيو : « بعض الاسس التعليمية للثورة الفرنسية » (مجلة الطليعة ، دمشق ، تموز ، ١٩٣٩) وفي المقال نصوص عن الثورة منقولة من كتب المانية عصرية شهيرة كـ « خرافة القرن العشرين » لالفرد روزنبرغ ، الخ ...

هكذا تكلم زرادشت : تعريب فيلكس فارس ، مصر .

المراجع التركية :

محاكمة مدحت باشا : تعريب يوسف كمال حتاته ، مصر .

عاطف باشا : مذكرات (نقل منها نصوصا الدكتور كامل عياد في مقالته : الثورة الفرنسية والشرق ، مجلة « الطليعة » دمشق ، تموز ، ١٩٣٩) .

مجموعة المحررات السياسية ، المفاوضات الدولية ، عن سوريا ولبنان ، من سنة ١٨٤٠ الى ١٩١٠ — تعريب فيليب وفريد قعدان الخازن .

المراجع العربية :

محمد صبري : الثورة الفرنسية ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣٧ .

محمد فؤاد شكري : الحملة الفرنسية وظهور محمد علي ، مطبعة المعارف ، مصر .

كامل عياد : « الثورة الفرنسية والشرق » ، (مقال في مجلة الطليعة ، دمشق ، تموز ١٩٣٩) .

الامير حيدر احمد الشهابي : الغرر الحسان في اخبار ابناء الزمان ، الجزءان ٢ و ٣ ، القسم الثاني في الحملة الفرنسوية على مصر واوائل حكم الامير بشير الثاني (نشر مديرية المعارف اللبنانية ، ١٩٣٣ ، بعنوان : لبنان في عهد الامراء الشهابيين) .

نقولا الترك : تاريخ نابليون (اخذنا شيئاً من مقدمته المثبتة في حاشية تاريخ الامير حيدر ، السابق الذكر) .
انطون ضاهر العقيقي : مخطوطة له عن تاريخ لبنان من ١٨٤١ — ١٨٧٣ (نشرها ، وعلق حواشيها ، يوسف ابرهيم يزبك ، صدرت في منشورات مجلة الطليعة ، ١٩٣٦ ، بعنوان « ثورة وفتنة في لبنان ») .
رفاعة رافع الطهطاوي : تخليص الابريز الى تلخيص باريز ، بولاق ، الطبعة الحجرية .
المطران الدبس : الموجز في تاريخ سورية ، جزء ٢ ، بيروت ١٩٠٧ .
روحي الخالدي : علم الادب عند الافرنج والعرب وفيكتور هوغو ، دار الهلال ، ١٩١٢) .
احمد فارس الشدياق :
١) الساق على الساق في ما هو الفارياق ، (طبع يوسف توما البستاني مصر) .
٢) جمل ادبية (مدرجة في القسم الاول من مجالي الغرر لكتّاب القرن التاسع عشر ، جمع يوسف صفير ، بيروت ، ١٨٩٨) .
٣) كنز الرغائب في منتخبات الجوائب ، الجزء السادس ، طبع الاستانة .
نوفل نعمة الله نوفل الطرابلسي : زبدة الصحائف في سياحة المعارف ، بيروت ، ١٨٧٩ .
بطرس البستاني : دائرة المعارف (بيروت ، ١٨٨٢) مواد شتى في اجزاء مختلفة ، كمادة : روسو ، ثورة الخ ...
فرنسيس فتح الله المراش : غابة الحق ، بيروت ، ١٨٨١ .
جمال الدين الافغاني : خاطرات جمال الدين الافغاني الحسيني ، تأليف محمد باشا المخزومي ، بيروت ١٩٣١ .
عبد الرحمن الكواكبي : طبائع الاستبداد ، مصر ، ١٩٠٥ .
عبد الله نديم : مجموعة مقالات ، المطبعة الجديدة ، مصر .
شبلي الشميل : مجموعة مقالاته ، الجزء الثاني ، مطبعة المعارف ، مصر .

اديب اسحاق : الدرر ، المطبعة الادبية ، بيروت .

فهمي علمي : مصطفى كامل باشا في ٣٤ ربيعاً ، ٩ مجلدات ، القاهرة ، ١٩٠٨ — ١٩١١ .

ولي الدين يكن :

١) المعلوم والمجهول ، جزءان ، مطبعة المعارف ، مصر ، جزء ١ سنة ١٩٠٩ ، جزء ٢ سنة ١٩١٢ .

٢) ذكران ورائف : رواية ، نشرتها مجلة « الف ليلة وليلة » ، بيروت ، عدد ٣٦٤ .

فرح انطون : مقدمة الطبعة الثانية ، من تعريبه لرواية ديماس الكبير ، عن الثورة الفرنساوية .

شاكر الخوري : مجمع المسرات ، بيروت ، ١٩٠٨ .

نجيب الحداد : منتخبات ، مصر .

قاسم امين : مجموعة مقالات ، مصر .

جرجي زيدان :

١) تراجم مشاهير الشرق (جزءان)
٢) الانقلاب العثماني (رواية)
٣) الماسونية
٤) رحلة زيدان الى اوروبا

طبع دار الهلال ، مصر

جبران جبران :

١) العواصف
٢) دمعة وابتسامة
٣) الاجنحة المتكسرة
٤) الارواح المتمردة
٥) عرائس المروج
٦) البدائع والطرائف

طبعة يوسف توما البستاني ، مصر

امين البستاني : مجموعة مقالات ، دار الهلال ، ١٩١٩ .
امين الريحاني : الريحانيات ، ٤ اجزاء ، بيروت ، صادر ..
محمد الحسين آل كاشف الغطاء النجفي : المراجعـات الريحانية ، الجزء الاول ، وهي رسائل بينه وبين امين الريحاني ، المطبعة الاهلية ، بيروت .
ثورة العرب : بقلم احد اعضاء الجمعيات العربية ، نشر جريدة المقطم ، مصر ، ١٩١٦ .
رشيد رضا : الخلافة او الامامة العظمى ، طبع مجلة المنار ، مصر .
فيلكس فارس : رسالة المنبر ، مصر .
الآنسة مي : المساواة ، المطبعة الرحمانية ، مصر .
محمد كرد علي :
١) غرائب الغرب ، جزءان ، الاهلية ، مصر .
٢) مجلة المقتبس ، السنة السادسة .
ايوب ثابت : عبرة وذكرى (مجموعة مقالات كتبت لمناسبة الانقلاب العثماني ، بيروت ١٩٠٩) .
الشيخ مصطفى الغلاييني : اريج الزهر ، المكتبة الاهلية ، بيروت ، ١٩١١ .
محمد جميل بيهم : المرأة في التمدن الحديث ، بيروت ، ١٩٢٧ .
انيس الخوري المقدسي : العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث ، الحلقة الاولى : في العوامل السياسية (بيروت الجامعة الاميركية) .
الاب لويس شيخو : ادباء القرن التاسع عشر ، بيروت ، ١٩٠٨ .
عباس محمود العقاد : الثورة الفرنسية (مقـال في مجلة « الطليعة » ، دمشق ، تموز ١٩٣٩) .
محمد حسين هيكل : جان جاك روسو ، مصر .
طه حسين : آراء حرة ، مجموعة محاضرات عن نخبـة من اعلام حرية الفكر ، بينهم فولتير ، روسو ...
سلامه موسى : حرية الفكر ، مصر .
رئيف خوري : حقوق الانسان ، دمشق ، ١٩٣٧ .

عبد الرحمن الرافعي : الجمعيات الوطنية ، مصر .
سليمان غزاله : الحرية البشرية ، ٦ اجزاء ، بغداد ١٩٢٦ .
محمد عبد الباري : الحرية والدولة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر ١٩٢٦ .
الياس ابو شبكة : روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة ، بيروت ، دار المكشوف ، ١٩٤٣ .

القسم الأول

الثورة الفرنسية الكبرى

أهم الثورات العظمى المتأخرة هي الثورة الفرنسية المشهورة التي حدثت سنة ١٧٨٩ . وهي المراد في التواريخ عند الاطلاق ، فاذا قيل زمن الثورة الفرنسية كانت هي المقصودة . – (دائرة المعارف للبستاني ، مادة ثورة ، جزء ٦) .

... الانقلاب الكبير الذي حدث فيها (فرنسا) فغير معالمها وثل منها عرش الاستبداد وحرر العقول وبدل الظلام بالنور ووضع العدل في موضع الظلم ، وجرى بسبب ذلك من الفظائع الدموية ما تقشعر من سماع حديثه الجلود . – روحي الخالدي (تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب وفيكتور هوغو) .

وقد اتفق المؤرخون بان هذه الثائرة الفرنساوية ، تكون نهاية للقسم الثاني من القرن الاخير . – نوفل نعمة الله نوفل الطرابلسي (زبدة الصحائف في سياحة المعارف) .

ثورة الفرنسيس سنة ١٧٨٩ ... كانت ام الثورات ومطلع فجر الحرية للعالم كله . – امين البستاني (مقالته : الديموقراطية [١]) .

لما كان مدار بحثنا على الثورة الفرنسية ومفكريها وأعلامها ، وحوادثها الجسيمة ومبادئها ، وتأثير ذلك كله في الاعلام من ادبائنا ومفكرينا ، فقد وجب ان نلم – ولو الماماً يسيراً – بما هو ضروري لنا من تاريخها .

يجري الكتاب عن الثورة الفرنسية على تقسيم بحوثهم فيها الى الاقسام التالية :

تمهيد يدرسون فيه وضع فرنسا قبل الثورة ، وهو الوضع الذي اصبح يعرف باسم « النظام القديم » « L'Ancien Régime » . فيذكرون الملكية المطلقة وارتكازها

---

١) راجع المقالة في باب « نصوص مختارة » من هذا الكتاب .

الى حق الملوك الالهي [٢] ، وانقسام البلاد الى اربع طبقات وفق المنبت الاجتماعي : طبقة الاشراف ، اسياد الاكليروس ، الطبقة الثالثة ، (ثم الطبقة الرابعة في ادنى درجات السلم الاجتماعي) . ثم يذكر المؤرخون بذخ البلاط في فرساي ، ووقوع الخزينة في العجز بسبب الحروب وكثرة النفقات . ويذكرون ثقل الضرائب والحاجة المتكررة الى عقد القروض . ويفصلون امتيازات الاشراف والاكليروس في قضية الضرائب ، وفي تسخير المزارعين ، ويذكرون القيود على حرية الرأي وسجن الباستيل والتحارير المختومة « Lettres de cachets » وكيف كان من الميسور استصدارها بالرشوة وحبس الابرياء . ويذكرون الحدود الاقطاعية التي كانت تفصل جزءاً من فرنسا عن جزء ، وتعرقل حرية التجارة بما يفرضه الاسياد الاقطاعيون من مكوس .

ثم يلتفتون الى ذكر الفئات النامية في حضن المجتمع الفرنسي ، او الى القوى الجديدة التي نبضت في حياة فرنسا الاقتصادية والعقلية ، فكانت قاعدة الثورة

---

٢) الملكية المطلقة هي حصر السلطة جميعاً في يد الملك . وحق الملوك الالهي هو الحق الذي يبرر الملكية المطلقة ، نظرياً ، اذ يجعل حصر السلطة في يد الملك بمشيئة من الله . ولا ريب ان هذا المذهب من مذاهب الفكر السياسي قد انتهى دوره ، على انه في مبدأ الامر قام بخدمة تقدمية اذ اعطى الملوك ايضاً حقاً الهياً ، فبرر انفصالهم عن اشراف البابوات الذين كانوا يعلنون لانفسهم وحدهم حقاً الهياً يخولهم التداخل في حكم الدول ، وهكذا اعان هذا المذهب السياسي على نشأة الدولة المستقلة عن سلطة الكنيسة السياسية . واعان ايضاً على خلق الدول الموحدة بتركيز السلطة حول شخص الملك ، صاحب الحق الالهي دون غيره من اقوياء الاشراف والاسياد الاقطاعيين الذين كانوا يطمحون الى الاحتفاظ بسلطاتهم المطلقة ، ليكون كل منهم في اقطاعه اشبه بدولة في نطاق الدولة . فالملكية المطلقة وحق الملوك الالهي كانا ضروريين في دور من ادوار التقدم التاريخي لما طرحت مشكلة السلطة بين البابوات من جهة والملوك والاباطرة من جهة اخرى ، ثم بين الملوك والاباطرة من جهة واشراف الاقطاعات من جهة اخرى . على ان الملكية المطلقة وحق الملوك الالهي اصبحا عائقين في طريق التقدم لما اقبل الدور التاريخي الذي طرحت فيه مشكلة السلطة العليا بين الملك او الامبراطور من جهة ، والشعب والامة من جهة اخرى ، فكان الملك او الامبراطور يستند الى « مشيئة الله » في حصر السيادة بنفسه ، بينما يستند الشعب الى العقل وموجب الاحكام الطبيعية وانبثاق السلطة من الامة وضرورة التقيد بالدستور .

ومركز تموينها مادياً ومعنوياً . وهنا يذكر المؤرخون اعلام الفكر الذين سبقوا الثورة ممن عرفوا بـ « الفلاسفة » و « الانسكلوبيذيين » و « الاقتصاديين » او « الفيزيوكرات » و « البلوتوقراط » وسنفرد لهم فصلاً خاصاً . ويذكرون ايضاً نهضة الطبقة الثالثة « Tiers Etat » وهي الطبقة الملاكة الناشطة : طبقة الفلاحين اصحاب العقارات الصغيرة وسكان المدن [٣] التجار والمصنعين ، مع من يلحق بهم من المثقفين ولا سيا المحامين .

والطبقة الثالثة هذه هي الطبقة الوسطى ، لانها كانت في مركز وسط بين طبقتي الاشراف والاكليروس [٤] والطبقة الرابعة المتشكلة من افقر فقراء الريف والمدينة الذين يعيشون من العمل في ارض لا تخصهم أو في محترف لا يملكونه . ولعل احداً لم ينطق بلسان الطبقة الثالثة فيمثل وضعها وطموحها ، كما فعل الاب « سييه » اذ قال في أحد كراريسه : « ما هي الطبقة الثالثة ، هي كل شيء ! ماذا كانت حتى الآن ؟ لا شيء ! ماذا تريد ان تكون ؟ شيئاً ! »

ولا يغفل مؤرخو الثورة ان يذكروا ايضاً ، في تمهيدهم ، اثر العوامل الخارجية التي مثلت دورها في التشجيع على هذا الانقلاب الكبير كالثورة الانكليزية [٥]

٣) Les Bourgeois .

٤) وهؤلاء في حكم الطبقة الواحدة قوة ونفوذا .

٥) يقصد بالثورة الانكليزية الحركة التي ظهرت ملامحها في « استدعاء الحقوق » الذي رفعه البرلمان الانكليزي سنة ١٦٢٨ الى الملك شارل الاول يطلب منه ان يكف عن فرض الضرائب واستيفائها بغير موافقة المجلس وينهاه عن اقامة المحاكم العرفية ابان السلم ، وعن اسكان جنوده في منازل الرعايا بالقوة القاهرة . وكان هذا الاستدعاء مبنياً على الماغنا كارتا « Magna Carta » التي انتزعها الاشراف من الملك يوحنا سنة ١٢١٥ ، فرضخ شارل الاول مرغماً ، ولكنه حل البرلمان في السنة التالية واستبد بالسلطة . وطالت المشادة المكبوتة بينه وبين البرلمان والشعب ، حتى انفجرت المقاومة علناً اذ رفض احد الانكليز « جون هامبدن » سنة ١٦٤٠ ، ان يدفع ضريبة السفن ، فاعتقل وحوكم . غير انه لم يحكم عليه الا باكثرية ضئيلة من القضاة . وصادف ذلك اشتداد الخلاف بين شارل الاول والاسكتلنديين ، فوجد ان لا بد من دعوة البرلمان الى الانعقاد بعد ١١ سنة من حله . وهكذا التأم البرلمان الانكليزي المعروف بالطويل سنة ١٦٤٠ ، وكان اول ما صنعه ان

والثورة الاستقلالية الاميركية (٦) .

ومن هذا التمهيد ينتقل المؤرخون الى الحوادث التي كانت مقدمة للثورة ، فيذكرون الانهيار المالي الذي بات يهدد الخزينة ويضغط على الملك حتى لم يبق له مناص من التماس المخرج العاجل . ويذكرون كيف استنشاط الرأي العام غب انتشار تقرير الوزير « نكر » ، وهو التقرير الذي فضح فيه سنة ١٨٧١ تضعضع المالية

رفع الى الملك عريضة حادة اللهجة سميت عريضة التوبيخ الكبير « Grand Remons-trance » ، وفيها طلب جديد بان يكون الملك ووزراؤه مسؤولين امام البرلمان . فلم يلبث الامر ان ادى الى شبوب النضال المسلح سنة ١٦٤٢ ، فتمت الغلبة للثورة وزعيمها كرومويل ، وحكم على شارل الاول بالاعدام سنة ١٦٤٩ ، واعلنت الجمهورية الانكليزية باسم « Commonwealh » ، ويقول احد المورخين الضعيفي النظر ، وهو يقصد المزاح ، ان الانكليز يومئذ حرفوا الصلاة الربانية ، فبدلا من « ليأت ملكوتك » اصبحوا يدعون « لتأت جمهوريتك » .

وقد حاول الملك جيمز الاول ، بعد رجوع العرش الى انكلترا ، ان يبعث السلطة الملكية المطلقة فاضطر الى الحرب سنة ١٦٨٨ . واصدر البرلمان الانكليزي عريضة جديدة اكد فيها حقوق الامة والقيود التي يتقيد بها الملك . ويظهر ان ذلك كان فصل الخطاب بين العرش ومجلس النواب في انكلترا .

٦) وهي الثورة التي بدأت سنة ١٧٧٣ ، لما صعد جمهور من الشباب الهائج ، في مدينة بوسطن ، الى مركب من مراكب شركة الهند الشرقية الانكليزية يحمل شايا فقذفوا بحمولته الى البحر ونشروا الشعار : لا ضرائب بلا تمثيل ! فاخذت الحوادث تتطور بين المستعمرات الاميركية وانكلترا حتى اتسع نطاق الثورة بتولي « وشنطن » القيادة واعلان بيان الاستقلال الاميركي ، هذا البيان الذي كان اشبه بمقدمة لبيان حقوق الانسان في الثورة الفرنسية الكبرى . وقد كان للفرنسيين يد معروفة في ثورة اميركا ، وكان القائد الفرنسي « لافاييت » من اعوان الاميركيين في ساحات القتال . ولما سقط الباستيل سنة ١٧٨٩ بعث « لافاييت » بمفاتيحه الى الجنرال وشنطن . اما التمهيد الفكري الذي سبق ثورة الولايات المتحدة ، فيحمل طابعا واضحا من اثر الفلاسفة الفرنسيين . وليس يحتاج الى ذكر ان الثورة الفرنسية صادفت قابلية فكرية في اميركا اكبر منها في بريطانيا ، بل كانت حافزا لمعركة من المعارك الذهنية العنيفة الشهيرة في التاريخ ، بين ادمند برك الانكليزي ، مؤلف « خواطر في الثورة الفرنسية » ، وتوم باين الاميركي ، صاحب المؤلف الطائر الصيت « حقوق الانسان » .

واسراف البلاط . ويذكرون الخيبة التي اصطدم بها الوزير « كالون » في حمله الاعيان « Les Notables » على القبول ببرنامج اصلاحـه لتعديل الاساءات « Les Abus » في الاوضاع القائمة .

ثم يذكر المؤرخون كيف رضي الملك بانعقاد مجلس باريس — اهم المجالس الفرنسية — للموافقة على عقد قرض ، ولكن المجلس ابى ان يتحمل التبعة وحده وجعل انشاء القروض والضرائب من خصائص البلاد الممثلة في مجالسها . ويذكرون كيف فكرت المجالس بالانعقاد ، وطلب دورة عامة تلتئم فيها جميعاً فتبحث في طرق الاصلاح ووسائله . ويذكرون كيف اقدم مجلس اقليم « الدوفينه » على الانعقاد بنفسه في تموز سنة ١٧٨٨ ، فوجد الملك ان لا مناص له مما تطلب البلاد ، فوافق في شهر آب على دورة عامة تعقدها المجالس جميعها في فرساي في الخامس من شهر ايار سنة ١٧٨٩ .

وهنا يذكر المؤرخون كيف انصرفت طبقات الامة : الاشراف والاكليروس والطبقة الثالثة ، كل الى اختيار نوابها الذين سيمثلونها في فرساي . ويذكرون كيف الغيت المراقبة واطلقت الحريات لمناسبة الانتخابات ، وكيف أقبلت « الطبقة الثالثة » بموسم من الكراريس « Cahiers » تعين وجهة نظرها في الاصلاحات المنشودة . وكانت هذه الطبقة ، بالاستناد الى كثرة (٩٧ بالمئة من الامة) صريحة في طلب عدد من الممثلين لها يساوي مجموع ممثلي الطبقتين الاخريين : الاشراف والاكليروس . وكانت كذلك صريحة في طلب اجتماع النواب كلهم هيئة واحدة ، وفي طلب التصويت بالافراد لا بالطبقة ، ثم في طلب دستور وطني يقيد « السلطة المطلقة التي هي منبع الشرور النازلة بالدولة » على تعبير احد الكراريس .

ومن هنا يتقدم المؤرخون الى ذكر انعقاد المجالس في دورة عامة ، في الموعد المضروب ، إي في ٥ ايار سنة ١٧٨٩ . ولم تكن هذه المجالس قد انعقدت في دورة عامة منذ سنة ١٦١٤ ، ايام الملك القاصر لويس الثالث عشر وامه الوصية على العرش ماري المديتشية . وكان ممثلو الطبقة الثالثة لم ينسوا كيف زل احدهم

٣
الفكر العربي الحديث

– يومذاك – فقال : « نحن ابناء اسرة واحدة ، الاشراف هم الاخوة الكبار ونحن الاخوة الصغار . » فعلى دم نبيل من النبلاء و « رقّص » عليه عصاه جزاء وفاقاً لهذه الاهانـة . وكانوا ايضاً لم ينسوا كلمات روبير ميرون اذ قال : « الملك هو السيد ، ولكن شرط ان يحكم الحكم الصالح ، فالشعب لا يلبث ان يدرك ان الجندي ليس الا فلاحاً يحمل السلاح ! » فلم يطل الوقت حتى وفد النواب مرة الى قاعـة الاجتماع فوجدوها مقفلة ، وقال لهم قائل : لقد احتاج اليها البلاط الملكي لحفلة رقص تقام قريباً ! فعادوا ادراجهم وانطوت القضية .

اجل ، يذكر مؤرخو الثورة الفرنسية كيف ان نواب الطبقة الثالثة كانوا في سنة ١٧٨٩ عازمين على ان لا تنطوي القضية كما انطوت سنة ١٦١٤ .

وبدأت المشادة العنيفة الحادة . واصر ممثلو الطبقة الثالثة على ان تكون الجلسات مشتركة بين النواب جميعهم حتى لا يجتمع ممثلو كل طبقة على حدة . واصروا على طلب التصويت فرداً فرداً ، لا طبقـة طبقة . وكان قـد سبق لهم ان نجحوا في ارسال عدد من النواب يساوي نواب الطبقتين الاخريين [٧] ، وهكذا بات في امكانهم احراز الاكثرية في الجلسات ، لانهم كانوا يتوقعون ايضاً ان تنحاز اليهم فئة الاشراف الصغار والاكليروس الفقراء ، كما حصل فعلا فيما بعد .

ولم تطل المشادة حتى اعلن ممثلو الطبقة الثالثة تشكيل « الجمعية الوطنية » في ١٧ حزيران سنة ١٧٨٩ . فكانت تلك خطوة جريئة اسفرت عن هيئـة من النواب الوطنيين تمثل اكثرية الامة وتتكلم باسم الوطن وتستند الى ارادة الامة التي تعتبر من حقها اثبات وجودها . فالجمعية الوطنية هي اول برلمان فرنسي بالمعنى الحديث .

ونوى الملك ان يكرر ما وقع سنة ١٦١٤ الا ان الجمعية الوطنيـة ردت عليه بالقسم المشهور الذي اقسمته في بهو « جي دي بوم » Jeu de Paume وفيه تعهد النواب « بالاجتماع مهما تكن الاحوال والظروف الى ان يصكوا دستوراً للبلاد ! »

وفي ٢٣ حزيران سنة ١٧٨٩ ، عقدت دورة عامة حضرها الملك وممثلو الطبقات ، فاسفرت عن غضب الملك وانسحابه من الجلسة تتبعه غالبية الاشراف . على ان قسما

٧) وذلك بموافقة نكر الذي استوزره الملك من جديد سنة ١٧٨٨ .

كبيراً من الاكليروس ، وفئة من الاشراف انفسهم ، لبثوا مع ممثلي الطبقة الثالثة . وفي هذه الجلسة صرخ ميرابو كلمته التاريخية : « نحن هنا بارادة الشعب ولا نخرج الا بقوة الحراب ! » وكانت كلمته تلك موجهة الى رسول الملك الذي اقبل يأمر النواب بالانفضاض .

فاتضح عندئذ ان كل لجوء من الملك الى استعمال القوة ضد النواب سيعني لجوء النواب والشعب الى المقاومة . وطرحت على بساط التاريخ الفرنسي مسألة طالما طرحت في حياة الشعوب : أهي السلطة المطلقة التي تحكم ام ارادة الجماعة ؟

كان اذ ذاك في متناول الملك عدد من الجنود الحراس . ولكن هؤلاء كانوا من ابناء الشعب الباريسي . فهل يطيعونه اذا امرهم بطرد النواب ؟ وكان في متناوله ايضاً عدد من الخيالة الاشراف . ولكن الاحرار (الليبرال) من الاشراف امثال « لافاييت » افهموا ابناء طبقتهم انهم اذا شرعوا سلاحهم على المجلس قابلوهم بالسلاح . فوقف الملك موقف الحذر من اتخاذ تدبير غير مأمون العواقب . وفي ٢٧ حزيران سنة ١٧٨٩ اقر جميع مطالب الاكثرية من النواب .

وأعلنت الجمعية الوطنية نفسها جمعية دستورية ايضاً في ٩ تموز .

وهنا يذكر مؤرخو الثورة كيف ان الملك ومعظم البلاطيين لم يكونوا ليرضوا عن تطور الحوادث ، بل لم يكن في نيتهم الرضوخ لها الا انهم تراجعوا ريثما يهيئون القوة التي بها يردون الضربة بجيش يصح الاعتماد عليه .

واتجهت الجمعية الوطنية الى حشد التأييد الشعبي . وصرف الملك وزيره « نكر » من الخدمة في ١١ تموز ، لانه حمّله قسطاً من المسؤولية عن تطور الحوادث المزعجة ، فبات الشعب الباريسي يتحدث عن عزل « الوزير الوطني » .

وطفقت جماهير الشعب تظهر على مسرح الحوادث في شوارع باريس ، عنيفة غاضبة . وبعض المؤرخين ينعتونها بالعمى « Multitude Aveugle » (٨) ، فاذا صح هذا كان غريباً ان ترى هذه الجماهير « العمياء » طريقها الى الباستيل ، في ١٤ تموز سنة ١٧٨٩ ، فتهدمه ويصبح هذا التاريخ حداً فاصلا انتهى عنده « النظام القديم »

٨) Courval في كتابه Histoire Moderne ، الجزء ٢ ص ٢٥٦ .

وعيداً وطنياً تعيده الامة الفرنسية . ومهما يكن من شيء ، فان الجماهير « العمياء » ادركت فوراً معنى طوائف الجنود الاجنبية التي يحشدها الملك بين فرساي وباريس ، وفهمت مغزى جواب الملك للجمعية الوطنيـة لما طلب منه النواب صرف الجنود ، فأجابهم : انطلقوا الى « نوايون » او « سواسون » فاعقدوا اجتماعاتكم . فما كان من الجماهير الا ان انطلقت الى Hôtel de Ville فشكلت فيه مجلساً بلدياً Commune [٩] يحكم باريس ، والى Hôtel des Invalides فاستولت على الاسلحة ، وألفت الحرس الوطني بقيادة لافاييت ، واتخذت شارة الالوان الثلاثة وشعار الحرية والاخاء والمساواة ، وافتتحت الباستيل .

ومؤرخو الثورة الفرنسية مجمعون على ان سقوط هذه القلعة كان حادثاً (رمزياً) من اعظم حوادث الثورة . ولويس السادس عشر لم يدرك تمام الادراك انه امـام ثورة الا لما بلغه احد الدوقات نبأ سقوط القلعة هاتفاً : انه لعصيان ! فاجابه لويس : بل انهـا لثورة ! وايقن ان الجمعية الوطنية قد اكتسحت الموقف فرأى ان يتحاشى وقتياً صدم ارادته بارادتها .

و كان تشكيل المجلس البلدي الباريسي في Hôtel de Ville والاستيـلاء على الاسلحة وتأليف الحرس الوطني والهجوم عـلى الباستيل صيغاً وقوالب للعمل سبقت اليها مدينة باريس فلم تلبث ان حذت حذوها فرنسا كلها . ولعل العالم لا يعرف بلاداً كفرنسا يكاد يكون تاريخها الحديث ، على الاخص ، تاريخ عاصمتها . « ان باريس تجر فرنسا وراءها . »

وهنا يذكر المؤرخون كيف لم يلبث الهيجان ان سرى الى الاقاليم ، فكانت فترة الهلع الكبير « La Grande Peur » وطفق المزارعون وطوائف الفقراء المتشردين يهاجمون قصور الاشراف واملاك الكنيسة الواسعـة ، ويحرقون صكوك الامتيازات الاقطاعية ، ويقومون باعمال العنف . فحاول الحرس الوطني وجنود الملك ان يقمعوهم ولكن بلا جدوى .

---

٩) ترجمتها الحرفية : العامية ، وبهذا الاسم سماها الفلاحون اللبنـانيون في انتفاضاتهم على مشايخ الاقطاعية في القرن التاسع عشر .

وكان معنى هذا ان طبقة من المجتمع ظهرت في ميدان العمل الثوري ظهوراً جدياً ، نقصد بها الطبقة الرابعة « Quatrième Etat » . ورأت الجمعية الوطنية ان سقوط الباستيل وان يكن قد صفى حساب النظام القديم من الجهة السياسية فما زالت مشكلة اجتماعية تتعلق بالنظام القديم لا بد من تصفيتها ايضاً . فالتأم النواب في الليلة التاريخية المشهورة بليلة ٤ آب سنة ١٧٨٩ ، فالغوا الامتيازات والحقوق الاقطاعية . وكثيرون من الاشراف والاكليروس اعلنوا تنازلهم عن حقوقهم وامتيازاتهم ، اما بجارف الحماسة ودافع الاقتناع ، واما بعامل الخوف .

ومن ثم انصرف نواب الجمعية الوطنية ، في شهر آب ، الى اخراج بيان مبدئي يبررون به الانقلاب الذي احدثوه في الحياة الفرنسية . وهكذا اخرجوا للناس نشرة « حقوق الانسان » الشهيرة ، (وقد اثبتناها في صدر من هذا الكتاب). ومن يقرأها يشعر بما كان للثورة الانكليزية والاميركية ، ولمفكري القرن الثامن عشر من اثر قوي فيها . ويمكن تلخيصها بالنقاط التالية : السيادة للامة ، تساوي الناس في الحقوق والواجبات العامة ، حق الناس في الحرية الفردية والطباعية والكلامية ، حق الناس في الامن على املاكهم ، حق الناس في اختيار العقيدة الدينية واتباعها ...

وبدا كأن الحركة الانقلابية قد بلغت ذروتها . ولكن بقاء الملك في فرساي ، وغلاء الغذاء ، واجتماع اجناد جديدة الى قصر الملك ، كل ذلك جعل الشعب غير مطمئن على سلامة الاصلاحات والانتصارات التي احرزها .

فزحفت ، في ٥ تشرين الاول ، جمهرة غفيرة من النساء المسلحات يتبعها لافاييت والحرس الوطني ، الى فرساي . فانتقل الملك بعائلته الى قصر التويلري في باريس حيث باتت الجمعية الوطنية تعقد اجتماعاتها ايضاً .

وعقبت فترة من هدوء . وعيّدت فرنسا عيد ١٤ تموز لاول مرة ، وهو اليوم الذي هدم فيه الباستيل . فحضر العيد ممثلون للحرس الوطني اقبلوا من جميع اقاليم فرنسا . واقيم هيكل للوطن ، واقسم لافاييت قائد الحرس الوطني يمين الولاء للدستور والقانون والملك ، ثم اقسم الملك — الذي حضر العيد ايضاً — يمين الولاء للدستور . وعرف هذا العيد بعيد الاتحاد Fête de la Fédération واصبح الفرنسي بعده

لا يتحدث الا عن « امة فرنسية » ، وكان من قبل يقال مثلا : الامة البريتونيـة او البوفنسية تبعاً لاسم الاقليم .

وهنـا يذكر مؤرخو الثورة كيف ان الملك لويس السادس عشر لم يستطع ان يوطن نفسه على مسايرة الوضع الجديد ، فاخذ ينسج نسجاً ويحبك حبكاً في الخفاء ، وأمل ان يوقع خلافاً في صفوف الجمعية الوطنية من ناحية ، (١٠) وان يستعين من ناحية اخرى بتدخل الملوك ، ولا سيا نسيبه ملك النمسا . ومن المؤرخين من يحبون ان يزيلوا عنه هـذه التهم ، ليحملوها امرأته ماري انطوانيت . ومهما يكن من امر ، فالواقع ان الملك هرب متنكراً الى فارين ، في حزيران سنـة ١٧٩١ ، وهو ينوي ان يقود جيش المركيز دي بوييه « de Bouillé » الى باريس اتقمع فورانها . على ان العيون كشفته ، فأعيد مخفوراً الى العاصمة . واوقفته الجمعية الوطنية عن ممارسة سلطاته وقتياً . وتشدد الحزب الجمهوري . الا ان اكثرية النواب كانوا لا يزالون ملكيين ، فلما انتشبت مظاهرة في الشان دي مارس « Champs de Mars » تنادي بالجمهورية ، فرقتها الجمعية الوطنية بالقوة .

عند هذا الحد يقف مؤرخو الثورة وقفة ، ليلخصوا اعمال الجمعية الوطنية الدستورية . لقد اعطت هـذه الجمعية فرنسا دستوراً هو المعروف بدستور سنة ١٧٩١ (صيـغ بالتدريج فلم يكتمل الا في هـذا العام مع ان البدء به كان سنة ١٧٨٩) . ومؤدى هذا الدستور انه يجعل نظام الحكم في فرنسا ملكية مقيدة ، ويمنح الملك

---

١٠) يقال ان لويس السادس عشر كانت له علاقات مريبة بميرابو . وفي عهد المؤتمر الوطني « La Convention » ، تقدم عامل الى وزير الداخلية فأخبره ان الملك كان قد كلفه عمل خزانة مخفية داخل جدار في قصر التويلري . فهرع الوزير الى القصر وكشف مكان الخزانة وفتحها ، فاذا فيها اوراق تفضح علائق بين البلاط وميرابو ، وبين البلاط والوزير النمسوي مترنيخ ، والقائد ديموريبه الذي انحاز الى جانب النمسويين ، وبارناف ورؤساء الاشراف والاكليروس المهاجرين . ومن المؤرخين من يقول ان ذلك كان تزويرا يقصد به التمهيد لمحاكمة الملك السجين واعدامه . ومن المؤرخين من يقول ان هـذا يفسر هرب الملك بعد موت ميرابو ، اي بعد ان يئس من معونة داخلية واصبحت كل آماله معلقة على المدد الخارجي .

سلطات واسعة كحق وقف التنفيذ لأجل [11] « Veto Suspensif » واختيار وزرائه وقادته . الا ان على الملك الخضوع للقانون . وهو ليس ملك فرنسا بل ملك الفرنسيين [12] والفرنسيون ليسوا رعية « Sujets » ولكنهم مواطنون « citoyens » . فوضع الملك في الدولة اشبه بوضع موظف اول وراثي . والقوانين تسنها هيئة نيابية هي الجمعية التشريعية . والسلطات ثلاث : التشريعية والقضائية والتنفيذية . اما التنفيذية فمعظمها بيد الملك . واما التشريعية فللجمعية المسماة بهذا الاسم (او للبرلمان المنتخب) ، ويجري الانتخاب على درجتين ، ولا يصوت الا من يدفعون ثلاثة فرنكات ضرائب [13] على الاقل (حوالي ٣٠ او ٤٠ فرنكاً اليوم) . وهؤلاء هم المواطنون العاملون « Citoyens Actifs » تمييزاً لهم من المواطنين غير العاملين ، اي الذين لا يملكون ما يدفعون عليه ضرائب . وقد احتج روبسبيير وماراه ، عضوا نادي اليعاقبة ، على هذا التدبير الذي يخالف اعلان حقوق الانسان ، ويجرد نحواً من ثلاثة ملايين ناخب من حق الانتخاب ، مسيئاً بذلك الى السيادة الوطنية المنبثقة من الامة . واما السلطة القضائية فجعلت لمحاكم نظمت تنظيماً جديداً ، يرأسها قضاة كلهم منتخبون .

وقسمت الجمعية الوطنية فرنسا تقسيماً جديداً الى مناطق فما دونها ، فسهلت ادارتها ، وجعلت هيئات الادارة انتخابية .

وسنت للاكليروس دستوراً مدنياً خاصاً ، فمنهم من لم يرض به فسميت فئته الاكليروس المخالف « Réfractaire » ومنهم من قبل به فسميت فئته الاكليروس الدستوري . وكان جل هؤلاء من الفقراء والهابطين في سلم الرتب الكهنوتية ، فاستولوا على الابرشيات والكنائس .

وانتهى دور الجمعية الوطنية ففسحت المجال للجمعية التشريعية ، عملاً بالدستور ، في ٣٠ ايلول سنة ١٧٩١ .

---

١١) اذا وافقت ، على قرار ما ، ثلاثة برلمانات متعاقبة ، اصبح القرار نافذا بغير تصديق من الملك .

١٢) للطهطاوي تعليق على هذا التفريق في التسمية ، انظره في النصوص المختارة للطهطاوي في هذا الكتاب .

١٣) جعلت الضرائب على اساس الاملاك وسميت « مساهمات » Contributions .

ولكن فرنسا كانت اذ ذاك في خطر من الحرب والمداخلة الاجنبية ، اذ ان ملوك اوروبا — وعلى رأسهم امبراطور النمسا — شاؤوا ان يفرضوا ارادتهم على البلاد « الخارجة » فاعلنوا « تصريح بلنتز » الشهير . وايدهم في ذلك نفر من كبار البلاد والاكليروس ممن لم تعجبهم الاصلاحات ، فغادروا فرنسا ليستعينوا بالاجانب على احداث ردة ، واحتشدت منهم فرق في « كوبلنز » ليكونوا طليعة جيوش التدخل الاجنبية .

ويقبل المؤرخون على عهد الجمعية التشريعية ، فيذكرون اعلان الحرب على النمسا في ٢٠ نيسان سنة ١٧٩٢ . وكان اعلان الحرب حقاً من حقوق الملك ، بموجب الدستور . ويقول بعض المؤرخين انه لم يتريث في اعلانها لاعتقاده ان المقاومة الفرنسية سريعاً ما تنهار ، فيقضى على النظام الجديد . ثم يذكر المؤرخون كيف اصيبت الجيوش الفرنسية المنظمة حديثاً ، بهزائم كبيرة . ويذكرون كيف اكثر الملك من استعمال حقه في الا « Veto » ، وكيف تظاهر الباريسيون لدى قصر التويلري حيث يقيم الملك . ولكن لويس السادس عشر ، بعد الهزائم العسكرية التي منيت بها الجيوش الفرنسية ، قويت آماله بامكان احداث الردة ، فتحصن في قصره واستعان بالحرس السويسري للدفاع عن نفسه ضد الشعب الهائج ، بينما حث المتدخلين على اجتياح فرنسا والاسراع لنجدته . فاعلنت الجمعية التشريعية ان الوطن في خطر . فهرع المتطوعون الى الصفوف ، واذاع « دوق برونشفيك » قائد الجيش البروسي الذي حالف النمسويين ، انه سيدمر باريس اذا هاجم الشعب قصر التويلري . فاستفز ذلك الباريسيين بدلا من ترويعهم . فاقاموا عامية للعصيان الثوري في « الاوتيل دي فيل » ، واندفعوا الى محاصرة قصر الملك بغية افتتاحه . وانجدتهم كتائب من الجماهير زاحفة من مرسيليا وهي تنشد « المارسيلياز » الذي اصبح نشيد الثورة ونشيد فرنسا الوطني [١٤] وتغلب الثائرون على الحرس واستولوا على القصر في ١٠ آب سنة

---

١٤) ناظمه روجيه ده ليل ، وهو ضابط فرنسي كان في جيش الران لما اعلنت الحرب على النمسا ، وقد نظمه ذات ليلة في منزل شيخ ستراسبورغ ثم طبعه باسم اغنية حرب لجيش الران . فلما اقبل ثوار مرسيليا على باريس وهم ينشدونه اطلق عليه اسم المارسيلياز .

١٧٩٢ ، فلجأ الملك وعائلته الى الجمعية ، فأودع قصر التامبل وهو سجين . وهكذا الغيت الملكية عملياً ، وان لم تلغ نظرياً . واقامت الجمعية حكومة موقتة من اعضائها دانتون ، وامرت باجراء انتخابات جديدة لتقوم جمعية جديدة على اساس الاقتراع العام ، (١٥) « Suffrage Universel » لتقوم جمعية جديدة تعدّل الدستور اذا رأت ذلك مناسباً (١٦) .

وكان ايلول ، والجيش البروسي المتدخل يزحف على باريس بعد ان استولى على فردان ، فأحس الشعب بدنو معركة حاسمة ، فاشتد استعداده ، ومثّل « ماراه » دوراً عظيماً في استنهاض الهمم ، واكثر المؤرخين يستفظعون هذه المذابح ، مذابح ايلول ، ويحتمل انها جرفت عدداً كبيراً من الابرياء ، ولكن قصد الشعب منها كان تطهير مؤخرته من العناصر التي يمكن ان تكون عوناً للعدو المهاجم بطعنة تطعنها في الظهر ، على ان العدو لم يستطع الوصول الى باريس لان الجيش الفرنسي الجديد بقيادة ديموريه وكلرمان (ولاسيما هذا الاخير) هزمهم في فالمي في ٢٠ ايلول سنة ١٧٩٢ . ويقال ان فالمي لم تكن معركة هائلة بجوادثها العسكرية ، الا انها كانت عظيمة بمدى تأثيرها التاريخي ، والصيحة التي ملأت افواه الفرنسيين : « لتحيَ الامة ! » ذهبت بعيداً في اوروبا والعالم ، وهتف غوته ليلة المعركة : من هذا المكان ، ومن هذا اليوم ، تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الدنيا .

وانتهى اجل الجمعية التشريعية في النهار الذي وقعت فيه معركة فالمي ، وحل محلها المؤتمر الوطني « La Convention » . وكان اول ما صنع ان اعلن الجمهورية الفرنسية الاولى في ٢٢ ايلول سنة ١٧٩٢ ، وجعل هذا الحادث تاريخاً يؤرخ منه وغيّر اسماء الشهور واصطنع تقويماً جديداً .

وهنا يذكر المؤرخون التشكيل الحزبي الذي تألف منه المؤتمر الوطني ، ففي اليمين

---

١٥) يستثنى النساء . وكان للثورة الفرنسية موقف من القضية النسائية لخصه احد كتابنا الاستاذ محمد جميل بيهم في فصل موجز اثبتناه مع نصوص هذا الكتاب .

١٦) يلاحظ ان اطلاق الحق العام في الاقتراع كان بذاته تعديلا للدستور ، اتخذته الجمعية التشريعية لتزيد في حماسة الشعب واشتراكه في الاعمال الدفاعية عن الوطن .

كان حزب الجيروندين (نسبة الى الجيروند [١٧]) وزعيمهم بريسو ، ومنهم فرنيو وكوندورسيه ومدام رولان التي جعلت من بيتها نادياً لهم • وكان الجيروندين يتوجسون من اعمال الشعب ويخشون نفوذ عامية باريس • وكان من رأيهم ان تتخذ الجمهورية الفرنسية المنوي اعلانها صيغة اتحادية « Fédérative » كالولايات المتحدة الاميركية •

والى شمال المؤتمر كان حزب الجبل ، يجلس نوابه على مرتقى في القاعة ، وهم من اليعاقبة والكرادلة (نسبة الى النادي اليعقوبي ونادي الكرادلة Cordeliers) ومن اعلامهم روبسبيير ودانتون وماراه وهيبرت وكاميل ديمولان • وكان اهم الاعضاء في احد الناديين أعضاء في الآخر • الا ان الكرادلة كانت تغلب عليهم خطة تطرف مقررة سلفاً ، وكانوا احياناً ينهجون نهج « المزاد العلني » في طلب التدابير والاصلاحات وينادون بما يسمونه « الثورة الى النهاية » • ولكن نادي الكرادلة لم يشتهر كاشتهار نادي اليعاقبة الذي تألف اولا من نواب مقاطعة بريتانيا فسمي النادي البريتاني • ثم لما استقر النواب في باريس استأجر دير اليعاقبة مكاناً لاجتماعاته فنسب اليه ونشأت له فروع في جهات فرنسا بلغت الاربعماية • وكان يعتمد على هذه الفروع في تقوية نفوذه • ويستند الى تأييد عامية باريس والتدخل الشعبي • اما الصيغة الاتحادية للجمهورية فكان يقاومها ويقول : « ان الجمهورية وحدة لا تتجزأ • »

وفي وسط المؤتمر كان حزب السهل وهو الذي يقوم بدور الترجيح في التصويت •وكان اكثر ما يصوت للجيروندين قبل سقوطهم •

اعلن المؤتمر الوطني الجمهورية ، ولم يلبث ان اخرج الملك السجين من محبسه فحاكمه وقضى عليه بالاعدام • فقدم الى المقصلة في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٧٩٣ • اما التهم الموجهة اليه فكانت المؤامرة على الحرية العامة ، والاتصال بالاجانب ، وتعريض الوطن للغزو الاجنبي ، وسفك دم الفرنسيين • وكان آخر ما وجهه اليه رئيس المحكمة في استنطاقه ، هذا الكلام : لقد احدثت سفك دم فرنسي في ١٠

---

١٧) مقاطعة في الجنوب الغربي من فرنسا ، قاعدتها مدينة بوردو .

آب [18] فبمَ تجيب ؟ وبين مؤرخي الثورة والكتاب عنها جدل طويل حول قضية اعدام الملك [19] .

اما في ساحات القتال ، فقد احرزت الجيوش الفرنسية ، في طليعة عهد المؤتمر ، انتصاراً كلل حلقة فالمي ، فقهرت النمسويين في جاماب (٥ تشرين الثاني ١٧٩٢) وطردتهم من البلجيك ، وضمت كونتية نيس ، ودخلت اقليم السافوا الذي قرر الالتحاق بالجمهورية الفرنسية بعد القضاء على النظام القديم فيه .

ولكن فرنسا لم تلبث ان وجدت نفسها مطوقة ، فقد هبت عليها اوروبا من النمسا الى روسيا إلى انكلترا الى اسبانيا . ومن هذه الدول من كانت تخشى اتساع النفوذ الفرنسي ، ومنها من كانت تخشى عدوى المبادىء لاسيا بعد اعدام الملك [20] وانضم الى هذا التحالف العام ضد فرنسا هولانده وامراء ايطاليا .

وشجع هذا التحالف الخارجي انتقاضاً داخلياً ملكياً في اقليم الفانديه (Vendée) ، فلم يستطع المؤتمر ان يقمع تلك الثورة الا بعد عراك شديد دام حتى تشرين الاول سنة ١٧٩٣ . واصابت الجيوش الفرنسية هزائم في البلجيك فاضطرت الى الجلاء عنها . وباتت ارض فرنسا وهي عرضة للغزو والاجتياح من جهات عدة .

ويذكر المؤرخون في هذه المرحلة كيف قامت عامية باريس باكبر دور مثلته حتى الان في الثورة ، اذ حاصرت المؤتمر ، بقيادة هنريو ، وحملته على اعتقال اعضائه من « الجيروند » متهمة اياهم بالتساهل في مصلحة الوطن ، وبالمواطأة للقائد ديموربيه الذي خان وانضم الى النمسويين . ومنذ ٢ حزيران سنة ١٧٩٣ انحصرت السلطة في حزب الجبل واليعاقبة . فثار اتباع الجيروند ، وبدا كأن الجمهورية الفرنسية الاولى لن يتيسر انقاذها بسبب التمزق الداخلي والضغط الخارجي . ولكن المؤتمر اقام لجنة الانقاذ

---

١٨) ١٠ آب هو يوم حصار التويلري ، والمعركة بين الحرس السويسري والشعب .

١٩) وفي الادوار التي عاد فيها الملكيون الى نفوذهم في فرنسا استحدثوا من هذا الاعدام تهمة وجهوها الى قتلة الملوك « Les Régicides » ، فطاردوهم ونفوا كثيرين ، واقاموا « الارهاب الابيض » « La Terreur Blanche » .

٢٠) قال احد زعماء الثوار يصف أثر اعدام الملك : « في هذا اليوم لمس متوجو اوروبا رؤوسهم يتثبتون من بقائها بين اكتافهم . »

العامة « Comité de Salut Publique » مؤلفة من اثني عشر عضواً ، وهي اللجنة التي وضع روبسبيير يده على دفتها فسيرها في اعصب الاوقات . وبعض مؤرخي الثورة يتفل على اليد الروبسبيرية ، وبعضهم ينصرف الى المفاضلة بينه وبين دانتون . والواضح ان مصير الثورة بل مصير فرنسا كان اذ ذاك معلقاً بشعرة . وكان الوضع يقتضي – اولا – كفاحاً لا هوادة فيه ضد « ميمنة » الجيروند التي دفع بها اخراجها من السلطة الى احضان الرجعية الناقة والى استخدام الاغتيال ، كما ظهر من قتل الفتاة الجيروندية ، شارلوت كورداي ، لماراه احد اعلام الثورة الشعبيين . وكان الوضع يقتضي – ثانياً – كفاحاً لا هوادة فيه ضد « ميسرة » لا تعرف حداً تقف عنده ، يسكرها النجاح وتصر على استفزازات تقصي التأييد عن الثورة ، كما تبين من تطرف شوميت الى « الغاء الدين » و « عبادة العقل » في شخص امرأة حسناء تنصب آلهاً ! [٢١]

تجاه هذا الوضع كان لا بد من ارادة فولاذية بصيرة تقبض على دفة السلطة فتعين هدف البلاد الرئيسي ، أي : انقاذ الوطن ، وانقاذ الثورة بحشد قوة الشعب وتهيىء الوسائل من اسلحة وغيرها لسحق الاعداء في الداخل ، وضربهم في الخارج . ولقد وجد الشعب الفرنسي يومذاك ، هذه الارادة الفولاذية ، في روبسبيير ولقبه « المعصوم من الفساد » (L'incorruptible) .

بدأ روبسبيير واعوانه تنظيم الجيوش الجديدة ، واشرفوا على تنشيط انتاج العتاد والذخيرة ، وهيأوا الاموال بتصريف الاملاك المصادرة ، وأقاموا المحكمة الثورية « Tribunal Révolutionnaire » فارسلوا الكثيرين الى المقصلة . والمؤرخون يعترفون بان هذا العهد انقذ فرنسا والثورة من سحق تام ، وكشف الستار عن حيوية في الشعب ادهشت العالم .

---

٢١) وكانت احدى ممثلات الاوبرا هي المرأة التي وقع عليها الاختيار الأول لتمثل « العقل » وتصبح معبودة الناس ! وقد ادرك روبسبيير ، فورا ، خطر مثل هذه التطرفات الخرقاء ، وكان رجلا ينحو في معتقده الديني منحى روسو وفريق الربانيين Déistes وهم يؤمنون بالله ، على انه المنبع الاصلي ، ولكنهم يبنون الدين على العقل واعتبار الطبيعة .

ومن السهل جداً على مؤرخ ان يفرد حادثة اعدام واحدة مثلا فيقول ويقول الى ان ينتهي بالحكم القاضي على روبسبير « الدموي » وعلى عهد « الارهاب الصغير والكبير » . ولكن التاريخ لا يحكم على جل كروبسبير وعهده بهذا الاسلوب [٢٢].

وفي هذه المرحلة برز قواد فرنسيون مبدعون كالقائد كارنو « منظم النصر » ومنظم غضب الشعب عسكرياً [٢٣] ، والقائد هوش ، ومارسو ، وجوردان الخ . فحرروا الارض الفرنسية من سطو الجيوش الاجنبية التي كانت تدق على ابواب الوطن ، وهي اوفر عدداً واحسن عدة . وقمعوا ، كذلك ، الحركات الداخلية واهمها ثورة الفاندية الملكية . ثم ما لبثوا ان دفعوا القوات الفرنسية الى خارج بلادهم فسحق جوردان النمسويين في معركة فلوريس سنة ١٧٩٤ ، واحتل البلجيك ، واستولى الفرنسيون على هولندا واسطولها ، وتقدموا الى الشاطىء الايسر من نهر الران .

وفي الوقت الذي اصبحت فيه ارض فرنسا في مأمن من الغزو تبين لفريق كبير ان لجنة الانقاذ العامة وسيطرة روبسبير لم يبق لها ضرورة . فسقط روبسبير في ٩ ترميدور من السنة الثانية لتأسيس الجمهورية (٢٧ تموز سنة ١٧٩٤) وسيق الى المقصلة مع سان جوست وكوتون ، ولم تستطع عامية باريس ان تحشد من القوة ما ينقذ الرجل ، ذلك لان الحاجة اليه والى عهده انقضت في رأي فئات كثيرة من الناس . وتبين ايضاً بعد المعاهدات التي عقدتها فرنسا المنتصرة مع دول اوروبا سنة ١٧٩٥ ان المؤتمر الوطني نفسه لم تبق اليه حاجة ، فانفض في ٢٦ ت ١ سنة ١٧٩٥ .

ولم يقتصر عمل المؤتمر على الكفاح العنيف في الداخل والخارج ، بل صك دستور سنة ١٧٩٥ (دستور السنة الثالثة حسب التقويم الجمهوري) وهو القانون الاساسي الذي استهدف تنظيم الجمهورية الفرنسية الاولى فأودع السلطة التنفيذية ايدي خمسة مديرين ، واقام لجاناً بمحل الوزارات ، وجعل المجلس النيابي قسمين : القدماء (او الشيوخ)

٢٢) للريحاني مقال في نقد كتاب كارليل عن الثورة الفرنسية ، راجعه في نصوص هذا الكتاب ، ففيه ما يتعلق بهذه القضية .

٢٣) كان كارنو يقول : يجب ان ننظم غضب الشعب عسكرياً . وبها يعني ان الشعوب في ثوراتها تعطي مادة لجيوش لا تقهر . ولكن لا بد مع ذلك من خلق جهاز عسكري نظامي .

« Les Anciens » ومجلس الخمسمائة ، وقضى علـى آخر بقية باقيـة من الحقوق الاقطاعية ، وأمر بنص مجموعة قوانين « Code » واحدة للبلاد كلها ، وبدأ يحول جهده نحو تسوية المشاكل المالية واولها الدين العام الناشيء عن نفقات الحرب .

واهتم المؤتمر بالثقافة العاليـة والعامة اهتماماً جدياً مثمراً ، فقرر التعليم الابتدائي العلماني اجبارياً ، وانشأ المدارس المركزية للتهذيب الثانوي ، الا انه لم يوفق الى استكمال الهدف المنشود ، واسس مدرسة بوليتكنيك « Polytechnique » ودار المعلـين ومدرسـة « مارس » للضباط . واقـام المجمع الوطـني للعلماء « Institut National » ومتحف التاريخ الطبيعي ، وجدد كلية فرنسا و « دار الوثائق الوطنية » للمستندات التاريخية « Archives Nationales » ، وادخل القاعدة المترية في المقاييس والمكاييل ، وهي أوفق مصطلح من نوعه .

وهنالك ناحية من اعمال المؤتمر الوطني يحب السكوت عنها كثير من المؤرخين ، ويسير منهم من يذكرها ، الا وهي ناحية العلاقة بين الدولة المركزية ومستعمرات فرنسا القليلة اذ ذاك .

كان معظم سكان هذه المستعمرات من العبيد الارقاء ، فلما وصلتهم طـلائع انباء الثورة املوا خيراً ، وتهيأوا لاستقبال عهد جديد تقوم فيه العلاقة بينهم وبـين الدولة المركزية على اساس جديد . ولم يلبث اعـلام الثورة ان وجدوا انفسهم في وضع حرج . فهم امام تعاليم الفلاسفة الذين يستوحونهم ومبادىء حقوق الانسان لا يستطيعون ان ينكروا على العبيد واهل المستعمرات حقوقهم ، الا انهم (الكثيرين منهم) انما قصدوا بهـذه المبادىء الانسانية المطلقة ان تكون سلاحاً ضد ذوي الامتيازات في الداخل . اما أن يستعمل العبيد واهل المستعمرات تلك المبادىء سلاحاً حقوقياً يتقوون به ، فهذه مسألة اخرى . وانشق اعلام الثورة الى اقسام : قسم يرفض مطالب المستعمرات والعبيد ، وقسم يتردد ، وقسم يرى من الضروري الاعتراف بهذه المطالب وفقاً لشعارات الثورة . فلما كان عهد المؤتمر الوطني ، عمل روبسبيير على الغاء الرق بغير تحفظ [٢٤] وهو لا يبالي بما اتهم به من تضييع الحقوق المسماة « حقوق فرنسا » .

٢٤) وقع بهذا الصدد بين روبسبيير ودانتون خلاف في وجهة النظر نشير اليه لانـه

أي : حقوق تجـار الرقيق وكبار اهل الجاليات . وكانت النتيجة عجيبة . اذ ان عبيد المستعمرات وابناء الشعب من الجاليات الفرنسية انتظموا في صفوف واحـدة ودافعوا بمؤازرة رسل « الكونفانسيون » عن ارض المستعمرات دفاعاً رائعاً طرد جيوش التدخل الاجنبية واعوانهم من تجار الرقيق وكبار اهل الجاليات ، وابقوا هذه الارض تابعة لفرنسا التي اصبحت لهم وطناً اماً حقيقياً بعد تطبيق قوانينها الثورية عليهم وعلى الفرنسيين سواء بسواء . وفي هـذا العهد برز الزعيم الاسود الكبير توسان لوفرتير ، فانشأ في سان دومنغ كلها حكومة حرة في نطاق الكيان الفرنسي ، (بعد ان طرد الاسبان من قسمهم في الجزيرة) .

وابدى هو واعوانه العبيد من الكفاءة ما نقض الزعم القائل بان العبيد لا قدرة لهم على مماشاة التمدن وخلقه ، وبالتالي نقض كل زعم يقول بضرورة سيطرة عرق بشري على عرق . وكذلك ايدت تدابير المؤتمر الوطني الرأي القائل بان اعـتراف الشعوب بعضها بحقوق بعض ، يقرب بينها ولا يباعد .

ولا جدال في ان المؤتمر الوطني الفرنسي يحتل اجرأ صفحة ، وأبكر صفحة ، في تاريخ الغـاء الرق وتحرير العبيد . ومعظم الاهتمام بقضية الرق والعبيـد كان من قبل مصروفاً الى ارشاد الاسياد وترقيق قلوبهم ، او الى منـع الاتجار بالسود

يكشف عن تفاوت بين الرجلين في عمق الادراك الثوري . فقد اقـترح دانتون ان تسلم فرنسا بعض مستعمراتها الى الولايات المتحدة . واعتبر ذلك ضرباً من « المهارة السياسية » يشغل بريطانيا بمشادة مع الولايات المتحدة . ولكن روبسبيير رفض هذا الاقتراح لسببين : اولها – ان الشعوب ليست بضائع تتداولهـا الحكومات ، وثانيها – ان انصاف الشعوب التابعة لـ « الوطن الأم » يقوي مركز « الوطن الأم » تقوية عظيمة . وجاءت الحوادث مؤيدة وجهـة نظر روبسبيير . وكثيرون ينعتون هذا الثائر الكبير بانسان « خطفتـه المبـادىء » . ويزعمون انـه قال : « لتهلك المستعمرات ولا ينقض مبدأ واحـد . » والصحيح انه قال : « لن نضحي من اجل (مصالح) الجاليات الاستعمارية بالامـة ولا بالمستعمرات ولا بالانسانية جمعاء ! » والفرق بين القولين واضح . ولما جاء دور نابوليون قضى على « توسان لوفرتير » وحركته في سان دومنغ ، وهو يظن انه بهذه الخطة انما يؤمن حقوق فرنسا والتصاق البـلاد بها . غير ان الوقائع نسفت ظنـه . فما لبثت المعاملة السيئة التي ذاقتها سان دومنغ ان دفعتها الى الانفصال الكلي .

« المساكين » [٢٥] .

على انها صفحة مجيدة ، للمؤتمر الوطني ، لم يطل امدهـا . فان الرجعة النابليونية طوتها . ونابليون هو صاحب الكلمة « الرق شر ضروري » . ويمكن القول بان خطوة المؤتمر الوطني تلك لم تقع بعدها حتى اليوم خطوة تاريخية تعادلهـا جرأة في الدول التي تتعلق بها قضية عبيد ارقاء [٢٦] .

وهناك ناحية اخرى يحجب اكثر مؤرخي الثورة السكوت عنهـا اذ يتحدثون عن المؤتمر الوطني ، وهي : ناحية التموين وتأمين الاعاشة ، في وقت من اوقات الحرب كان عصيباً جداً على فرنسا . ولم يقف روبسبيير عند حد في كبح جماح الذين لا يرون في الظروف العصيبة الا فرصة للانتفاع الخاص . وكثير من الحملة على العهد الروبسبييري

---

٢٥) ومعلوم ان روح المبادىء المسيحية الصرف تستنكر الاستعباد والاسترقاق . كما ان مبادىء الاسلام الصرف تدعو الى معاملة الرقيق بالانسانية وتجعل « تحرير الرقبة » من اعمال الزلفى والتكفير المبرورة . على ان اعلام المسيحية الاول لم يجدوا انفسهم في دور تاريخي يثير مسألة الغاء الرقيق اثارة جدية . فبرروا الرق ، او سكتوا عنه ، او اخذوه مأخذ الشيء الطبيعي الضروري كما فعل قبلهم افلاطون وارسطو . يقول القديس اغسطينوس : « ان العبودية شيء واقع بقضاء من الله لاجل الخطيئة . وليست العبودية في نظر الله جريئة على الاطلاق . » (من كتاب : مدينة الله ، لاغسطينوس ، السفر التاسع عشر) . وما ينطبق على اعلام المسيحية من هذا القبيل ينطبق في مؤداه على اعلام الاسلام . ولكن لما اثيرت مسألة الغاء الرقيق ، مع سير التاريخ وتقدم المدنية ، كانت المبادىء الدينية ، المسيحية والاسلامية ، من اثبت نقاط الارتكاز التي استند اليها دعاة تحرير العبيد . وفي باب « نصوص مختارة » من هذا الكتـاب فصل طريف لحسين باشا ناظر المعارف التونسية ، وجهه الى قنصل الولايـات المتحـدة في تونس بشأن الرقيق ، وكانت الحرب اذ ذاك مستعرة بين الولايات الاميركية الشمالية والجنوبية حول قضية العبيد .

راجع الفصل ، وتأمل الحادثة التي يذكر حسين باشا انها وقعت لرجل اسود مع رجل اميركي في الاوبرا بباريس .

٢٦) صحيح ان الولايات المتحدة حررت العبيد ، ولكنها لم تعطهم وطنـاً خاصاً ، فلبثوا اشبه بالغرباء في مجتمع تعوقهم فيه حواجز نفسية ولونية تعرضهم للمهانة واحياناً لاقسى الاضطهادات ، كاعمال « اللنشنغ » وهستيريا « الكلوكاوكس كلان » في ولايـات الجنوب على الاخص .

ترجع الى ذكريات مزعجة تركها هذا العهد لجوعي الشعب، فخافوا ان تصبح خطته سنّة تتبع .

وبعد عهد المؤتمر الوطني يقبل المؤرخون على عهد الادارة « Le Directoire » ، وهي حكومة جمهورية الصيغة قامت على قواعد دستور سنة ١٧٩٥ . ولا يغفل المؤرخون ان يذكروا ان هذه الحكومة سبقها عهد الردة الترميدورية ، على اثر اعدام روبسبيير . فعادت الى ميدان العمل عناصر ملكية (وجيروندية ايضاً) همها الانتقام للامس واحداث المصاعب والمتاعب املا بالرجعة . ومن المؤرخين من يذهب الى ان ٩ ترميدور ، وازالة روبسبيير ، جاءا قبل الاوان ، فتركا من الاثر والنفوذ للعناصر المعادية للثورة او المترددة فيها ما جعل حياة فرنسا السياسية عرضة لدفع وجذب داخليين قويين . والذي لا شك فيه ان حكومة الادارة ظهرت قاصرة عن ان تعالج المشاكل التي جابهتها ، فقد وجدت امامها الديون المالية الناشئة عن نفقات الحرب ، ورأت تأزم التفاوت الاقتصادي بين طبقات الشعب . وكان في اعضائها فاسدون مرتشون [٢٧] بعيدون عن النظافة الخلقية التي تجسمت في اليعقوبي الكبير روبسبيير . وكثرت خروق الحكومة للدستور [٢٨] واشتد حنق الشعب واستنكاره لحالة بؤسه ، بينما تتصرف الهيئات الميسورة من المجتمع الى حياة متعة واسراف اوغلت فيها بعد عهد التقشف الروبسبييري والصوفية الثورية . وتكتل فقراء الشعب في باريس حول غراكوس بابوف ، وطالبوا بالمساواة الاقتصادية مع المساواة الحقوقية فقمعتهم الحكومة ، كما انها اصطدمت بالملكيين ، واتضح انها في الداخل بين ضغطين شديدين من اليسار واليمين .

وهكذا طرحت على بساط الضرورة مسألة حكم عسكري يؤمن للطبقة التي قادت الثورة في الاصل (اي : الطبقة الوسطى Tiers Etat) هدوءاً داخلياً ، ويدفع

٢٧) امثال باراس الذي اراد الانكليز شراءه بعشرة ملايين ، فطلب المزيد .

٢٨) نقصد بها Coups d'Etats . ولعل تعريب هذه الكلمة الحرفي هو الفلتة (بالمعنى السياسي) . وقد قال عمر بن الخطاب ان مبايعة ابي بكر كانت « فلتة » ، ويعني بذلك انها ارتجلت بضغط من الظروف ، ولم تكن وفق الاصل سنة وقرآناً . والسنة والقرآن هما (سياسياً) اشبه بالدستور في الخلافة الاسلامية .

بفرنسا في طريق التوسع الاستعماري . فكان نابليون قنصلا رئيسياً ، أول الامر ، بعد رجوعه من الحملة على مصر ، وتلك هي « الفلتة » المعروفة بـ ١٨ بريير (سنة ١٧٩٩) ، ثم اصبح نابليون امبراطوراً متوجاً موروثاً سنة ١٨٠٤ ، فانتهى عهد الجمهورية الاولى رسمياً .

والمؤرخون يرون عادة في العهد النابليوني رجعة كلية عن مبادىء الثورة . ولا شك ان نابليون كان النتيجة المنتظرة للرجعة التي بدأت بتاسع ترميدور واعدام روبسبيير . ولكنها رجعة نسبية ، فنابليون ظل يحمل مبادىء تقدمية حتى آخر عهده ، وان اختلفت ادوار حياته من هذا القبيل .

ان بونابرت وهو ابن الثورة الذي خرج من رحمها ، وترعرع في حضنها ، قد حمل شيئاً عميقا من طابعها . ولا شك ان سيرته ، لا سيما بعد اعلان نفسه امبراطوراً ، عملت على تعطيل كثير من ثمرات الثورة . وهذا ناتج من صعوبة التوفيق بين الامانة لروح الثورة واتباع سياسة توسعية باتت تريدها الهيئة التي يمثل نابليون مصالحها بعد ان ضمنت لنفسها سيطرة في الداخل . ولكن الرجل ، في القانون المدني الشهير ، بنى على التشكيل الجديد الذي تشكل به المجتمع الفرنسي نتيجة الثورة . وحمل في فتوحاته كثيراً من بذور المبادىء الثورية بقصد منه او بحتمية تاريخية . فلقد دفع باوروبا في طريق اليقظة الوطنية والاصلاح ، سواء أأراد ذلك ام لم يرد . وصحيح ان الامبراطور نابليون لم يأمر بالاصلاحات التي ادخلها فون شتاين ، مثلا ، على نظام بروسيا فاستقلت هذه الدولة ونهضت ودرجت في مدارج الشوكة والقوة . ولكن فون شتاين وجماعته لم يكن ليفوتهم ان نهضة فرنسا التي استند اليها نابليون نشأت من الثورة واصلاحاتها . ولذلك اتجهوا نحو الثورة الفرنسية لاستيحائها ورفع مستوى شعوبهم [٢٩].

---

٢٩) فون شتاين هو الوزير الذي قال الملك بروسيا لما اراده على تنظيم جيش لمحاربة نابليون : « كيف يمكنني دعوة ابناء الشعب الى الدفاع عن وطن لا يملكون شبرا من ارضه ، وحقوقهم فيه معطلة ؟ » (كانت بروسيا لا يزال غالباً عليها النظام الاقطاعي) . وطلب « فون شتاين » من ملكه تحرير الاقنان ، وتحسين احوال الفلاحين ، واطلاق كثير من الحقوق الاجتماعية والسياسية للامة . فاجابه الملك الى مطلبه . فكان ان هبت بروسيا في وجه نابليون

والدليل على ان الرجعة النابليونية لم تكن هي الرجعة الكبيرة ، ان مؤتمر فيينا الذي اشرف على تنظيم اوروبا كان من اعظم همه محو المبادىء الجديدة ، أي : المبادىء الثورية التي ساعد نابليون على نشرها . فالرجعة الحقيقية هي رجعة مؤتمر فيينا سنة ١٨١٤ بعد سقوط نابليون النهائي . وكان مترنيخ الوزير النمسوي الموغل في كره الثورة ومبادئها يصفها بـ« الوحش الفاغر فكيه لابتلاع النظام الاجتماعي ». واذا ذكرت ايطاليا التي سار بها نابليون شوطاً بعيداً نحو تشكيل « وطن » وتأليف « امة » يقول « ايطاليا اصطلاح جغرافي ! » وهو يقصد بذلك الغاء حقها في تشكيل وطن وتأليف امة .

ولكن من قوانين التاريخ ان الرجعة العامة يستحيل ان يثبت امرها . ولقد اصبحت امور بعد الثورة الفرنسية مستحيلة في العالم . ومن هنا لم يلبث مترنيخ ان وجد نفسه مضطراً الى الهرب من احدى نوافذ قصره في فيينا خوفاً من الجماهير الصاخبة في الشارع . ان مبادىء الثورة لاحقته في عاصمة بلاده وطردته منها . ومن هنا لم يستطع مؤتمر فيينا ان يحل المشكلة التي اثارتها الثورة الفرنسية ، فكان تاريخ اوروبا في القرن التاسع عشر (ويمكن ان نقول تاريخ العالم كله تقريباً) نزاعاً بين الروح السارية المنبثقة من ثورة فرنسا وروح مؤتمر فيينا . ولا يزال التاريخ اليوم الى حد كبير مظهراً من مظاهر هذا النزاع .

فبالطبع ان مؤرخ الثورة الفرنسية الكبرى لا يستطيع ، ولو اقتصر على التاريخ الفرنسي وحده ، ان يقف عند انتهاء العهد النابليوني . فان هذه الثورة التي اوجدت الوطن الفرنسي والوطنية الفرنسية بالمعنى العصري ، واعطت فرنسا تقاليد في العمل السياسي ونظام الحكم ، ظلت موضوع تآمر من قبل الرجعية . وقد عقبتها في التاريخ الفرنسي ثورات كانت لها اشبه بملاحق قصيرة كثورة الثلاثة الايام المجيدة « Les Trois Glorieuses » سنة ١٨٣٠ ضد شارل العاشر ووزيره بولنياك ، وثورة ١٨٤٨ ضد الملك لويس فيليب وهي الثورة التي افتتحت عهد « الجمهورية الثانية » .

واحرزت استقلالها بعد ان خسرته في معاهدة تلزيت سنة ١٨٠٧ . وكان « جنايزناو » ، وهو احد السكسونيين الذين لجأوا الى بروسيا ، يقول : ان السبب في بلوغ فرنسا هذه

ولما استقرت الجمهورية الفرنسية الاخيرة — وهي الثالثة — كانت مرتكزة الى قواعد من ثورة ١٧٨٩ وتواليها [٣٠] .

وهنا يخرج بنا الحديث الى ذكر المجاري التي تسربت خلالها مبادىء الثورة وافكار اعلامها ووصف وقائعها الى الشرق والبلاد العربية والأدب العربي .

الدرجة من المنعة والسلطان هو ان الثورة نبهت فيها جميع القوى الاجتماعية ، وما اكثر القوى الكامنة في حياة الامم . وكم في نفوس آلاف الرجال من عبقرية ومواهب تخمدها الظروف الخارجية وتمنعها من الظهور . وقد حركت الثورة الفرنسية عند الشعب الفرنسي القوة القومية بحذافيرها ... فيجب ان نسير على مثالها وان نوجه القوة الوطنية في تمامها ضد القوى الاجنبية الغاصبة (نطق جنايزناو بهذا الكلام سنة ١٨٠٧ ، بعد عقد معاهدة تلزيت على اثر انتصارات نابليون المتوالية) .

٣٠) في فرنسا ثورة أخرى هي ثورة عامية باريس سنة ١٨٧١ ، على اثر هزيمة نابليون الثالث في الحرب الفرنسية الالمانية ، وهي ثورة تمت بصلات قوية الى ثورة سنة ١٧٨٩ ، ولكن غلب عليها الهدف العالي الاشتراكي شأن محاولة « بابوف » في عهد حكومة الادارة ، مع الاحتفاظ طبعاً بفارق الطور التاريخي .

الفكر وعامله في الثورة

الثورات الهائلة التي اجرت الدماء كالسواقي ، وجعلت الحرية تعبد كالآلهة ،كانت فكرا خياليا مرتعشا بين تلافيف دماغ رجل فرد عاش بين الوف الرجال (١ – جبران خليل جبران في « الاجنحة المتكسرة » .

ان الفرد انما هو صوت واحد ينطق باسم ملايين من الناس الصامتين ، فالرجل العظيم انما هو عظيم بشعبه لا بنفسه . هو يستمد معظم قوته مما يحيط به من الاشياء والظروف والرجال . – أمين الريحاني في مقاله ينتقد تاريخ « كارليل » عن الثورة الفرنسية .

اما ان الفكر كانت له يد في ايقاد الثورة الفرنسية ، فذلك ما لا يضعه مؤرخ

---

١) جماعة الفكر ميالون في الاغلب الى تحميل انفسهم كل مسؤولية الانقلابات والاصلاحات . والذي نراه ان الفكر الاصلاحي فيما يتعلق ببعث الاحداث الاجتماعية يختلف شأنه ، فمنه ما تتفق له تجريدات وايغالات في المثل تنقطع به – في بعض النواحي –. بعيدا عن عصره ، وقد ترجع به احيانا عنه ، فلا يخرج عن نطاق الاحلام والرؤى ، ويقتصر تأثيره في احسن الحالات على ايقاد الشوق الغامض الى ما « يجب ان يكون » اطلاقا ، فيظل تطبيق محتواه واخراجه الى حيز الفعل متعسرا بل متعذرا . ومن الفكر ما ينظر الى الواقع فيلمس فيه عناصره التي تشيخ وتنحط ، وعناصره التي تنمو وتنهض ، فيركز مذهبه الاصلاحي على العوامل النامية في الواقع حوله ، ويطمح لا الى « ما يجب ان يكون » اطلاقا بل الى « ما يمكن ان يكون » بالنسبة الى وسائل التحقيق التي هيأها وجيئها له الوضع والتطور التاريخي . والفكر الاصلاحي يقوم بأعظم أدواره اذ يعي العناصر الشائخة التي تسير في طريق الاضمحلال ، ويعي العناصر الجديدة النامية ، فيحالف الجديد على البالي ، وبذلك يصبح سببا من الاسباب المحركة – لا الاسباب كلها ! – مهما يكن مهما . والاحداث الاجتماعية لا تقع بمجرد ان مفكرا او جماعة من المفكرين ذهبوا اليها ، بل تقع لان القديم « الأب » الذي ترعرع في حضنه الجديد شاخ بحيث بات تنحيه للجديد « الابن » ضرورة تلح وتضغط بثقل الجماهير التي تحركها في المجتمع .

على ان المفكر – اذ يفكر – قل ان يتخلل تفكيره عامل الوعي والادراك لمعنى عمله

موضع الشك والجدال . وقد كان للفكر ولا يزال ، اثره الكبير في احداث الانقلابات من عنيفة سريعة او سلمية بطيئة .

اجتماعياً وتاريخياً . ولذلك كثيرا ما نجد في المفكر – اديباً كان او شاعرا او فيلسوفاً – مزيجاً من التفكير « الطوبي » الخيالي حول « ما يجب ان يكون » اطلاقاً والتفكير حول « ما يمكن ان يكون » نسبة الى الوضع التاريخي . بل كثيرا ما نجد في المفكر الواحد مزيجاً مما يخدم القديم ومما يخدم الجديد ، لان المفكر قل ان يسائل نفسه من يخدم اجتماعياً وتاريخياً بعمله ، بل هو قد يظن نفسه ينهض بشيء ، فتكون النتيجة غير ما ظن وما نوى . كان لوثر ، مثلا ، ينعت العقل باقبح النعوت : « مومس الشيطان » ، « عروس الشيطان » ، « اعدى اعداء الله » الخ ... ومع ذلك فان الاصلاح الذي كان لوثر رأس دعاته في الكنيسة خدم العقل وحق العقل في المحاكمة والبحث الحر . وعلى هذا يكون للتاريخ منطق غير منطق الأفراد ، وارادة الافراد .

ومن التأثيرات في تكوين المفكر ما تخفى عليه وتعمل فيه عملها صامتة وهو غير شاعر بها . ومن هنا كان رأي المفكر في نفسه ، كرأي كل انسان ، لا يصح الاعتماد عليه في حالات كثيرة .

وقد يتفق ان يكون تفكير المفكر غير صحيح كل الصحة ، من حيث الحقيقة التاريخية او العلمية ، ثم لا يمنعه ذلك من ان يؤثر أثره اذا استطاع ان يتناول الجماهير ويحركها . فالمهم في قيمة الفكر – بصفته مؤثرا تاريخياً – هو ان تقبله الجماهير وتعمل به . ولا شك ان الفكر ، كلما ازداد نصيبه من الصحة ، قبلته الجماهير مدى اطول وعملت به عملا أنشط واثبت . وتلك فرضية روسو مثلا عن « الحالة الطبيعية » « **Etat de Nature** » يغلب انها غير صحيحة من حيث الحقيقة التاريخية ، على ان هذه الفرضية وما بنى عليها المفكر الفرنسي من قواعد في الحكم والسياسة وافقت مطالب الجماهير الفرنسية ووجدت سبيلها الى قلوبهم وعقولهم ، فتأثروا بها في ثورتهم الكبرى . ولما كان مغزى هذه الفرضية ومرماها صحيحاً في ضوء الاتجاه التاريخي وخدمة اغراضه كان البناء عليها اثبت وارسخ من البناء على افكار ونظريات كالتي تدعيها النازية مثلا . فمنذ سنوات كان موسوليني وغوبلز يصيحان : ان عام ١٧٨٩ سيلغى من التاريخ . وعام ١٧٨٩ هو عام « حقوق الانسان » المرتكزة الى نظريات روسو وغيره من مماثليه . فبعد ان ثبتت هذه الحقوق دورا تاريخياً طويلا ، الى ان قام موسوليني وغوبلز يعلنان « انتهاءها » ، اقبلت هذه الحرب ، وقد بدأ التاريخ يقول فيها كلمته ، وهي : ان موسوليني وغوبلز نفسهما سيلغيان ، وسيظل عام ١٧٨٩ حجرا ضخما اساسياً في بناء العالم الجديد .

هذه ملاحظات سريعة أحببنا ان يجعلها القارىء نصب ذهنه وهو يطالع هذا الفصل .

وغني عن البيان ان موضوع هذا الكتاب يستدعي فصلاً عن اعلام المفكرين الفرنسيين الذين سبقوا الثورة ، فكانت آراؤهم ومذاهبهم عاملا من عوامل التمهيد لها ، ثم كانت اشعة بمصابيح درج على ضوئها كبار الثورة وقادتها . على ان المؤرخ حين يعرض لتأريخ الإفكار يجد نفسه فوراً امـام عقدة محيرة : من اين يبدأ ؟ فحقل الافكار الذي يجده زاهراً في دور من الادوار يجد منه بذوراً في عصور سبقته حتى بمدى طويل احياناً (٢) .

وقد كان لنا معلم يستخف بنا كلما عالجنا موضوعاً فبدأنا ببدء العـالم ، وقلنا في فاتحة الانشاء : خلق الله الدنيا ... على ان عملنا ، والحق يقال ، لم يكن خلواً من الحقيقة لان كل موضوع يكاد يبدأ تقريباً ببدء العالم .

غير ان مؤرخي الثورة الفرنسية يركزون اهتمامهم حول دور الانقلاب العقلي الذي سبق الثورة في القرن الثامن عشر . كان هذا القرن دور نضج للافكار التي بزغت وتطورت وغلبت على اذهان اعلام الثقافة ، نتيجة لحركة الكشوف الجغرافية العلمية

---

٢) والواقع ان هذا شأن التأريخ على عمومه ، فكل حدث من احداثه يبدو كأن جميع ما سبقه مما له به ارتباط قريب مباشر ، او بعيد غير مبـاشر ، قد مهد له وجعله ممكن الحدوث بتأثير الفعل واحياناً بتأثير رد الفعل . والى هذا رمى الكاتب عباس محمود العقاد في قوله عن الثورة الفرنسية :

« ما الثورة الفرنسية لولا فتح الاندلس ، ولولا الحروب الصليبية ، ولولا سقوط القسطنطينية ، ولولا كشف القارة الاميركية ، ولولا الثورة في البلاد الانكليزية (ولا نعلم لماذا فاته ذكر الثورة الاميركية ؟) بل مـا الثورة الفرنسية لولا الاديان التي قررت لكل انسان من الناس « روحاً » يناط بهـا الخير والشر وتناط بها المكافأة والعقاب ، فقررت بذلك اساس « المسؤولية » الفردية واساس الحقوق والواجبات . وما الثورة الفرنسية لولا الاديان التي رفعت الفوارق بين الاقوياء والضعفاء ، بين الاغنياء والفقراء ، وبين السادة والعبيد ، فاقامت بذلك اقدم الاسس وادومهـا في بناء الحرية الديموقراطية ، وجعلت العمل الصالح والقوة على الخير مقياس التفرقة بين الاقدار والدرجات ؟ فاليوم الرابع عشر من شهر يوليو (تموز) هو يوم من ايام الانسان في تواريخ الازمان . (من مقال للعقاد نشر في مجلة « الطليعة » في تموز سنة ١٩٣٩) .

التي بدأت في القرن الخامس عشر (٣) ، ونتيجة لنهضة الاحياء « La Renaissance » التي ظهرت في القرن السادس عشر (٤) .

فحركة الكشوف الجغرافية ، وان اقترنت بمطامع في الكسب التجاري والنهب

---

٣) في هذا القرن عثر « فاسكو داغاما » البرتغالي على طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ وعرف كولومبوس اوروبا بقارة اميركا الشمالية سنة ١٤٩٢ . ودار « ماجلان » حول الكرة الارضية من سنة ١٥١٩ الى ١٥٢٢ . وفي هذا القرن ايضاً شاع استعمال البارود في اوروبا واستخدام السلاح الناري . وكان البارود قد استعمل اولا في اواسط القرن الرابع عشر سنة ١٣٤٦ في معركة كريسي . وفي هذا القرن ايضاً اتقنت البوصلة فساعدت على اتقان الملاحة ويسرت أسفار المكتشفين وفتوحاتهم . وكذلك تقدمت الآلة الطابعة تقدماً عظيماً على يد « غوتنبورغ » حتى نسب اليه اختراعها . واجيدت صناعة الورق . وغني عن البيان ان هذه الكشوف الجغرافية والمستنبطات العلمية كان لها اعظم اثر في نهضة اوروبا ومدنيتها . فالبارود والسلاح الناري ، مثلا ، كانا من اعظم وسائل هدم النظام الاقطاعي المحض اذ قضيا على تفوق النبلاء العسكري وجعلا قلاعهم الحصينة اهدافاً ميسورة المنال وبذلك (الى جانب العوامل الاخرى) امكن نشوء الدولة المركزة حول عرش الملك وتثبيت نوع من وحدة للبلاد . وكانت البلاد من قبل اشبه بمجموعة من دول صغيرة ، يستقل بها الامير الاقطاعي متحصناً بقلعته او قلاعه ، لا يؤدي الا خضوعاً اختيارياً للملك والدولة المركزية ، وكثيرا ما يشق عصا الطاعة .

ويلاحظ ان معظم المستنبطات التي كانت ضرورة حيوية لنهضة اوروبا انتقلت الى الاوروبيين عن طريق العرب من الاندلس وشمالي افريقيا او صقلية او سوريا في عهد الصليبيين . فالبارود مادة قبس العرب صنعها من الصينيين ، وحسنوها لخدمة المقاصد الحربية ، اذ جعلوها اقوى واشد انفجارا . وكذلك البوصلة عرفها العرب من الصينيين وانتقلت الى اوروبا عن طريقهم . والتأثير الذي تركته الاسفار العربية البحرية والرواد العرب على المكتشفين الاوروبيين كان كبيرا . ورحلة كولومبوس التي انتهت بكشف القارة الاميركية قد سبقتها محاولة عربية اندلسية لشق بحر الظلمات « الاتلنتيك » وارتياد ما وراءه (راجعها في التاريخ الذي كتبه الدكتور فيليب حتي عن العرب بالانكليزية ، فصل ما حققته الحضارة العربية الاندلسية) . اما الورق فقد عرفه العرب من الصينيين ايام عبد الملك بن مروان الخليفة الاموي الكبير . وبلغت في الاندلس صناعة القراطيس من القطن والخرق مبلغاً عظيماً .

٤) ان ربط حركة الاحياء في أوروبا بالقرن السادس عشر – كما يفعل اكثر المؤرخين – فيه مجال للنظر . فالمفهوم بحركة الاحياء انها الالتفات الى الكلاسيكيات ولا سيا الاغريقية . والاندلس العربية بنوع خاص قد عنيت عناية رائعة بمعظم نواحي التراث

وكانت مقدمة للاستعمار الحديث ، فقد صرفت نظر الانسان الاوروبي الى الارض ، ودفعته نحو التفكير والبحث العلمي والاختراع . وحركة الاحياء بما بعثت من كنوز القديم اليوناني والروماني ، وبما احيت من المثل الكلاسيكية ، وبما استقت من مناهل الحضارة العربية في الاندلس خاصة ، ايقظت الانسان الاوروبي على تذوق الجمال الدنيوي وتلمس المعرفة العلمية وحب الاستقلال في البحث . فكان في اوروبا موسم عظيم من اللوحات الفنية والرسامين ، ونتاج خصب من التأليف الفلسفي والادبي في اصول الفكر والخُلق والتعامل الانساني ، يضاف الى ذلك فتوحات في الدراسات الفلكية والطبية والطبيعية على وجه عام . ولمعت في الافق الاوروبي اسماء كليوناردو دافنشي وغاليله ورابليه ومونتين وسيرفنتس واراسم وكوبرنيك وفيزال الطبيب وجيوردانو برونو : اسماء تلتفت الى القديم البعيد او القريب ، وتقترن بارسطو وابو قراط وابن رشد وابن سينا ، وتفتتح تلك القافلة الجيدة ، قافلة باكون وكبلر وديكرت وسبينوزا وليبنتز ونيوتون وبسكال ورهط كبير من الادباء ، وتستمر متسلسلة في قافلة القرن الثامن عشر ، قافلة مونتسكيو وروسو وكوندياك وهيوم ولوك ولامتري وآدم سمث وكسناي وفولتير وهلفيثيوس وديدرو وكوندورسه ودولباخ وغيرهم وغيرهم ...

وحسبنا وفاء للغرض من هذا الكتاب ان نعيد القول ان حركة الاحياء ، مع ما ساوقها او تبعها من النهضة الصناعية في اوروبا ، ومن حركة الانفصال البروتستنتي ،

الثقافي اليوناني ، وذلك قبل القرن السادس عشر بكثير . واذا فرد حركة الاحياء في اوروبا الى هذا القرن خطأ ، الا اذا اعتبرت اوروبا منتهية عند جبال البرانس (البيرنه) . وبهذه المناسبة ، يجب القول ان نهضة الاحياء العظيمة في اوروبا مدينة للعرب في الاندلس وشمالي افريقيا وصقلية حتى سوريا زمن التماس الصليبي بين الشرق والغرب . ولكن الدور الذي قامت به الاندلس العربية في هذا الشأن هو اعظم الادوار .

وينبغي لنا ايضاً ان لا ننسى اثر القسطنطينية قاعدة الامبراطورية البيزنطية في بعث حركة الاحياء الاوروبية . فلما احتل الاتراك العثمانيون هذه العاصمة سنة ١٤٥٣ تشردت منها طائفة كبيرة من علماء الاغريق والاغريقيات ، فلجأوا في الغالب الى ايطاليا ، وساعدت الحروب بين الامارات والدويلات الايطالية على تشريدهم في اوروبا ، فبثوا معارفهم فيها واذاعوا ذكرى كثير من كنوز القديم اليوناني ، فكانت حركة بعث بلغ من قوتها ومداها ان سماها المؤرخون « حركة الاحياء الصغيرة » توطئة للحركة الكبيرة .

قد شجعت روح البحث المستقل ووطدت الثقة بالعقل ووافقت نهضة علميـة كبيرة ، وأسفرت عن تغيير عميق في نظر الانسان الى نفسه .

ومن المستغرب ان يكون علم منعزل ، كعلم الفلك ، في طليعة المعـارف التي ساقت الى مثل هذا التغيير بل الثورة . لقـد بيّن علم الفلك ان كرة الارض ليست مركز الكون الثـابت ، ولا هي اعظم واهم ما في النظام الكوني ، بل هي جرم متحرك من جملة اجرام تدور حول الشمس الثابتة . فكانت النتيجة ان طرأ على الانسان شك في انه هو الغاية من الوجود ، والوليد المدلل الذي صنع كل شيء لاجله بتدبير في اصل الخلق . وفكّر الانسان انه — اذا كان حقـاً غاية — فهو الذي جعل نفسه غاية . وانه في الواقع قد لا يزيد عن كائن بل حيوان صغير ، على كرة صغيرة ، في كون هائل عظيم ، له قوانينه الخاصة المستقلة عن مراعاة الخواطر البشرية . وربمـا استشعر الانسان في هذا ما يحمله على اليأس والقنوط وفقدان الثقة بالنفس ، كما وقع لـ « غوتيه » لما اطلع على كتاب « نظام الطبيعة » للبارون « دولباخ » (*) . الا ان الانسان سرعان مـا عرف ان لديه من العلم وسائل تشد عضده وتقويه على الطبيعة المحيطة به . وهكذا استعاد اهميته في نظر نفسه ولكن لا عن طريق انفراده بتدبير عناية سخّرت له مبدئيـاً كل شيء ، بل عن طريق شعوره الذاتي بمدى تأثيره وتأثير الوسائل التي يستطيع استنباطها واستخدامها . ومن هنا حوّل وجهه شطر العلم . ومن هنـا ايضاً طفق يزداد اهتمام الانسان بالانسان في مطلع العصور الحديثـة في التاريخ الاوروبي . واهتمام الانسان بالانسان ادى حتماً الى الاهتمام بمسألة الاجتماع . ومن ذلك العهد بتنا نرى المفكرين في اوروبا منصرفين الى درس المجتمع ، تحتثهم فكرة اساسية هي : ان الانسان يقوي الانسان ، أو ان الانسان — بعبارة اخرى — وسيلة للانسان . ودرس المجتمع قادهم الى درس الدولة والسياسة . ولكن مسألة ما لبثت ان عرضت ،

(*) وهذه كلمات « غوتيه » لما قرأ الكتاب : شد ما احسسنا بالفراغ والخواء ، في منتصف هذا « الليل » الموحش الذي انطمست فيه الارض وصورها والسماء ونجومها . فليس الا مادة تتحرك منذ الازل ، وتنشىء بحركتها هذه ، الى يمين ويسار وكل جهة ، مظاهر من الوجود لا عدد لها ، ولا شيء بعدها !

وهي : ان الانسان يجب ان لا ينسى ان الانسان غاية ايضاً ، لا وسيلة وحسب ! والمجتمع الصالح (والدولة الصالحة والسياسة الصالحة) انما هو الذي يكون فيه الناس جميعاً وسائل وغايات بعضهم لبعض ، باعتبار كل انسان له حقوق محترمة .

افاق المفكرون والادباء الفرنسيون (وهم موضوع الحديث في هذا الفصل) على المجتمع الفرنسي قبل الثورة في القرنين السابع عشر والثامن عشر فوجدوا ان معظم الفرنسيين ، من حيث وضعهم في المجتمع والدولة ومسالك السياسة ، انما هم وسائل لبعض الفرنسيين وليسوا غاية ايضاً كما يحق لهم ان يكونوا .

وعمد المفكرون والادباء الفرنسيون الى الاحتجاج على الحالة الراهنة ، وتلمس اسباب الفساد ووضع الخطط ورسم الهيئة للمجتمع الجديد .

وكان من اليقظة العظمى التي ثارت ثورتها مع حركة الاحياء ، والنهضة الصناعية ، وحركة الاصلاح البروتستنتي ، وفورة البحث والاستنباط العلمي ، مرجع يستمدون منه ودليل يسترشدون به .

وقد ذكرنا كيف ان هذه الحركات نشّطت العلم وصرفت اليه الجهود ، والعلم صرح يرتكز على دعائم العقل ، فلا علم بلا عقل يختبر بالاستناد الى الحواس والادوات الفنية المساعدة لها ، ولا علم بلا عقل يرجع الى قوانين المحاكمات العقلية ، لا الى موجبات النقل والتقليد .

ثم لا علم بلا مباشرة الطبيعة . فالطبيعة بما فيها المخلوق الانساني هي ميدان العلم ومجاله الذي فيه يخوض . فلولا الطبيعة لبقي العلم بلا موضوع او لما كان علم .

وهكذا اتجه المفكرون والادباء الفرنسيون الى العقل يصقلونه ويتسلحون به ، والى الطبيعة يدرسونها ويتعلمون منها ، واستخدموا ذلك كله في بحث الاجتماع والدولة والسياسة ، وفتحوا الانظار على النقص الهائل ، واشتقوا طرقاً الى الاصلاح .

ولا ريب انهم وجدوا لهم معيناً في المفكرين البريطانيين وغيرهم ، وفي الثورات التي سبقت عهدهم كثورة « البلدان المنخفضة » على فيليب الثاني لاسباني ، وثورة الانكليز ، ثم الثورة الاميركية القريبة العهد [٦] .

٦) سبق لنا تعليق على الثورتين الانكليزية والاميركية . أما ثورة « البلدان المنخفضة »

وبالطبع ان قسط كل من هؤلاء المفكرين والادباء في التهيؤ النفسي للثورة يختلف باختلاف نزعاتهم ودرجاتهم ، وكثيراً ما كانت ادوار بعضهم ، في هذا الصدد ، لا تتعدى هتفة عاطفية يهتفون بها او لغزاً كاللغم يخفي مظهره المموّه قوته الناسفة . وقد يقرأ قارىء خرافات « لافونتين » في القرن السابع عشر فلا يتنبه الى ما فيها من المغازي الاجتماعية والسياسية . ثم يقرأ كتاب « هيبوليت تين » عن « لافونتين » فينشق له حجاب عالم الحيوان ، الذي يسبح فيه الشاعر ، عن عالم الانسان ، بل عن المجتمع الفرنسي في زمـانه . ويمشي القـارىء في بهو مليء بالصور سماه « تين » معرض او متحف « لافونتين » « Galerie de La Fontaine » فيرى لوحات من المجتمع الفرنسي وسياسته معروضة في اشكال من عـالم الحيوان ، ووقائع رمزية بين طيور وبهائم . وحكاية المؤتمر العجيب الذي اجتمعت فيه الحيوانات في وقت من اوقات الوباء لتبحث سبب النكبة ، ليست الا نقداً ثوريا لاذعا سدده الشاعر الى الحالة الراهنة في فرنسا . وقد اسفر « المؤتمر » عن ان جميع الذنوب والآثام التي اقترفتهـا المخلوقات الصاعدة في سلم العجاوات كالاسد وجماعته (اي الملك وحاشيته والهيئات البلاطية) لم تكن السبب الذي جرّ النكبة ، ولكن قضم الحمار لبعض الحشيش من ساحة احدى الكنائس هو الذي جلب الويل والثبور وعظائم الامور ! وواضح ان ما عناه الشاعر بالحمار الكادح الساذج هو هيئات الشعب التي عليها الغرم وامراؤها الغنم [٧] .

Pays - Bas فهي التي وقعت سنة ١٥٨١ ، لما عقد الشعب الهولاندي اجتماعاً لبرلمانه المؤلف من ممثلي الطبقة الوسطى في المدن ، ورؤساء الدين والاشراف . فما لبث ان استقل ممثلو الطبقة الوسطى بالرأي وخلعوا ملكهم فيليب الثاني الاسباني ، واعلنوا استقلالهم في شكل « جمهورية البلدان السبعة المنخفضة » وكانت لهم حجة جديدة مبدئية ، مقابل حجة « الحق الالهي » ، تقول : « ان الملك نقض ميثاقه ، فالملك يطرد من وظيفته كخادم غير أمين . »

٧) نذكر امثـال « لافونتين » بكليلة ودمنة التي نقلها ابن المقفع ايام الخليفة العباسي الثـاني ابي جعفر المنصور ، وقد نقلت الى اللغة الفرنسية في القرون الوسطى ، من الاندلس العربية ، فاطلع عليها « لافونتين » بشهادته واعترافه . ولا شك انه تأثر باسلوبها وطريقتها الرمزية في النقد السيـاسي والاجتماعي . والواقع ان محتوى كليلة ودمنة الثوري لم يبحث بعد بحثاً يستحق الذكر . الا انه ظاهر ملموس في امثال « كمثل النيل والقبرة » و « الارنب والاسد » و « الملك والطائر فنزة » .

ولكننا اذا رحنا نتأمل التيار الثوري الفكري ، في القرن السابع عشر في فرنسا ، لم نجد لافونتين منغمساً فيه انغماساً صريحاً ، وكان حتماً علينا ان نديرالنظر شطر طائفة من الادباء والمفكرين يمثلها لابروبير وفنيلون .

كان لابروبير في ملاحظاته واحكامه الخلقية يرى في الناس فريقين : الشعب ، والعظماء (بمعنى النفوذ والوجاهة في المجتمع) . « اما الشعب فلهم باطن طيب (جوهر صالح) وليس لهم مظهر البتة . واما العظماء فليس لهم الا الخارج ، الا المظهر وقشرة بسيطة . أيجب الاختيار ؟ انني لا اوازن . انني اريد ان اكون شعباً ، » (اي من الشعب) .

وكان الاديب الراهب فنيلون مثلاً رائعاً من امثال الجرأة الفكرية . وفي المؤلفات التي انشأها تهذيباً للدوق دو بورغون ، ولا سيا في محاورات الاموات « Dialogues des Morts » تبدر على سن قلمه بدرات عجيبة لم تلبث ان ايدتها الوقائع في حياة فرنسا السياسية والاجتماعية . ففي فصل الحوار بين سولون وبيزيستراث (وكلاهما رجل دولة اغريقي) يقرر فنيلون ان الاستبداد غالباً ما يكون على الملوك اشد وبالاً منه على الشعوب . وفي كتابه : « الواح شولن » « Tables de Chaulnes » يطالب — في احدى مواد البند الثاني — مطالبة صريحة بتأسيس المجالس العامة « Etats Généraux » هذه المجالس التي كان اجتماعها في باريس سنة ۱۷۸۹ فاتحة المرحلة الثورية العظيمة . وله رسالة وجهها الى لويس الرابع عشر بلغت غاية في الجرأة والصراحة ، وشجب سلوك هذا العاهل الذي صاح : « انا الدولة ! » وانفق ما انفق في المغامرات الحربية وشيد بلاط فرساي الرائع ، ولكن كأنه جعله واجهة براقة لدولة تتأزم مشاكلها ، ولشعب يتململ ويتبرم . قال فنيلون في رسالته :

« ان الشعب نفسه (ينبغي ان اصرح لك بكل شيء) ، هذا الشعب الذي احبك كثيراً ، ووثق بك كثيراً ، اخذ الان يفقد حبه وثقته واحترامه ، حتى احترامه لك ... انه ممتلىء مرارة ويأساً ، والشقاق يشب شيئاً فشيئاً من كل ناحية . ان الشعب يعتقد انك لا تحب غير سلطتك ومجدك ، فهم يقولون : لو كان للملك قلب الاب على شعبه ، أما كان يؤثر ان يستخدم مجده في اعطائهم خبزاً وتنفيس

كربتهم بعد هذا الاذى الكثير ؟ ... فما جواب ذلك ايها السيد ؟ » ثم يذكر فنيلون اعمال العصيان التي طفق الشعب يقوم بها ، الى أن يقول له : « فانت الان قد انحططت الى هذه النهاية المعيبة المحزنة ، فاما ان تدع العصيان وشأنه لا تعاقب عليه ، واما ان تزيده وتقويه بتغاضيك عنه ، واما ان تجزر بقسوة شعباً طرحتهم مطرح اليأس اذ نزعت منهم ، عن طريق الضرائب لهذه الحرب ، خبزاً يسعون الى احرازه بعرق جباههم ! »

وفي فنيلون نجد مبدأ اعتبار العقل والرجوع اليه في الاحكام صريحاً واضحاً . يقول الراهب المفكر : « انا في هذا العالم لا ادري من اين جئت ولا كيف وقعت هنا . ولا ادري اين امضي . وبعضهم يحدثني عن امور كثيرة ويعرضها عليّ باعتبارها غير قابلة للنقاش . ولكنني مصمم على الشك فيها بل على رفضها ما لم اجد انها تستحق ايماني بها . ومنفعة العقل الصحيحة — العقل الذي وهب لي — هي ان لا اؤمن بشيء ما لم اعرف سبب ايماني به . »

ولكن بيير بايل « Pierre Bayle » يخطو بنا خطوة اخرى الى امام في طريق الانعتاق الفكري ، ووسيلته الى ذلك كثرة الشك والتساؤل وتقليب القضايا على محتملات وجوهها [٨] . واذا لزمنا ان نجعل المذهب العقلي ونهضته في اوروبا

٨) في كتاب الحيوان للجاحظ : قيل لمصقلة احد العرب : ما اكثر شكك ! قال : محاماة عن اليقين . والشك في اسلوب التفكير العلمي ضرورة لا بد منها . وللغزالي كلمة في الشك تذكر ببايل وبديكارت . قال الامام : « من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر بقي في الحيرة والعمى ! » على ان الغزالي ادى هذا الاعتراف والمديح للشك ، ثم الف « تهافت الفلاسفة » الذي رد عليه ابن رشد بـ « تهافت التهافت » . والذي يراه بعض ان الغزالي انما آثر التسليم والتصديق خوفاً من عواقب الشك على العامة وسدا لموضوع لا ينتهي فيه الاخذ والرد العقليان . الا ان الغزالي ترك لديه فسحة لما سماه « المضنون به على غير اهله » . والحقيقة ان كثيرين من المفكرين من الغزالي الى فولتير ، مثلا ، كانوا يخافون على العامة الدخول في قضايا فكرية خطرة كاللعب بالسلاح الناري . وفولتير هو القائل للمفكرين : « تفلسفوا فيما بينكم ما طاب لكم ... ولكن احذروا من ان تقوموا بالعزف امام الجهلة البهيميين السوقيين ... فقد يكسرون آلاتكم على رؤوسكم . » وهذا الخوف الذي نلقاه عند بعض الادباء ، من اشتراك العامة في الافكار الخاصة ، انما هو نتيجة لقلة

الحديثة ، مديناً لبضعة مفكرين كديكارت وامثاله ، فبيير بايل احدهم . وفيه يقول برونتيير الناقد الفرنسي الشهير : في فرنسا وانكلترا والمانيا ، وفي اوروبا كلها ... حيثما بدأ الناس يشكّون ، تخرج من مدرسة بايل جيلان او ثلاثة من الكتّاب . وكأن كلاً من مونتسكيو وفولتير وديدرو وروسو وهلفثيوس — عدا آخرين اقل شأناً من هؤلاء — تلقنوا في كتاباته ان يقرأوا ويحاكموا ويفكروا .

واهم ما انتجه هذا الاستاذ الواسع العميق ، من اساتذة الفكر ، قاموس تاريخي انتقادي . ويمكن القول ان جميع نشاطه الفكري ينتهي الى تقرير حق العقل ، وحق الضمير ، في البحث الحر والرأي المستقل . وقد لخص هذا المبدأ في قوله : لنا حق لا يُقصى عنا هو : حق اعلان المذاهب التي نعتقدها موافقة للحقيقة المجردة ، وفي قوله ايضاً : اعظم المحاكم التي هي المرجع الاخير — لا استئناف منها الى غيرها ! — محكمة العقل الذي يقول مهتدياً بالبديهيات الصادرة عن نور الطبيعة .

ويلاحظ القارىء ان بايل بدأ يتحدث عن « حقنا الذي لا يقصى عنا » « Droit Inaliénable » وعن « البديهيات الصادرة عن نور الطبيعة » ، وهي تعابير وافكار نلتقي بها لدى مفكري الثورة ، بل في نصوص الثورة نفسها .

الثقة ، واثر للخوف من معاني تلك الافكار ومراميها اذا دفعت الى غاياتها في عالم الواقع . ولهذا هتف فولتير : الله دركي ! Dieu est un gendarme . اما المواضيع التي لا ينتهي فيها الاخذ والرد العقليان فقد عمد فيها بيير بايل الى « تسوية » كأنه قسم بموجبها عالم المعارف الى جزئين : فجزء يستطيع ان يتناوله العلم بالمعرفة اليقينية — وهو المجال الذي يجوز فيه بل يجب استعمال العقل — ، وجزء يستعصي على الباحث الوصول فيه الى بت علمي ، فالاجدر بالعقل ان يتنحى عنه الى المواضيع التي يثمر فيها نشاطه . وعلى هذا يقول بايل : يمكننا تشبيه الفلسفة بالمساحيق الاكالة التي تكشط اللحم المصاب ، ثم تمتد الى اللحم الحي ، ثم تضرب العظم وتخرقه حتى مخه ... الفلسفة اذا تركناها تسترسل مع هواها وتخيلاتها اوغلت في البعد حتى لم تدر اين هي ، ولم تجد مقعدا تقعد عليه . وهذا يذكر بقول الخوارزمي . « اذا تتبعت الامور كلها فسدت عليك . » ويتابع بيير بايل منهجه فيقول لفريق العقليين : « لا تحاولوا اذن تفهموا الغوامض الدينية . » ثم يقول للفريق الاخر : « اذا دخلتم في اسباب مفصلة ، تقدمونها بشأن العقائد ، فانكم في نهاية الامر ، بعد ألف خصومة وشحان ، تضطرون ان تتعلقوا بسببكم الاصلي » (يقصد السلطة المسلم لها) .

ويكفينا هـذا القدر من القرن السابع عشر وادبائه ومفكريه ، فلننتقل الى القرن الثامن عشر وهو الموسوم بـ « عصر الانوار » و « الاستنارة » [٩] والعصر الذي وقعت الثورة في اوائل ربعه الاخير وملأت منه هذا الربع كله تقريباً وجعلته في نظر الفكر العالمي ، وفي تقدير التاريخ ، عصراً فرنسياً على الاعم الاغلب .

وتطالعنا في خلال هـذا القرن ستة وجوه رئيسية : مونتسكيو وديدرو وفولتير وروسو وهلفثيوس ودولباخ .

اما مونتسكيو صاحب « روح القوانين » و « الرسائل الفارسية » فهو الذي حاول ان يكتشف في التاريخ عوامل اساسية تجعل من حوادثه ظاهرات مفهومة ، لا صدفاً واتفاقات . فهو من هذا القبيل شبيه بابن خلدون في مقدمته . ويتصف مونتسكيو بكثرة الرجوع الى اثر العامل الجغرافي في التاريخ . على ان توسيع البحث في هـذا المضمار يخرج بنا عن القصد . وحسبنا ان هذا المفكر الفرنسي نظر الى التاريخ نظرة عقلية ورده الى عوامل من البشر ومحيطهم لا الى اسباب خارجة ، والى العقل الانساني رد الشرائع والقوانين باعتبارها مظهراً من مظاهر التاريخ ، قال :

« القانون ، بوجه عام ، هو العقل البشري ، ما دام العقل هو الذي يحكم شعوب الارض جميعاً . والقوانين السياسية والمدنية — فيما يتعلق بكل امـة — يجب ان لا تكون الا الحالات الخاصة التي يقع فيها تطبيق العقل البشري . »

ثم يقسم مونتسكيو القوانين الى نوعين :

١ — تلك التي ترتب نظام الدولة كعلاقة المواطنين بالسلطات وعلاقـة السلطات المختلفة بعضها ببعض (وهو ما نسميه الدستور او القانون الاساسي) .

٢ — القوانين المدنية التي تشرف على علاقة المواطنين بعضهم ببعض (وهي مـا نسميه الحقوق المدنية والجنائية) .

اما السلطات المختلفة في الدولة فهي ثلاث :

اولاً — السلطة التشريعية.

٩) سمي بالفرنسية : « Siècle des Lumières » ، وبالانكليزية : « Century of Light » وبالالمانية : « Aufklârung » .

ثانياً — السلطة التنفيذية ، التي تُجري الامور المتعلقة بحق الناس ٠

ثالثاً — السلطة التنفيذية ، التي تُجري الامور المتعلقة بالحق المدني ٠

وواضح ما كان لهذا التقسيم من اثر في التصميم الذي اختطه رجال الثورة الكبرى في الدولة الفرنسية ، بل واضح ما في هذا التقسيم من اثر بارز الى اليوم في بناء الدول ٠ ولكن السلطة التنفيذية (رقم ٣) اصبحت في تعبيرنا تُسمى السلطة القضائية ٠

ويقول مونتسكيو ان هذه السلطات الثلاث يجب ان تستقل احداها عن الاخرى ، اذا كان المراد توطيد الحرية [١٠] ٠

ويشيد مونتسكيو بالمساواة ، ولكنه لا يقصد بها انتفاء الحكم ٠ « فالمساواة الصحيحة لا تستهدف ان يخلو الانسان من آمر بل تستهدف ان يكون آمره مساوياً له ٠ » و « الناس في الحكومة الجمهورية متساوون ، وكذلك هم في الحكومة المستبدة ٠ ففي الاولى هم متساوون لانهم كل شيء ، وفي الثانية هم متساوون لانهم ليسوا شيئاً ٠ » ومع هذا فلم يكن مونتسكيو جمهورياً بل كان اميل الى حكم الملكية المقيدة (اي : الدستورية) ٠

ويلقي مونتسكيو على عاتق الدولة واجب النظر في تأمين راحة رعاياها الاقتصادية فيقول :

« ان بعض الصدقات التي نتكرم بها على رجل عار في الشارع لا تغني عن واجبات الدولة التي يلزمها ان تجعل لكل المواطنين حياة مضمونة : غذاء وكساء صالحاً ،

١٠) للكواكبي ، في طبائع الاستبداد ، رأي نورده في هذا الصدد ٠ يجعل الكواكبي الاستبداد يشمل ايضاً الحكومة الدستورية المفرقة فيها قوة التشريع عن قوة التنفيذ ، لان ذلك ايضاً لا يرفع الاستبداد ولا يخففه ما لم يكن المنفذون مسؤولين لدى المشرعين وهؤلاء مسؤولون لدى الامة التي تعرف ان تراقب وان تتقاضى الحساب ، وهذه افضل الحكومات لو وجدت . وخلاصة ما تقدم ان الحكومة من اي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها كما جرى في صدر الاسلام فيما نقم على عثمان بن عفان (رضي الله عنه) يوم خص بحكمه ذوي قرباه دون المسلمين ، وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة في فرنسا في مسائل النياشين وبناما ودريفوس ٠

ونوعاً من معيشة لا ينافي الصحة . » غير ان مونتسكيو كان في هذا سابقاً لعصره ولهدف الثورة الفرنسية .

وله في تعريف الحكومة الاستبدادية كلمة رائعة حيث يقول :

« عندما يريد متوحشو لويزيانا قطف الثمار يقطعون الشجرة من اصلها ويتناولون منها ما يريدون ، تلك هي الحكومة الاستبدادية [1] . ومقصده هو ان الحكومة الاستبدادية لا تنتج ، ولا تعين على الانتاج ، بل تأخذ ما تريده لساعتها ، ولو كان ذلك بطريقة فيها اتلاف المنتج وقطع مصدر الانتاج . وفي هذا رائحة تنديد بالسياسة الفجّة التي كان ينتهجها البلاط الفرنسي لسد نفقاته وحفظ الموازنة — سياسة شعارها : كلما احتجتم افرضوا على الشعب الضرائب ، واذا اضطررتم فسموها قرضاً شعبياً .

وقد يكون من المفكرين من ينكر على مونتسكيو ثوريته وتأثيره الثوري . وصحيح ان الرجل كان كما اسلفنا اميل الى الملكية المقيدة ، فهو من هذا القبيل معتدل . ثم هو لا ينظر في السياسة الى ناحية المبادىء وحسب ، بل ينظر ايضاً الى الذين ستطبق عليهم المبادىء ، ويحسب الحسابات لجملة اعتبارات اخرى منها الاقليم والمناخ . ثم هو يعرّف الحرية بانها الخضوع للقانون الكامل . وليس في هذا كله ما يلغي ثوريته وتأثيره الثوري . فالاعتقاد بالملكية الدستورية كان مذهباً انقلابياً خطراً في فرنسا يوم ذاك . وأوجه اعلام الثورة الفرنسية ، في مفتتح شأنها ، كميرابو وبارناف وسيياس كانوا ملكيين دستوريين ، بل ان الثورة نفسها في اول عهدها لم تكن تستهدف اعلان الجمهورية والغاء الملكية . وتقسيم النظر بين المبادىء ، والذين ستطبق عليهم ، يزيد في قيمة مونتسكيو العلمية ولا يعارض ثوريته . اما رأيه في الحرية انها الخضوع للقانون الكامل فمغزاه يتوقف على المقصود بالقانون الكامل . ومهما

[1]) تذكر هذه الكلمة بقول منسوب في الكتب العربية الى كسرى انو شروان : مثل الملك الذي ينال من شعبه لنفسه مثل من يخرب الاساس في سبيل سقف البيت . وقد ذاعت لمونتسكيو شهرة كبيرة في البلاد العربية . وفي باب « نصوص مختارة » من هذا الكتاب قطعة لنوفل نعمة الله نوفل الطرابلسي نقلناها عن كتابه « زبدة الصحائف في سياحة المعارف » وهي تدور حول نخبة من اعلام فرنسا في القرن الثامن عشر وبينهم مونتسكيو . فراجعها . . .

يكن من شيء فان مونتسكيو لم يعن به القانون الاستبدادي . اما القانون ، أصلاً ، والرضوخ له فهذا ما لا يشك عاقل في انه شرط من شروط الحرية ووقايتها .

ومع ذلك فيجوز لنا القول ان مونتسكيو لما عرّف الحرية بانها الخضوع للقانون الكامل ، نسي عنصراً لا بد منه للحرية هو : ضرورة اشتراك الذين يطيعون القوانين في وضعها (١٢) .

ومن مونتسكيو ينتقل بنا الحديث الى فولتير ، ملك القرن الثامن عشر غير المتوج ، كما لقب ، والعاهل الذي ليس له صولجان ، ولكن له يراع ، كما قال هو عن نفسه لفردريك الكبير البروسي .

قد يكون فولتير غير عميق ، وقد يكون قليل الثقة بجماهير الشعب . على ان سعة الآفاق التي تناولها وسخره اللاذع وشكه واحتكامه الى العقل وحماسته للعلم وعناده في المقارعة وتوجيهاته الجديدة في بعض المواضيع (١٣) ودفاعه عن حرية الرأي كل ذلك مضافاً الى قلم من أصفى الاقلام واخصبها ، واسلوب من اقرب الاساليب الى الشعب ، جعله في طليعة الاعلام الذين ايقظوا النفوس والاذهان وبعثوا فيها الحرارة لاستقبال عاصفة الثورة ولفحها الحار .

اضحك فولتير فرنسا واوروبا على الدعوى والسخافة والتعصب والتذرع بحماية المناصب والمقامات ، واغضب فولتير فرنسا واوروبا على جميع هذه العاهات والآفات .

كان اذا باع وكيل الخرج في بلاط لويس الرابع عشر نصف الخيول من اسطبلات الملك يصيح : كم كان اقرب الى المعقول لو صرف نصف الحمير الذين يعج بهم البلاط الملكي ! فكان الفرنسيون يقهقهون بالطبع ، ثم لا يلبثون ان يتأملوا بذخ البلاط

١٢) سيرى القارىء كيف نقد اديب اسحاق تعريف مونتسكيو للحرية .

١٣) ولا سيما فن التاريخ . واشهر آثار فولتير في هذا الباب تاريخ شارل الثاني عشر (الاسوجي) . وفي المقدمة المعنونة « Le Discours » يقول فولتير : « اذا وجد امراء او وزراء في هذا الكتاب ، حقائق مزعجة ، فليعلموا إنهم لما كانوا رجالا يعنون بشؤون العامة ، فللعامة الحق في محاسبتهم على اعمالهم . فبهذا الثمن يشترون العظمة . والتاريخ مؤدي شهادة وليس مداحاً . والطريقة الوحيدة لحمل الناس على ان يقولوا فينا خيرا هي ان نعمل الخير ! »

ويستنكروه ويسخطوا عليه .

ولا ريب ان هـذا الساخر (الفج احياناً) كان شديد الخبث والنعومة ايضا ، فكان يستغلق على سامعه تمييز عبثه من جده وقدحه من مدحه . وقد نفث خبثه على كثيرين ، منهم (المسكين) « Fréron » الذي حكى عنه فولتير ان الحية لدغته فماتت ، فلم يعرف أماتت الحية لقداسة الملدوغ ام لأن سمه اسرى وافتك من سمها [١٤] .

ولعل اول سؤال ينبغي لقارىء فولتير ان يسأله : هل الرجل جادّ في كلامه ام عابث ؟ وسيرى انه كثيراً ما يكون صاحب جد عظيم فينظر الى الشعب « يسبّح الله ويرقص حول الجزار » ويستمع « الى الانسان يصرخ بجاره : فكّر كما افكّر يا قليل التقوى والآ قتلتك » ، فيحاول الفيلسوف تعليل ذلك ويقول :

السبب اننا خنقنا صوت الطبيعة .

السبب اننا اضفنا الى شريعتها المقدسة شرائع .

السبب ان الانسان — وهو محب لعبوديته البلهاء ، — قد جعل الله على صورته ومثاله من شدة تعصبه !

وفولتير هو صاحب ذلك الابتهال البليغ الذي زفه الى الله في مطلع رسالته في التسامح .

ومنه : « انك لم تعطنا قلباً لنتباغض ولم تمنحنا الايدي ليخنق بعضنا بعضاً . »

اما الوطن ، « ففي ظل ملك صالح يكون للانسان وطن ، ولكنه في ظل ملك شرير لا وطن له » — هكذا يقول فولتير .

والدين يجب ان يستند الى العقل ، وهذه هي العقيدة الربانية « Déisme » ، عقيدة الكائن الاعظم « L'Etre Suprême » التي نجدها فيما بعد لدى اشهر اعلام

١٤) لفولتير رسالة الى احد المراجع الدينية العالية يتحدث فيها عن النبي محمد وقد نعى من اجلها مفكران عربيان : محمد الحسين آل كاشف الغطاء النجفي والاستاذ توفيق الحكيم ، على فولتير صدق مذهبه في التسامح . على اننا اذا نظرنا الى الرسالة في ضوء آراء فولتير واسلوبه وميله فيها الى المبالغة في التذلل والتفخيم والتعظيم ، اتسع لنا مجال لحمل الرسالة محمل العبث والتظرف .

الثورة مكسيميليان روبسبير ·

وفولتير في الانظمة كمونتسكيو أميل الى الملكية الدستورية ·

ويؤدي بنا الحديث الى دنيس ديدرو ، فاذا نحن امام الروح المحرك لذلك العمل العظيم الذي وسم بميسم متلألىء جبين القرن الثامن عشر ، نقصد الانسيكلوبيديا التي ساهم فيها عدد من اعلام العصر ، ولكن لم يبلغ فيها نشاط احد منهم ما بلغه نشاط ديدرو وعناده · وكان في فرنسا قانون مطبوعات ، اعلن سنة ١٧٥٧ يهدد بالاعدام كل كاتب او طابع ينشر كتاباً تقضي السلطات ان من شأنه « الاخلال » و « التحريض » · على ان هذا الخطر ، وجميع الصعوبات الاخرى ، لم توهن عزيمة الرجل · ومن يقرأ له صرخته الممزقة احتجاجا على تشويه المراقبة لعمله في الانسيكلوبيديا لا يملك ان يرتعش اعجاباً بتلك النفس الكبيرة المعذبة ·

بنى ديدرو على العقل ، ولكنه رأى ان التأملات العقلية المنقطعة عن الاختبارات العملية لا تغني · ولذلك قال : لدينا ثلاث وسائل رئيسية : ملاحظة الطبيعة والتأمل والتجربة (التطبيق) · اما الملاحظة فتقمش [١٥] الحقائق والمظاهر · والتأمل يوفق بينها · والتجربة تصدر حكماً على النتيجة · فللتجربة (التطبيق) الكلمة الفصل في العلم ·

وكان ديدرو عميق الشعور بطبيعة عصره الانقلابية ولاسيما فيما يتعلق بالعلوم · « نحن على عتبة ثورة عظيمة في العلوم · » ولعل احداً في فرنسا لم يمثل كما مثل ديدرو روح الثورة الصناعية الممتدة من الجزر البريطانية الى فرنسا ، عبر القنال · وكم كان اهتمامه عظيماً بالآلات · كان كفرنسيس باكون الانكليزي يحس بما سيكون لهذه المستنبطات من اثر يغير طابع الحياة · فكان كثيراً ما يشاهد في حوانيت النجارين ، وفي شتى اماكن العمل ، يرسم الآلات بقلمه ويسجل اوصافها وخصائصها ليدخلها في الانسيكلوبيديا ·

حقاً ان ديدرو كان في ميدان الفكر طليعة صريحة للطبقة الصناعية النامية في المجتمع الفرنسي ، اذ ذاك ، وهي الطبقة التي سنرى انها بدات فرنسا تبديلاً بثورة سنة ١٧٨٩ ·

١٥) التقميش هو الالتقاط كيفما اتفق ·

وكانت ثوريته حادة في جميع الآفاق التي تناولها بتفكيره • وبينما نجد احياناً في قراءة فولتير مجرد دعوة الى الضحك على آفات الاوضاع القائمة، فاننا لنحس ابداً في ديدرو دعوة الى العمل •

وقد لا يختلف مضمون آرائه السياسية والدينية واتجاهاته الاجتماعية عن فولتير، مثلاً، فهو في النتيجة يشجب الملكية المطلقة ويطالب بتقييدها ويفضل العقيدة الربانية « Déisme » — ان كان يفضل — ولا يسمي مواطناً الا الذي يملك ملكاً في الوطن [١٦] • غير ان ديدرو احد سكيناً من فولتير واشد توغلاً في التشريح والتشهير وربما وضع فولتير سكينه على الضحية، فشعرت بمس الحديد البارد واقشعرت قليلا ولكن الامر انتهى بخدش بسيط • على ان ديدرو لا يضع سكينه الا ليدمي •

وبعد ديدرو هلفثيوس صاحب كتاب « في الروح » « De l'Esprit » .

وان القارىء ليصادف عنده افكاراً وتعابير يصادفها هي بذاتها في الثورة الكبرى •

يثق هلفثيوس ثقة قوية بفضيلة الشعب والانسان • ويعتقد ان شرور الشعب ترجع جذورها الى القوانين، فهناك ينبغي للحافر ان يحفر كي يكشف عن شرور الشعب ••• والشارع الصالح هو الذي ينشىء المواطن الصالح • وبالقوانين الفاضلة، وحسب، يمكن انشاء رجال افاضل •

وهكذا يعلق هلفثيوس اهمية كبرى على صلاحية القوانين، ولكن نظرته الشاملة مبنية اصلاً على قاعدة من التربية الصالحة • يقول : « اذا استطعت ان ادل ان الانسان ليس في الواقع الا نتيجة التربية فاكون بلا شك قد اعلنت حقيقة عظيمة للامم • » ويتساءل : « من يستطيع ان يشك شكاً جازماً بان فروق التربية ليست هي التي تنتج الفروق التي نجدها في العقول ؟ من يستطيع ان يتأكد من ان الناس ليسوا كالاشجار التي هي من فصيلة واحدة، بذرتها البذرة نفسها، ولكنها لما كانت لا تزرع في التربة نفسها، ولا تعرض للرياح نفسها، ولا للشمس نفسها، ولا المطر نفسه، فقد لزمها في النشأة

١٦) وقد وافق هذا الذين وضعوا اول دستور لفرنسا فحصروا حق الانتخاب والتصويت، باصحاب الاملاك ودافعي الضرائب ..

والنمو ان تتشكل بعدد لا نهاية له من الاشكال .»

ولا ريب ان هذا رأي فيه كثير من المغالاة . ولو فرضنا من الممكن ان يصبح الناس بالتربية نسخا بعضها طبق بعض، كما قد يشير كلام هلفثيوس لكان ذلك شيئا مستكرها . على ان هلفثيوس اعلن عقيدة ثورية بعيدة المرمى اذ قال : « ان استنتاجي العام هو ان العبقرية عامة » ، فنسف بذلك رأياً يقول بان العبقرية وقف على عرق من الناس او فئات خاصة من المجتمع ، وقوّى الثقة بكفاءات الشعب والانسان ، وجاءت حوادث الثورة مؤيدة له ومحيرة افهام الكثيرين ممن كانوا يزعمون ان الجيش الفرنسي الثوري لا يجدي فتيلًا ما دام افضل ضباطه وقواده هاجروا او طردوا او اعدموا ، فلم يلبث هذا الجيش ان اتى باعمال عسكرية ادهشت اوروبا ، بقيادة قواد برزوا من اعماق الشعب كهوش ونابليون نفسه !

ويقودنا هلفثيوس الى « هولباخ » « Baron d'Holbach » البارون المجري الذي اكتسب الجنسية الفرنسية واصبحت له ندوة منزلية [17] تفتقت فيها الجدالات والعقول عن مبادىء كان لها اثرها في تمهيد السبيل الى الثورة . واشهر مخلفات « هولباخ » كتابه : « نظام الطبيعة » «Système de la Nature» الذي قطع فيه بضرورة انصراف الانسان عما وراء الكون الى الكون نفسه . « ان الانسان موجود في الطبيعة وهو مطوّع لقوانينها لا يستطيع ان يعتق منها ذاته . وعبثاً يصر عقله على الوثوب الى ما وراء العالم المشهود . ان ضرورة قاهرة ابداً تشده الى الرجوع .»

وفي ميدان السياسة والاجتماع يطالب « هولباخ » بالحرية ، ويحددها « بانها قدرة الانسان على اتخاذ التدابير التي تؤمن له وجوداً حسناً » . ولا ضمانة للحرية ، في رأيه ، الا بالقوانين التي « تحمي الجميع حماية متساوية : الاغنياء والفقراء ، العظماء والصغار ، الملوك والرعايا » . وهكذا يضع « هولباخ » سلطة القوانين فوق سلطة الجميع حتى الملوك . واذا ذكرنا ان لويس السادس عشر ، مثلا ، كان يقول معبراً عن رأي الملوك الاوتوقراطيين : لي وحدي سلطة التشريع دون اعتماد على غيري او

١٧) كان للندوات « Salons » من ادبية وفكرية ، اثر كبير في اليقظة العقلية الفرنسية ، في القرن الثامن عشر .

معاونة – ومعنى هذا انه فوق القوانين لانه يغيرها ساعة يشاء ما دامت سلطة التشريع منحصرة فيه – اجل ، اذا ذكرنا هذا عرفنا ان مبدأ « هولباخ » في جعل القوانين فوق الجميع ، حتى الملوك ، كان مبـدأ ثورياً . وكذلك قوله : الحرية ان لا يطيع الانسان الا القوانين ، كان رأياً ثورياً لانه يعرض فيه باصحاب العروش الذين يرون الطاعة واجبة لمطلق اشخاصهم [١٨] .

اما صيغة هذه القوانين فتشتق من طبيعة السياسة العامة . والسياسة العامة ، في نظره ، يجب ان تكون فن تنظيم ميول الانسان وتوجيهها الى انعاش المجتمع ، والى تيار عام من السعادة . انها يجب ان تنظم عواطف الانسان لتجعلها تنسلك انسلاكاً لطيفاً من اجل نفع الجميع منفعة عامة .

فينتج من هذا ان القوانين ينبغي لهـا ان تكون في مصلحة المجموع ، لا في مصلحة ذوي المقامات وحدهم .

وهنا يذهب بنا الكلام الى جان جاك روسو وهو اشد المفكرين صلة بالانقلاب الفرنسي الكبير ، وقد يلقب كتابه العقد الاجتماعي بانجيل الثورة . وكان روبسبيير من تلاميذه المتمسكين به . وكان « مارا » الزعيم الشعبي يقرأ منه صفحات للجماهير في شوارع باريس .

وربما لم يكن روسو مبتكراً في كل ما جاء به ؟ فان هوبز المفكر الانكليزي في القرن السابع عشر وصاحب كتاب الليفياتان « Leviathan » يعتبر سابقـاً له في البناء على نظريتي العقد الاجتماعي والحالة الطبيعية . ولكن هوبز – عدا فروق ثانوية اخرى – سخر النظريتين لخدمة الملكية المطلقة ، بينما سخرهما روسو لخدمة الحكم الدستوري بحق الثورة . ولذلك يعتبر المفكر الانكليزي الآخر ، جون لوك ، بين

---

١٨) ونرى ان بوادر التنبه الثوري ، في الامبراطورية العثمانية ، اتخذت أيضـاً شكل الدعوة الى مراعاة القوانين بذاتها مجردة عن اشخاص الملوك ورغائب الموظفين . فكلما استقال مدحت باشا من نظـارة العدلية أيام السلطان عبد العزيز كتب في استقالته ما يلي : « ان الدولة لا تدار بقانون ، فكل ناظر يريد ادارة الامور كما شاء وشاءت اغراضه ، ولذا فان الامور السياسية والادارية قد اختلت وخرجت النظامات العسكرية عن السراط السوي . »

سابقي روسو في القرن الثامن عشر . والاتفاق الفكري السياسي بين روسو ولوك عظيم ، الا ان لوك استهدف الملكية الدستورية ، بينما استهدف روسو الجمهورية . ولعل ابرز ما امتاز به جان جاك روسو قدرته على حمل آرائه ومبادئه الى صفوف الجماهير . وكأن غيره ظل يفكر في نطاق مكتبة صغيرة او حلقة ضيقة من النخبة المختارة بينما استطاع روسو ان يحرك اعماق الشعب ويجعل من مذهبه دستوراً للعمل . انه من الكتّاب القلائل الذين ترن كلماتهم برنة الصدق ، ويشعر القارىء لدى مطالعتهم انهم ، اذ يدعونه الى التفكير ، يدعونه الى العمل ايضاً .

يرجع روسو في فلسفته السياسية الى العهد الذي يسميه الحالة الطبيعية ، وهو يرى ان الانسان في هذا العهد — الانسان الفطريّ — كان صالحاً ، وكان خلواً من شوائب العاهات التي لحقت به فيما بعد . فروسو يعتقد ان الفطرة الانسانية فطرة خير ، وان الناس في الحالة الطبيعية كانوا على مستوى يقارب المثل الاعلى ، وكان لكل منهم حقوق مضمونة مقدسة تعرف بالحقوق الطبيعية « Droits Naturels »[19] .

فكيف تقهقر الانسان الى الحالة التي شاهده عليها روسو في المجتمع ؟ وكيف يمكننا ان نتلافى الشر ونصعد بالمخلوق الآدمي الى حيث هيأته كفاءاته الاصيلة ؟

يقول روسو ان الانسان لما حاد عن طريق « الحالة الطبيعية » اصيب بالانحطاط . وهذا طبعاً لا يعني ان الفيلسوف الفرنسي قصد فعلاً ان يعود الانسان الى وضعه في

---

١٩) واضح ان هذه الفروض التي يفرضها روسو عن الانسان الاول لا تطابق الحقيقة التاريخية . والغالب على الاذهان ان رأي هوبز في « الحالة الطبيعية » هو الاصح ، تاريخياً ، اذ كانت تطغى على علائق البشر قاعدة : « الانسان ذئب على الانسان » « homo Homine lupus » وناموس « حرب الجميع على الجميع » « Bellum omnium contra omnes » . ولكن كما ان فروض روسو بعيدة عن الصحة التاريخية ، فآراء هوبز تغفل ايضاً عن جانب التعاون بين الناس حتى في تلك الازمنة السحيقة . فالتنازع لم يكن في وقت هو وحده الغالب على الهيئة البشرية ، بل ان التعاون ليغزو التنازع نفسه ، فلا بد لكل تنازع من تعاون ولو على صعيد محصور في نطاق احدى الهيئات المتنازعة . وغني عن البيان بعد هذا ان روسو لما فرض فروضه لم يكن يتوخى كتابة التاريخ بل انشاء مذهب سياسي فلا تجوز مناقشته على اساس الصحة التاريخية وحدها .

فجر التاريخ . وفولتير لما كتب الى روسو رسالته الشهيرة ينبئه فيها انه شوّقه الى « الدبيب على الاربع » شأن الحيوانات ، انما انساق بدافع نكتة موفقة . وخلاصة ما ذهب اليه روسو هو ان الانسان بذرة صالحة في الطبيعة ، فاذا وافقتها عناية صالحة وجو صالح ، نمت نمواً اقرب الى شروط الكمال والفضيلة . ولذلك اهتم روسو اهتمامه العظيم بالتربية من جهة ، وبنظام الحكم من جهة اخرى ، فالف كتابيه الخالدين « اميل » و « العقد الاجتماعي » .

وفي العقد الاجتماعي ، وهو الكتاب الذي يمس صميم موضوعنا ، يقول روسو : ان الناس اذ يخرجون ، او يضطرون الى الخروج ، من الحالة الطبيعية بفعل تقدم التاريخ ، يتعاقدون على ان يتنازل كل منهم عن امتيازات الحياة التي يتمتع بها في تلك الحالة . ولكنهم لا يتنازلون هذا التنازل الا لان هذا التعاقد يضمن لهم في حالة الحياة الجديدة حقوقاً لا غنى لهم عنها ولا قيمة للاجتماع الا بها . وفي طليعة هذه الحقوق الحرية . والحرية في نظر روسو ليست الانسياق لنزوات العاطفة فتلك هي العبودية . بل ليست الحرية الطاعة للقانون ، كما يعتقد مونتسكيو ، ولكنها الطاعة للقانون الذي نسنه لانفسنا ، اي تسنه الاكثرية .

فنظرية العقد الاجتماعي تتلخص بأنها التقيد بارادة الاكثرية التي يسفر عنها التصويت الديموقراطي الطليق . ويفرّق روسو تفريقاً هاماً بين ارادتين : ارادة الجميع « Volonté de tous » ، وهي بعبارة ثانية ارادة الاكثرية التي يكشف عنها الاقتراع الديموقراطي ، ثم الارادة العامة « Volonté générale » وهي التي تعبّر عن مصلحة المجتمع وتعمل في سبيل هذه المصلحة . ولا ينفي روسو ان ارادة الجميع — اي : ارادة الاكثرية — قد لا تطابق الارادة العامة ، اي : مصلحة المجتمع . على انه وطيد الثقة بان الاكثرية اذا صلحت تربيتهم عرفوا مصلحة المجتمع فاقترعوا له . ومن هنا كان روسو ، وجميع الديموقراطيين الكبار ، يعلقون اهمية عظمى على ضرورة تربية المواطنين . فيقول « ماراه » وهو احد المنطبعين بطابع روسو الى حد بعيد : لا بد للشعب كي يتمتع بحقوقه من ان يعرفها ، وهكذا نشأت ضرورة تثقيفه ، ولا بد له كي لا يقع في الشراك التي تنصب له من ان يراها ، وهكذا

نشأت ضرورة تنويره [٢٠].

اما موئل السيادة في نظر روسو فهو الارادة العامة، وبمقدار ما تمثل الحكومة التي تنبثق من ارادة الجميع (اي: ارادة الاكثرية) مشيئة الارادة العامة تكون الحكومة شرعية موفقة. وللارادة العامة الحق في استرداد الثقة من كل حكومة لا تمثلها كما يجب. وهذا الاسترداد للثقة يجوز عند الضرورة ان يتخذ صيغة الثورة.

« ان الموكلين بالقوة التنفيذية ليسوا اسياد الشعب ولكنهم خدامه. ويستطيع الشعب الذي ينصبهم ان يسقطهم كلما شاء.» « لا ملك بعد اليوم، الشعب وحده هو السيد! » وفي هذا القدر ما يكفينا من روسو [٢١].

ولا بد لنا قبل اختتام الفصل من ان نلتفت الى مدرسة فكرية كان لها اثرها العميق في هذا القرن، وهي المدرسة الاقتصادية « L'École des Économistes »، وقد انصرف اعلامها الى البحث في ثروة الامة. وهكذا نهضت بذور العلم الذي نسميه اليوم بالاقتصاد السياسي. واحتدم الجدال حول مصدر الثروة. فقال كسناي (١٦٩٤ — ١٧٧٣): ان ثروة الامة بزراعتها، والانتاج الزراعي هو وحده الانتاج الحقيقي. وطلب عناية الدولة بالزراعة فوق كل شيء. ويعرف كسناي بزعيم فرقة الطبيعيين « Physiocrates » من الاقتصاديين. وخالفه غورناي

---

٢٠) من جريدته التي انشأها خلال الثورة، جريدة « صديق الشعب « L'Ami du Peuple ». ومفهوم ان التربية والثقافة هنا، وفي نظر روسو، لا تعنيان محض القراءة والكتابة. وينبغي القول بان اعلام المفكرين الديموقراطيين يدركون حق الادراك ان نتيجة التصويت الديموقراطي (ولو كان حرا نزيهاً) قد لا تخدم دائماً، المصلحة العامة. ومع ذلك فهم يتمسكون بالديموقراطية، لان الحكم الذاتي (والديموقراطية هي حكم ذاتي) افضل من الحكم الصالح، كما يقول السياسي الانكليزي كامبل بانرمان.. وما هذا الا لان الحكم الذاتي، اذا اخطأ، كانت اخطاؤه ثمناً لتعلم الشعب وتدرجه نحو الحكم الصالح، بينما الحكم الذي يصدر عن سلطة فردية، او خارجية، سرعان ما ينقلب الى الفساد ولو اتفق له ان يكون صالحاً في فترة قصيرة موفقة.

٢١) ليذكر القارىء ايضاً ان روسو كان من اتباع « العقيدة الربانية » « Déisme ». ورأيه في المرأة انها خلقت لمسرة الرجل هو المذهب النظري الذي تعلق به معظم اعلام الثورة، وفي باب النصوص من هذا الكتاب فصل للاستاذ محمد جميل بيهم عن هذا الموضوع.

فذهب الى ان الزراعة على اهميتها ليست مصدر ثروة الامة الاساسي ، بل الصناعة هي المصدر الاهم . وطالب كف يد الدولة عن التدخل في الشؤون الاقتصادية . وكان شعاره المفضل : « ألقوا الحبل على الغارب ، افسحوا السبيل « Laissez passer « Laissez faire » [٢٢] .

ومعنى هذا : انه كان يطالب بالغاء الحواجز والمكوس بين مقاطعة ومقاطعة ، في فرنسا ، كي يتسع المجال للتجارة . ومعناه ، ايضاً ، انه كان يطالب بفض الكوربوراسيون [٢٣] ليصبح العمال احراراً في التماس العمل الذي يريدونه . ومعناه ، كذلك ، انه كان يطالب باطلاق المدى للانتاج وقذف البضائع في الاسواق ، لان « قانون العرض والطلب » كفيل بضبط الامور وتسييرها كما يجب . وواضح ان غورناي كان لسان حال الصناعيين الذين ظهروا على اثر الثورة الصناعية في اوروبا « Révolution Industrielle » ، وكانت مبادئه اسبق النظريات الاقتصادية في التعبير عن ارادة الفئات المتقدمة اذ ذاك . ويعرف غورناي بزعيم فرقة البلوتوقراطيين « Ploutocrates » [٢٤] من الاقتصاديين . وقد نفذت الثورة الفرنسية ما اقترحه من اصلاحات ، فالغت الحواجز والمكوس بين مقاطعات فرنسا ، وفضت الكوربوراسيون ، وهيأت الاساس لازدهار نظام الاقتصاد الرأسمالي الحديث .

ويلحق بغورناي وكسناي ، الوزير الشهير ترغو ، الذي حاول التوفيق بين هذين المفكرين الاقتصاديين ، واخرج للملك برنامج اصلاح قبل الثورة لم يوفق الى تنفيذه .

ومن المفكرين الفرنسيين الذين لا بد لنا من ذكرهم ، في هذا القرن ، موريلي : مؤلف كتاب « قانون الطبيعة » . وكان بابوف الثائر الفرنسي ، الذي اشتق نغمة

---

٢٢) كان كسناي وغورناي ، من هذا القبيل ، متفقين .

٢٣) الكوربوراسيون نقابات عمالية ، على اساس الحرفة ، تختلف عن النقابات الحديثة بأنها كانت تسيطر سيطرة اجبارية على العمال المنتسبين اليها ، كل عامل يبدأ فيها « متدرجاً » « Apprenti » ، فاذا طمح الى ان يكون معلماً « Maitre » وجب عليه أن يحرز شهادة من الكوربوراسيون . ولما كان « المعلمون » حريصين على بقاء عددهم قليلا ، كان انتقال العامل من « متدرج » الى « معلم » صعباً جدا .

٢٤) البلوتوقراطيون : الماليون .

اشتراكية جديدة في الثورة ، أيام حكومة « الادارة » ، يكثر الرجوع اليه ويستقي من آرائه .

ولعلنا ، وقد بلغنا هذا المبلغ من بحث الفكر الفرنسي ، بتنا نلمس صحة ما قلناه من ان المفكرين والادباء الفرنسيين افاقوا على المجتمع ، قبل الثورة ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فوجدوا ان معظم الفرنسيين من حيث وضعهم في الهيئة والدولة ومسالك السياسة انما هم وسائل لبعض الفرنسيين ، وليسوا غاية كما يحق لهم ان يكونوا . فعمد هؤلاء الادباء والمفكرون الى الاحتجاج على الحالة الراهنة وتلمس اسباب الفساد ، ووضع الخطط ورسم الهيئة للمجتمع الجديد . وكان لهم من « العقل » مصباح ، ومن « الطبيعة » دعامة يرتكزون عليها . وكان لنشاطهم وتوجيههم اثر بليغ في الثورة ونهضتها . ولقد ادى الثوار سنة ١٧٨٩ واجبهم في الاعتراف بفضلهم ، اذ نقشوا بيان حقوق الانسان الخالد وجعلوا في أعلاه عيناً مطلة مضيئة هي « عين العقل الرفيعة التي طلعت تبدد سحب الجهالة ! »

مجاري الثورة الى الشرق

كيف اتصلت الثورة الفرنسية بالشرق العربي ؟ واية هي المجاري التي سلكتها ؟

يعرض لنا هذا السؤال ، وفيه ما فيه من اسباب الصعوبة ، لانه لا يزال موضوعاً غير مطروق ، ولان تعيين الانتقالات الفكرية في التاريخ امر بطبيعته يتعذر البت فيه . وقد تتيسر للانتقالات الفكرية مسالك خفية لا يدركها المؤرخون على رغم اهميتها ، او هم يدركونها ولكن ادراكاً عاماً غامضاً ، يعوزه التدقيق وينقصه التفصيل .

ومع ذلك فليس البحث في مجاري الثورة الفرنسية الى الشرق العربي خلواً من كل اساس ، ولا شك ان ما سنكتبه في هذا الفصل محاولة جد بدائية تقبل التحسين والتوسيع فيما بعد .

ان اول مجاري الثورة الفرنسية الى الشرق العربي — ولعله اعظمها — كان الفتح النابليوني لمصر سنة ١٧٩٨ ايام حكومة الادارة . وكانت الرجعة النابليونية ، اذ ذاك ، في اوائلها على انها كانت بارزة الاثر . وقد اذاع نابليون منشوره الاول على المصريين فتكلم باسم التجار الفرنسيين ، غير انه صدر ايضاً في كلامه عن بعض مبادىء الثورة فتحدث الى المصريين عن تسلط المماليك واستئثارهم باجود الاراضي . وهذا بعض نص المنشور :

باسم الله الرحمن الرحيم — لا اله الا الله ولا ولداً له ولا شريك بملكه .

من طرف الجمهور الفرنساوي المبني على اساس الحرية ، والساري عسكر الكبير بونابرت امير الجيوش الفرنساوية ، يعرف اهالي مصر جميعهم : ان من زمن مديد ، السناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ، ويظلمون تجارها بانواع البلص والتعدي ، فحضرت الآن ساعة عقوبتهم

وحسرة من مـدت عصور طويلة هـذه الزمرة المماليك المجلوبين من جبـال الابازا والكرجستان يفسدوا في الاقاليم الاحسن ما يوجد في كرة الارض كلها . فاما رب العالمين القادر على كل شيء قـد حتم في انقضاء دولتهم . يا ايها المصريين ! قـد يقولوا لكم انني ما نزلت في هذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم . فذلك كذب صريح ، فلا تصدقوه . وقولوا للمفـترين انني ما قدمت اليكم الا لكيما اخلص حقكم من يد الظالمين ، وانني اكثر من المماليك اعبد الله سبحانه وتعالى ، واحترم نبيه محمد والقرآن العظيم . وقولوا لهم ايضاً ان جميع الناس متساويين عند الله ، وان الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم بعض فهو العقل والفضايل والعلوم فقط . وبين المماليك ما العقل والفضل والمعرفة التي تميزهم عن الآخرين وتستوجب انهم ان يتملكون وحدهم كلما يحلو به حياة الدنيا ؟ حيثما يوجد ارض مخصبة فهي مختصة للمماليك . والجواري الجمال والحلل الحسان والمساكن الاشهى فهذه كلها لهم خاصة . فانكان الارض المصرية التزام للمماليك فليوردون الحجة التي كتبها لهم الله . ولكن رب العالمين هو رأوفاً وعادل على البشر . بعونه تعالى من اليوم وصاعداً لا يستثنى احد من اهالي مصر عن الدخول في المنـاصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية . فالعقـلاء والفضلاء والعلما بينهم سيدبروا الامور وبذلك يصلح حال الامة كلهـا . سابقاً في الديار المصرية كانت المدن العظيمة ، والخلجان الواسعة ، والمتجر المتكاثر ، وما زال ذلك الا الطمع وظلم المماليك ... (١)

وواضح ما في هذا الكلام من صلة متينة بمبادىء الثورة وبيان حقوق الانسان (٢). ويقول الامير حيدر الشهابي ان اعيان مصر استغربوا هـذا « الخطاب المهول والامر المجهول » فقد كان جديداً على الاسماع والافهام .

ولم تستقر قدم نابليون في وادي النيل حتى هيأ ديواناً استشارياً من كبار العلماء

١) نقلنا النص من تاريخ الامير حيدر وحافظنا على لغته .

٢) جعلنا تحت الكلام ، الذي يتصل بمبادىء الثورة ، خطاً .

والتجار، فكان في عمله بذرة ، وان تكن طفيفة ، من تمرين الامة على الادارة الذاتية .

هز الفتح النابليوني جو الجمود الذي كان مخيما على مصر ، فنهضت فيها بعد ايام محمد علي الكبير نهضة سياسية عسكرية ، صناعية وثقافية ، واخذت من عهد نابليون تتجه الميول الثقافية المصرية الى الارتشاف من ينابيع فرنسية ، حتى كان زمن محمد علي ، فقوي الترابط الثقافي بين البلدين وعززه التفاهم السياسي . وانفذ محمد علي باشا البعوث العلمية ، فكانت تلك البعوث من اسباب الاطلاع على فرنسا الثائرة والمبادىء التحريرية التي حركت شعبها الى انتفاضات جبارة ، ثم كانت في مصر تلك القافلة من الادباء والمفكرين من رفاعة رافع الطهطاوي الى طه حسين اليوم .

ومن حسن الحظ ان احد اعضاء هذه البعوث ، وهو الطهطاوي ، قد ترك لنا كتاباً نفيساً عن رحلته الى باريس وما تلقاه فيها من ثقافة ، وما شاهده وتأثر به في فرنسا ، لاسيما عاصمتها العظيمة . واسم الكتاب : تخليص الابريز في تلخيص باريز ، او الديوان النفيس بايوان باريس . ولا نغالي اذا قلنا ان الطهطاوي مؤلف الكتاب عقل من اعمق العقول الشرقية العربية ، التي ماسّت الغرب ، كما يتجلى في فرنسا ، وفهمته فهماً واعياً لفضائله وحسناته من وجوه عدة . وصادف عهد الطهطاوي في باريس عهد الملك شارل العاشر ووزيره بولنياك . وكانت ملكية شارل العاشر ، نظرياً ، ملكية دستورية مقيدة بالصك « الشارت » « La Charte » التي تولى العرش على اساسها لويس الثامن عشر . ولكن شارل العاشر كان نزاعاً الى الملكية المطلقة ، ومن اقواله : انه يؤثر ان ينشر الخشب على ان يكون ملكاً من الطراز الانكليزي (اي دستورياً) . وكان وزيره بولنياك يستهدف الغاء كل اثر من آثار الثورة الفرنسية الكبرى ويقول : غرضنا ان نعيد تنظيم المجتمع ، ان نرجع الى الاكليروس نفوذه في الدولة ، ونخلق ارستقراطية قوية نسيّجها بالامتيازات . ولم يتورع شارل العاشر من فض المجلس النيابي فأعاد الشعب انتخاب اكثر اعضائه ، ولا سيما الاعضاء الذين عرفوا بمقاومة الملك . فأصدر شارل قوانينه المشهورة « Les Ordonnances » بالغاء حرية الصحافة ، وفضّ المجلس مرة ثانية ، فاندلعت الثورة في باريس سنة ١٨٣٠ وطالت ثلاثة ايام من شهر تموز (٢٦ الى ٢٩ منه) وهي الايام المعروفة « بالثلاثة المجيدة » . فسقط شارل

العاشر واقيم مكانه الملك لويس فيليب على اساس صك جديد .

وقد شهد الطهطاوي ثورة الايام الثلاثة المجيدة ، وهي تعتبر صفحة تالية للثورة الكبرى ، ووصفها وصفاً طريفاً دقيقاً اثبتناه مع النصوص في هذا الكتاب . وعني عناية خاصة بالدستور الفرنسي وسماه تسميته الفرنسية فدعاه الشرطة « La Charte » ، ونقله الى العربية قبل التعديل زمن شارل العاشر ، وبعد التعديل زمن لويس فيليب [٣] ، وتحدث عن مجلس النواب الفرنسي ، او المجلسين على الأصح : ديوان « رسل العمالات » الذين « هم وكلاء الرعية المنتخبون » « Les Députés » ، وديوان البير اي اهل المشورة الاولى .

ولم ينس ان يلمّ بشؤون اخرى تتصل بنظام فرنسا السياسي . وفيما يلي نص الخلاصة التي وضعها الطهطاوي للشرطة ، مع تعليقه عليها ، في اول ملك لويس فيليب :

« الفرنساوية مستوون في الاحكام على اختلافهم في العظم والمنصب والشرف والغنا ، فان هذه مزايا لا نفع لها الا في الاجتماع الانساني والتحضر فقط ، لا في الشريعة [٤] . فلذلك كان جميعهم يقبل في المناصب العسكرية والبلدية ، كما انه يعين الدولة من ماله على قدر حاله . وقد ضمنت الشريعة لكل انسان التمتع

٣) اشترك الطهطاوي ايضاً في نقل القانون المدني الفرنسي بكامله . ونشطت حركة مصرية قوية لتعريب القوانين الفرنسية عامة . وقد جاء في مقالة للدكتور محمد حسين هيكل ما يلي : « واذا كانت مبادىء الثورة الفرنسية قد تسربت الى مصر بطريق الحملة النابليونية في سنة ١٧٩٨ ، ومن طريق الشبان المصريين الذين اوفدوا الى فرنسا ثم عادوا الى مصر ، فقد اتجهت الفكرة الى تعريب القوانين الفرنسية التي وضعت ايام نابليون ، وعهدت الحكومة الى جماعة من افاضل المترجمين المصريين بهذه المهمة . فعرب القانون المدني الفرنسي رفاعة بك رافع ، وعبد الله بك رئيس قلم الترجمة ، واحمد افندي حلمي ، وعبد السلام افندي احمد . واما قانون المرافعات فعربه ابو السعود افندي ، وحسن افندي فهمي احد مترجمي وزارة الخارجية . وعرب قدري باشا قانون العقوبات . وعرب صالح مجدي بك قانون تحقيق الجنايات . وجمعت هذه القوانين كلها ، وطبعت بالمطبعة الاميرية سنة ١٢٨٣ ﻫ . » (السياسة الاسبوعية ، السبت ١٩ مارس سنة ١٩٢٧ ، المقالة عن محمد قدري باشا) .

٤) الشريعة ، اصلا في اللغة العربية ، اسم للناموس الديني .

بحريته الشخصية حتى لا يمكن القبض على انسان الا في الصور المذكورة في كتب الاحكام ، ومن قبض على انسان في صورة غير منصوصة في الاحكام يعاقب عقوبة شديدة . ومن الاشياء التي ترتبت على الحرية عند الفرنساوية أن كل انسان يتبع دينه الذي يختاره يكون تحت حماية الدولة ، ويعاقب من تعرض لعابد في عبادته ، ولا يجوز وقف شيء على الكنائس واهداء شيء لها الا باذن صريح من الدولة . وكل فرنساوي له ان يبدي رأيه في مادة السياسات او في مادة الاديان بشرط ان لا يخل بالانتظام المذكور في كتب الاحكام . كل الاملاك على الاطلاق حرم لا تهتك ، فلا يكره انسان ابداً على اعطاء ملكه الا لمصلحة عامة ، بشرط اخذه قبل التخلية قيمته ، والمحكمة هي التي تحكم بذلك . كل انسان عليه ان يُعين في حفظ المملكة العسكرية بشخصه ، بمعنى انه كل سنة يُجمع اولاد احدى وعشرين سنة لتضرب القرعة لاخذ العساكر السنوية منهم ، ومدة خدمة العسكرية ثمان سنوات ، وكل فرنساوي عمره ثانية عشر سنة — وله حقوقه البلدية — يمكنه ان يتطوع ويدخل العسكرية ، ويعافى من العسكرية عدة اناس ؛ الاول : من طوله دون متر وخمسة وسبعين سنتمتر يعني اربعة اقدام وعشرة برامق ؛ الثاني : اصحاب العلل ؛ الثالث : الابن اكبر الاخوان الايتام من ابيهم وامهم ؛ الرابع : الابن البكري ، او المنفرد ، وابن الابن الاكبر او المنفرد عند فقده ، اذا كانت الام او الجدة لا زوج لها ، او كان ابوه اعمى ، او سنه سبعون سنة ؛ الخامس : البكري احد الاخوين الذين وقعا في قرعة لمدّة واحدة ؛ السادس : الاخ الذي اخوه فاضل تحت البيرق ، او مات في الخدمة ، او جرح في الحرب . ولو اراد انسان ان ينوب عنه غيره فان المنوب عنه يضمن النائب سنة من خوف الهرب ، الا اذا كان الهارب قبض عليه في السنة او مات تحت بيرق الفرنساوية . وفي واحد وعشرين في شهر دسمبر من كل سنة ، كل العساكر التي تمت خدمتهم يؤذن لهم بالعودة الى محالهم . ولما كان لا يمكن لكل انسان ان يدخل بنفسه في عمل الدولة وكلت الرعية بتمامها عنها في ذلك اربعماية وثلاثين وكيلا تبعثها الى باريس في المشورة ، وهؤلاء الوكلاء تختارهم الرعية وتوكلهم بان يمانعوا عن حقها ويصنعوا ما فيه مصلحة لها . وذلك ان كل

فرنساوي مستكمل للشروط التي منها ان يكون عمره خمسة وعشرين سنة ، له ان يكون ممن له مدخل في انتخاب رسل عمالاته · وكل فرنساوي له ان يكون رسولا اذا كان عمره ثلاثين سنة ، ويكون موصوفاً بالشروط المذكورة في كتاب الاحكام . وفي كل مأمورية مجمع اختيار وانتخاب ، ومجامع انتخاب الاقاليم الصغيرة ، ومجامع المأموريات الكبيرة مؤلفة من المنتخبين الكبار ، وتعين ١٧٢ رسولا · ومجامع انتخاب الاقاليم الصغيرة تعين ٢٥٨ رسولا ، ودفاتر ارباب الانتخاب تطبع وتكتب في الطرق شهراً قبل فتح مجامع الانتخاب حتى انه يمكن لكل انسان ان يكتب اعلاماً به ، وكل منتخب (بكسر الخاء) يكتب رأيه سراً في ورقة يعطيها للرئيس مطوية ، والرئيس يضعهـا في اناء القرعة ، وديوان رسل العمالات يتجدد اهله بالكليـة ، كل خمس سنوات ، ولا يمكن اخذ الفرد (٥ الا بخلاصة من مشورة الديوانـين مقررة من طرف الملك · يمكن لاهل البلدان ان يرسلوا اهل الديوانين بطرق العرضحـال ليشتكوا من شيء او يعرضوا شيئاً نافعاً · القضاة لا ينعزلون فلا يحكم على انسان الا بقضاة محل استيطانه · والدعاوى تقام جهراً ، وذنوب الجنايات لا يحكم فيها الا بحضرة جمـاعة يسمون الجوريين « Les Jurés » · والعقوبة بالقبض عـلى الاموال بطلت · للملك ان يعفو عن المعاقب بالموت وان يخفف العقاب الشديد · عـلى الملك وورثته ان يحلفوا عند ارتقاء الكرسي بان يعملوا بما في كتاب قوانين المملكة · ثم انه يطول علينا ذكر الاحكام الشرعية والقانونية المنصوبة عند الفرنساوية ، فلنقل ان احكامهم القانونية ليست مستنبطة من الكتب السماوية ، انما هي مأخوذة من قوانين أخر غالبها سياسية ، وهي مختلفة بالكلية عن الشرائع ، وليست قارة الفروع · ويقال لهـا الحقوق الفرنساوية ، اي حقوق الفرنساوية بعضهم على بعض ، وذلك لان الحقوق عند الافرنج مختلفة · ثم ان بباريس عدة محاكم وفي كل محكمة قاض كبير كأنـه قاضي القضاة ، وحوله رؤساء وارباب مشورة ، ووكلاء الخصوم ، ومحـامون للخصوم ، ونواب عن المحامين وموقع الوقائع · »

وطبيعي ان يتنبه الطهطاوي الى كل هـذا ، وهو الشرقي العربي ، الذي يلتمس

٥) مال الاعناق .

لوطنه اسلوباً في الحكم يسير عليه ويساير الامم الناهضة في نظام يشترك فيه المواطنون جميعهم ، في حقوق وواجبات مفصلة مصونة متساوية ، مبدئياً على الاقل .

وقد اشرنا الى ان الطهطاوي عرّب « الشرطة » الاصلية التي ملك لويس الثامن عشر وفاقاً لها ، غب سقوط نابليون النهائي ، وانعقاد مؤتمر فيينا . وكتب الطهطاوي في مقدمة تعريبه لتلك الشرطة :

« فيها امور لا ينكر ذوو العقول انها من باب العدل . ومعنى الشرطة في اللغة اللاطينية ورقة ، ثم تسومح فيها فاطلقت على السجل المكتوب فيه الاحكام المقيدة . فلنذكره لك وان كان غالب ما فيه ليس في كتاب الله تعالى ، ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بان العدل والانصاف من اسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم وكثرت معارفهم وتراكم بناهم وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيها من يشكو ظلماً ابداً ، والعدل اساس العمران . ولنذكر هنا نبذة مما قاله فيه العلماء والحكماء او في ضده . من كلام بعضهم : ظلم اليتامى والايامى مفتاح الفقر . والحلم حجاب الآفات . وقلوب الرعية خزائن ملكها ، فما اودعه اياها وجده فيها . وقال آخر : لا سلطان الا برجال ، ولا رجال الا بمال ، ولا مال الا بعمارة ، ولا عمارة الا بعدل . وقيل فيما يقرب من هذا المعنى : سلطان الملوك على اجسام الرعايا لا على قلوبهم . وقال بعضهم : ابلغ الاشياء في تدبير المملكة تسديدها بالعدل ، وحفظها من الخلل . وقيل : اذا اردت ان تطاع فاطلب ما يستطاع . ان المولى اذا كلف عبده ما لا يطيقه فقد اقام عذره في مخالفته . »

وفي هذا ما يجب ان يستوقفنا لاننا نرى الطهطاوي ، وهو من اعلام مفكرينا الاول ، ينظر الى مبادىء الشرطة ، اي : المبادىء التي استوحيت من الثورة الفرنسية الكبرى ، نظرة اعجاب وتقدير . ولكنه يرى ان اكثرها مما ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله [٦] .

---

٦) يقصد من حيث النص الصريح .

ومع ذلك فهو يضرب في تأييدها الحكم العربية وما قصده الا ان يبين ان هذه المبادىء ليست غريبة عنا . فيكون الطهطاوي قد حاول شيئاً من التوفيق بين تقاليدنا ، والمبادىء التي انبثقت من الثورة الكبرى . وسنجد ان المفكرين قد خطوا خطوات ابعد في التوفيق ، فبينوا ان روح هذه المبادىء تساوي روح كتاب الله وسنة رسوله .

وبعد ان يفرغ الطهطاوي من تعريب الشرطة ، يكتب معلقاً عليها :

« فاذا تأملت رأيت اغلب ما في هذه الشرطة نفيساً ، وعلى كل حال فأمره نافذ عند الفرنساوية ، ولنذكر هنا بعض ملاحظات فنقول :

قوله ، في المادة الاولى : سائر الفرنسيس مستوون قدام الشريعة معناه سائر من يوجد في بلاد فرانسا من رفيع ووضيع لا يختلفون في اجراء الاحكام المذكورة في القانون ، حتى ان الدعوة الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر الى هذه المادة الاول فان لها تسلطاً عظيماً على اقامة العدل واسعاف المظلوم وارضاء خاطر الفقير ، بانه العظيم نظراً الى اجراء الاحكام . ولقد كادت هذه القضية ان تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية وهي من الادلة الواضحة على وصول العدل عندهم الى درجة عالية وتقدمهم في الآداب الحضرية . وما يسمونه الحرية ، ويرغبون فيه ، هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والانصاف ، وذلك لان معنى الحكم بالحرية هو اقامة التساوي في الاحكام والقوانين ، بحيث لا يجور الحاكم على انسان ، بل القوانين هي المحكمة والمعتبرة ، فهذه البلاد حرية بقول الشاعر :

وقد ملأ العدل اقطارها   وفيها توالى الصفا والوفا

وبالجملة اذا وجد العدل في قطر من الاقطار فهو نسبي اضافي ، لا عدل كلي حقيقي ، فانه لا وجود له الآن في بلدة من البلدان ، فانه كالايمان الكامل والحلال الصرف .

واما المادة الثانية (٧) فانها محض سياسية ، ويمكن ان يقال ان الفرد ونحوها لو

(٧) نص المادة كما عربها الطهطاوي : يعطون من اموالهم بغير امتياز شيئاً معيناً لبيت المال كل انسان على حسب ثروته .

كانت مرتبة في بلاد الاسلام ، كما هي في تلك البلاد ، لطابت النفس خصوصاً اذا كانت الزكوات والفيء والغنيمة لا تفي بحاجة بيت المال ، او كانت ممنوعة بالكلية ، وربما كان لها اصل في الشريعة على بعض اقوال مذهب الامام الاعظم [8]. ومن الحِكم المقررة عند قدماء الحكماء : الخراج عمود الملك ، ومدة اقامتي بباريس لم اسمع احداً يشكو من المكوس والفرد والجبايات ابداً ولا يتأثرون بحيث انها تؤخذ بكيفية لا تضر المعطي وتنفع بيت مالهم خصوصاً واصحاب الاموال في امان من الظلم والرشوة . واما المادة الثالثة [9] فلا ضرر فيها ابداً ، بل من مزاياها انها تحمل كل انسان على تعهد تعلمه حتى يقرب من منصب اعلى من منصبه ، وبهذا كثرت معارفهم ولم يقف تمدنهم على حالة واحدة مثل اهل الصين والهند ممن يعتبر توارث الصنائع والحرف ، ويبقي للشخص دائماً حرفة ابيه . وقد ذكر بعض المؤرخين ان مصر في سالف الزمان كانت على هذا المنوال ، فان شريعة قدماء القبطة كانت تعين لكل انسان صنعته ، ثم يجعلونها متوارثة عنه لاولاده . قيل سبب ذلك ان جميع الصنائع والحرف كانت عندهم شريفة ، فكانت هذه العادة من مقتضيات الاحوال لانها تعين كثيراً على بلوغ درجة الكمال في الصنائع ، لان الابن يحسن عادة ما رأى اباه يفعله عدة مرات بحضرته ، ولا يكون له طمع في غيره ، فهذه العادة كانت تقطع عرق الطمع وتجعل كل انسان راضياً صنعته لا يتمنى اعلى منها ، بل لا يبحث الا عن اختراع أمور جديدة نافعة لحرفته توصل الى كمالها (انتهى) . ويُرد عليه انه ليس في كل انسان قابلية لتعلم صنعة ابيه ، فقصره عليها ربما جعل الصغير خائباً في هذه الصنعة ، والحال انه لو اشتغل بغيرها لنجح حاله وبلغ آماله . واما المادة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة [10] فانها نافعة لاهل البلاد والغرباء فلذلك كثر اهل هذه البلاد وعمرت بكثير من الغرباء . واما المادة الثامنة [11] فانها تقوي كل انسان على ان يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله

٨) يقصد ابا حنيفة .

٩) نصها حسب تعريب الطهطاوي : كل واحد منهم متأهل لاخذ اي منصب كان واي رتبة كانت .

١٠) مواد تتعلق بحرية الشخص الانساني ، وحرية الاعتقاد الديني للجميع (للغرباء ايضاً) .

١١) تتعلق باطلاق حرية الرأي .

مما لا يضر غيره ، فيعلم الانسان سائر ما في نفس صاحبه ، خصوصاً الورقات اليومية المسماة بالجرنالات والكازيطات ، الاولى : جمع جرنال ، والثانية جمع كازيطة « Gazette » ، فان الانسان يعرف منها سائر الاخبار المتجددة سواء كانت داخلية وخارجية ، اي : داخل المملكة او خارجها ، وان كان قد يوجد فيها من الكذب ما لا يحصى ، الا انها قد تتضمن اخباراً تتشوق نفس الانسان الى العلم بها . على انها ربما تضمنت مسائل عملية جديدة التحقيق ، او تنبيهات مفيدة ، او نصايح نافعة ، سواء كانت صادرة من الجليل او الحقير ، لانه قد يخطر ببال الحقير ما لا يخطر ببال العظيم ، كما قال بعضهم : لا تحتقر الرأي الجليل يأتيك به الرجل الحقير ، فان الدرة لا تستهان لهوان غواصها ...

ومن فوائدها ان الانسان اذا فعل فعلاً عظيماً او رديئاً ، وكان من الامور المهمة ، كتبه اهل الجرنال ليكون معلوماً للخاص والعام ، لترغيب صاحب العمل الطيب ، ويرتدع صاحب الفعلة الخبيثة ، وكذلك اذا كان الانسان مظلوماً من انسان كتب مظلمته في هذه الورقات فيطلع عليها الخاص والعام فيعرف قصة المظلوم والظالم ، من غير عدول عما وقع فيها ولا تبديل ، وتصل الى محل الحكم ، ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة ، فيكون مثل هذا الامر عبرة لمن يعتبر ، واما المادة التاسعة [١٢] فانها عين العدل والانصاف وهي واجبة لضبط جور الاقوياء على الضعفاء ، وتعقيبها بما في العاشرة [١٣] من باب اللياقة الظاهرة ... » الخ .

وليس في كل هذا الا ما يدل على ان الطهطاوي تأثر اعمق التأثر بما رآه في نظام فرنسا من نتائج ثورتها الكبرى . وله في كتابه « تخليص الابريز » ملاحظات موزعة تدل على تقديره للتفكير الفرنسي المبني على احكام العقل ، وهو التفكير الذي ازهر زهره واثمر ثمره في القرن الثامن عشر في اعلام المفكرين قبل الثورة . والى القارىء شيئاً من ملاحظاته : « ان الباريزيين يختصون من بين كثير من النصارى بذكاء العقل

١٢) تتعلق بحرمة الملكية الخاصة .

١٣) تتعلق بحق الدولة في التصرف باي ملك من املاك الرعايا ، لقاء تعويض ، اذا اقتضت ذلك المصلحة العامة .

ودقة الفهم وغوص ذهنهم في العويصات . وليسوا اسراء التقليد اصلا ، بل يحبون دائماً معرفة اصل الشيء ، والاستدلال عليه ، حتى ان عامتهم يعرفون ايضاً القراءة والكتابة ويدخلون مع غيرهم في الامور العميقة كل انسان على قدر حاله . فليست العوام في هذه البلاد من قبيل الانعام ، كعوام اكثر البلاد المتبربرة . والفرنساوية من الفرق التي تعتبر التحسين والتقبيح العقليين . واقول هنا : انهم يذكرون خوارق العادات ويعتقدون انه لا يمكن تخلف الامور الطبيعية اصلا . ان الاديان انما جاءت لتدل الانسان على فعل الخير واجتناب ضده ، وان عمارة البلاد وتطرق الناس وتقدمهم في الآداب والظرافة تسد مسد الاديان ، وان الممالك العامرة تصنع فيها الامور السياسية كالامور الشرعية [١٤] . »

غير ان الطهطاوي ، اذ يبلغ به الحديث الى مسألة القضاء والقدر ، يخالف التفكير الفرنسي المبني على احكام العقل . فهو يترك للقضاء والقدر مجاله « وان كان لا ينبغي للانسان ان يحيل الاشياء على المقادير اذ يحتج بها قبل الوقوع . »

وللطهطاوي فصل خاص في الكتب التي طالعها في باريس ، واكثرها يرجع الى القرن الثامن عشر ، وتأخذ باسباب التفكير المبني على احكام العقل . وفيما يلي نص كلام الطهطاوي عن مطالعاته :

« قرأت كثيراً من كتب الادب . فمنها ... عدة مواضيع من ديوان ولتير ... وديوان رسو خصوصاً مراسلاته الفارسية التي يعرف بها الفرق بين آداب الافرنج والعجم وهي اشبه بميزان بين الآداب المغربية والمشرقية [١٥] ... وقرأت في الحقوق الطبيعية ، مع معلمها ، كتاب برلماكي وترجمته وفهمته فهماً جيداً . وهذا الفن عبارة عن التحسين والتقبيح العقليين يجعله الافرنج اساساً لاحكامهم السياسية المسماة عندهم شرعية . وقرأت ايضاً مع مسيو شواليه جزئين من كتاب يسمى « روح الشرائع » ، مؤلفه شهير بين الفرنساوية ، يقال له مونتسكيو ، وهو اشبه بميزان بين

---

١٤) قال : الشرعية لان كلمة شرعية تطلق على النواميس الدينية في اللغة العربية .

١٥) ظاهر ان المؤلف وقع هنا في هفوة ، فالمراسلات الفارسية لمونتسكيو ، عدا ان روسو ليس له ديوان .

المذاهب الشرعية والسياسية ومبني على التحسين والتقبيح العقليين . ويلقب عندهم مونتسكيو بـ « ابن خلدون الافرنجي » . كما ان ابن خلدون يقال له عندهم ايضاً مونتسكو الشرق ، اي : مونتسكو الاسلام . وقرأت ايضاً في هذا المعنى كتاباً يسمى عقد التأنس والاجتماع الانساني ، مؤلفه يقال له روسو وهو عظيم في معناه ... وقرأت عدة محالّ نفيسة في معجم الفلسفة للخواجه ولتير وعدة محال في كتب فلسفة « قندلياق » « Condillac » .

ومن الامور التي يبدي الطهطاوي اعجابه بها ثقافة المرأة الفرنسية ، فيقول : ان للنساء تآليف عظيمة . ومنهن مترجات للكتب من لغة الى اخرى ، مع حسن العبارات وجودتها . ومنهن من يُتمثّل بانشائها ومراسلاتها المستغربة . ومن هنا يظهر لك ان قول بعض ارباب الامثال : جمال المرء عقله وجمال المرأة لسانها ، لا يليق بتلك البلاد .

وهكذا نستطيع ان نقول ان رفاعة رافع الطهطاوي ، مع رجال البعوث الذين انفذهم محمد علي باشا الكبير الى فرنسا ، كانوا من اعظم المجاري التي تسربت خلالها الى الشرق العربي آثار من مبادىء الثورة الفرنسية وكبارّ مفكريها .

ولكن هناك مجرى آخر ، اذا شئنا ان نرجع الى أصله في التاريخ وجب علينا ، ايضاً ، الرجوع الى الحملة النابليونية . فان هذه الدفعة العسكرية القوية تجاوزت مصر وبلغت اسوار عكا حيث حاصرت احمد باشا الجزار في قاعدته ، وطارت اخبارها الى لبنان زمن الامير بشير الشهابي .

بين ايدينا هذا الكتاب الغنيّ الذي تركه المطران يوسف الدبس عن تاريخ سوريا . فلنكتف منه بالنسخة الموجزة ، ولنراجع وقائع التاريخ اللبناني خلال الايام التي كانت تهب فيها رياح الثورة الفرنسية على الدنيا [16] .

سنرى ان هذا الوطن البديع النشيط ، القائم على ساحل الابيض المتوسط ، كان هو ايضاً في غليان دائم . والقصة واحدة : امير حاكم على لبنان ، يحتاج الى المال او

---

١٦) راجع المختارات ، من كتاب المطران الدبس ، في قسم النصوص .

يطلب منه اسياده الذين ولوه الامارة مبلغاً من المبالغ ، او هو يتبرع بتقديم المبلغ مزاحمة لامير آخر رشح نفسه لحكم لبنان ، ويأتي موعد الدفع ، فيضرب الضريبة على السكان وعلى مواسمهم ، ويبث جباته ، فيمتنع الناس ، وتندلع نيران الثورة ، الى ان يسقط الامير او يغلب الاهالي على امرهم ، فيؤدوا المال ، الا ان روحهم تبقى على حدتها وتوفزها ، غير مثلومة ولا منكسرة .

واذن ، فقد كان في اللبنانيين استعداد عقلي وقابلية روحية ، لما لفحتهم اولى انباء الثورة في البلاد المقابلة لبلادهم عبر البحر الذي يطلون على امواجه . اما كيف وصلتهم هذه الانباء ، فقد سبق ان الحملة النابليونية على مصر هي التي حملت اليهم تباشيرها .

كانت تنمو في لبنان ، اذ ذاك ، بواكير الزهرات الادبية ، التي بشرت بمطلع النهضة الحديثة وموسمها المقبل . ونخص بالذكر من تلك البواكير الكاتب الشاعر نقولا الترك .

ونستطيع ان نتصور الناس في لبنان وقد بلغتهم انباء الحملة الفرنسية على مصر ، وامتدادها الى اسوار عكا . فان اميرهم ، الامير بشير ، كان موالياً للجزار . فما يكون موقفه الآن والجزار محصور في قاعدته ؟ وهذا القائد الفرنسي بونابارته يشدد عليه الخناق . ومحتمل كل الاحتمال ان يفتح عكا ويتقدم بجيوشه الى لبنان . ولكن من بونابارته هذا ؟

ولا شك ان حديث الناس عن الفاتح الجديد الذي حط رحاله في وادي النيل ومشى يريد اكمال الفتح ، صرف الناس الى الحديث عن فرنسا وما طرأ عليها قبل ان برز بونابرت .

وهكذا وقعت الانظار على الثورة الفرنسية الكبرى والانقلاب العميق الذي احدثته في فرنسا . ولسنا نعرف بالضبط كيف اطلع اللبنانيون على حوادث الثورة ، فربما حملها اليهم التجار الذين كانت لهم صلات قديمة بين هذا الشاطىء من المتوسط والشاطىء المقابل . وربما جاءتهم اخبارها على ألسنة مسافرين كانوا في مصر وعرفوا جنود نابليون وخاطبوهم .

على اننا نعلم علم اليقين ، استنتاجاً من تاريخ الامير حيدر الشهابي ، ان اللبنانيين سمعوا ببعض حوادث الثورة في عهد باكر ، كهجوم الشعب ، سنة ١٧٩٢ [١٧] ، على القصر الملكي في باريس (التويلري) ، وعرفوا ان الشعب طلب مجلساً نيابياً « ديواناً عظيماً ومحفلاً جسيماً يكون فيه الملك الصوت الاول » ، وعرفوا كذلك ان الملك حاول ان يهرب ، فقبض عليه وسجن في حبس « الطامبل » (Temple) ، ثم اعدم ، وانفردت « المشيخة » بالتدبير . ولكن اللبنانيين اذا استندنا الى تاريخ الامير حيدر لم تخل معلوماتهم عن الثورة من اضطراب ظاهر ، وقد يكون هذا طبيعياً ومنتظراً في مثل تلك الظروف والايام .

أما رأيهم في الثورة وحوادثها ، فكلام الامير حيدر يدل حيناً على عطف ، وحيناً على تشجيب . ونقدر ان موقف كثير من الاوساط الدينية تجاه الثورة والحكم على الملك بالاعدام ، ساعد الدعايات المعارضة للثورة وغشى حقيقتها بغشاء كثيف . ولا تزال الدعايات تستغل هذه الامور وامثالها للتشنيع على الثورة الى اليوم . وطريف حقاً ان نقرأ الوصية التي اثبتها الامير حيدر على لسان لويس السادس عشر ، قبل اعدامه ، فان في اسلوبها ما يذكّر ببعض الادباء المعاصرين الذين يكتبون عن الثورة ، فيكتفون بالحديث عن « الغوغاء » و « الحزن الملكي » وما اشبه . ومفهوم ان للثورات بوادر من بطش وعنف . ويمكن القول ان كثيرين من اللبنانيين ، لما التفتوا الى الثورة الفرنسية — على بعد المسافة — غلبت على ابصارهم مشاهد العنف والبطش . وجاءت الدعايات المعارضة تضخم تلك المشاهد في ابصارهم ، وتجرد الثورة من فضائلها ، فهي « الفتنة » او « الفتنة العمياء » وكفى . وستكون لنا إلمامة ثانية بهذا الموضوع فيما بعد .

ولكن اللبنانيين منذ الساعات الاولى ساورهم شعور ادى بهم الى المقايسة بين شيئين: فظاعة الثورة والتخريب الذي احدثته من جهة ، ونهضة فرنسا من جهة اخرى وظهور رجل كنابليون على مسرح الحوادث العالمية . وبين الثورة ونابليون صلة وصل متينة ، فكيف تكون الثورة فظاعة وخراباً وتنتهي بهذه القوة الباهرة ؟

١٧) أرخ الثورة عدد من كتاب العرب بهذا التاريخ ، أي : سنة ١٧٩٢ .

ومن يقرأ مقدمة الكتاب الذي ألفه الشاعر الكاتب ، نقولا الترك ، في الثورة الفرنسية والحروب النابليونية يشعر بالشعور الغامض الحائر الذي خالج النفوس بازاء الثورة والحكم لها او عليها . يقول نقولا الترك :

« جرت عادة الاوايل ، بتأليف الكتب والرسايل ، وذكر ما يمر عليهم من الحادثات الكونية والحركات الكلية ، من قيام دولة على دولة ، وانتشار الحروب المهولة ، وما يتعلق بها من المواقع المريبة والامور الفظيعة ، فحق لنا ان نؤرخ في هذا الكتاب ، لانتفاع الطلاب ، ما حدث من التغيير والانقلاب ، مما اجرته يد الاقدار ، في هذه الامصار ، ومما آذنت العزة الالهية ، بظهور المشيخة الفرنساوية ، وما تكوّن بسببها من الفتن في البلاد الافرنجية ، وديار الرومية ، وقتل سلطانهم ، وخراب بلدانهم ، وانتشار شانهم ، وربحهم من بعد (خسرانهم) ، وذلك بظهور فرد افرادهم ، وقايد اجنادهم ، الليث الشديد ، والبطل الصنديد ، امير الجيوش — الامير بونابارته ، وذكر الحروب التي ثارت بتلك الممالك ، وحدوث الشرور والمهالك ، وقهر البلاد التي اتصلوا اليها ، والانتصارات العظيمة التي حصلوا عليها ، بانتقالهم الغريب من الغرب الى الشرق ، ومرورهم العجيب اسرع من البرق ، ونزولهم على جزيرة مالطة ، كالصواعق الهابطة ، وفتوحهم ثغر الاسكندرية ، واستيلائهم على الاقطار المصرية ، وذكر ما تم لهم من التمليك ، في حروبهم مع الغز والمماليك ، وسيرهم على الاقطار الشامية ، ومحاصرتهم لمدينة عكا القوية ، مسكن ذلك الوزير الجبار ، المعروف باحمد باشا الجزار ، ورجوعهم الى ارض مصر ، وما تم لهم في ذلك العصر ، وكفاحهم مع الدولتين العظيمتين ، الدولة العثمانية والدولة الانكليزية ، ومصادمتهم للعساكر البرية والبحرية ... » الخ .

فاذا تأملنا هذا الكلام ، وجدنا ذكر الثورة الفرنسية مقروناً بالفتن وقتل السلطان ، (اي الملك لويس) ، وخراب البلدان . ولكن سرعان ما وجدنا المطاف يفضي بنا الى : انتشار شان الفرنسيين ، وربحهم بعد خسرانهم ، وانتصاراتهم العظيمة ، وانتقالهم الغريب من الغرب الى الشرق ، وهلمّ . وكم كان نقولا الترك موفقاً حين اتى على ذكر الثورة وقيام المشيخة الفرنساوية في جملة « الحادثات الكونية والحركات

الكلية » . فالثورة الفرنسية حقاً حادث كوني وحركة كلية وهذا من اوجز وابدع ما يقال فيها .

وكأنّ اللبنانيين ما لبثوا ان تقدموا تقدما سريعاً في فهم الثورة وحقيقة معناها . واننا لنصادف في التاريخ اللبناني ، حوالي هذا العهد ، بعض حركات وانتفاضات يعمل فيها وعي الشعب عمله الملموس ، كعاميتي انطلياس ولحفـد سنة ١٨٢٠ — ١٨٢١ ، وكالثورة على ابراهيم باشا والاحتلال المصري سنة ١٨٤٠ ، وكنخضبة طانيوس شاهين على التحكم الاقطاعي سنة ١٨٥٩ .

ويهمنا ان نلاحظ في هذا الصدد ، ان كلمة « العامية » انما هي تعريب حرفي لكلمـة « Commune » الفرنسية . وكان اللبنانيون يشكلون العاميـات ، في مناسبات خاصة ، للامتناع من دفع الضرائب ، كما وقع في عاميتي انطلياس ولحفـد اذ طلب عبد الله باشا الوالي العثماني في عكا مبلغاً مالياً من الامـير بشير ، ففرضه الامير على اللبنانيين وبث الجباة لجمعه ، فكانت عاميتا انطلياس ولحفد . ولسنا نعلم هل كان اللبنانيون متأثرين في عامياتهم بشيء من الثورة الفرنسية .

ولكننا نعلم علماً لا يشوبه الظن ان اللبنانيين في المنشور الذي اذاعوه سنة ١٨٤٠ م يدعون فيـه الى الثورة على ابراهيم باشا ، ضربوا للشعب مثلا من البأس والثبـات الفرنسي في القتال . يقول المنشور :

فليرقد بسلام رفات اخواننا (يقصد الحورانيين وكانوا قد ثاروا على الحكومـة المصرية) الذين ماتوا في سبيل الحرية ، فانهم ضاهوا بشجاعتهم الفرنسيين الذين عندما هُددوا بالاستئصال ، اذا لم يستسلموا ، فضّلوا الموت فخاضوا غمرات الوغى وقتلوا ١٥٠ الف رجلٍ . فهذا ايها الاخوان حادث تاريخي ، يجب ان لا يذهلكم ، فان مواطنينا الذين قاتلوا في حوران كانوا قليلي العدد ، ومع ضعف وسائلهم كما تعلمون قد فاقوا الفرنسيين [١٨] .

ولسنا نعرف بالضبط الحادثة التي يشير اليها المنشور في التاريخ الفرنسي . عـلى اننا نرجح انها تلك الوثبة الجبارة التي وثبها الباريسيون ايام الثورة الكبرى ، حـين

١٨) نقلا عن المحررات السياسية ، للخازنيين ، جزء ١ .

بعث الدوق دي برونشفيك البروسي ، يتهـددهم بسحقهم وبمحق عاصمتهم اذا مسّوا الملك وقصره ، فردوا عليه بمحاصرة قصر التويلري وافتتاحه في ١٠ آب سنة ١٧٩٢، واعتقلوا الملك ، وصادموا جيش التـدخل الاجنبي ، وظفروا به في معركـة فالمي الشهيرة .

اما حركة طانيوس شاهين ، فليس في اخبارها اشارة صريحة الى تقاليـد فرنسا الثورية ، عـلى ان في مخطوطة انطون ضاهر العقيقي [١٩] التي تحدث فيها عن هـذه الحركة ، ذكراً لشكل السلطة التي كان يستند اليها طانيوس شاهين اذ كان « يقول بقوة الحكومـة الجمهورية » . ويدعو صاحب المخطوطة طانيوس شاهين وجماعتـه « الجمهور » . ويغلب على الظن ان كلمـة « الجمهورية » و « الجمهور » ، بالمعـنى السياسي ، عرفها اللبنانيون بتأثير من الثورة الفرنسية الكبرى . وقـد رأينا ان اول منشور اذاعه نابليون على المصريين ، يحمل في فاتحته هذه العبـارة : « من طرف الجمهور الفرنساوي المبني على الحرية . »

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن مجاري الثورة الفرنسية الى الشرق العربي من طريق مصر وفلسطين ولبنان . فينبغي لنا ان نحوّل النظر منذ الآن شطر الشمال ، شطر البلقان وتركيا ، وكانت هي والشرق العربي داخلة جميعها في نطاق الامبراطورية العثمانية الضخمة .

ومعلوم ان ريحاً من الثورة الفرنسية مـا لبثت ان هبت من غرب اوروبا على البلقان ، في شرقها ، فساعدت على ايقاد لهيب من الثورات الوطنية الاستقلالية على الحكم العثماني . وكانت ابعد هذه الثورات صدى في الشرق العربي ثورة اليونان التي حررتهم ، بعد نضال طويل دام من سنة ١٨٢٧ الى ١٨٢٩ . ونفذت لفحات من ريح الثورة الفرنسية الى صميم الامبراطورية العثمانية وقاعدة السلطنة .

وغني عن البيان ان الامبراطورية العثمانية كانت اذ ذاك تحرك رجـلًا للهبوط في سلم التاريخ . وقد بدأت طلائع فيها من اهل العقول النيرة تشعر بوجوب الاصلاح . والسلطان سليم الثالث الذي ولي الحكم سنة ١٧٨٩ ، وهي اولى سني عهد الثورة ،

---

١٩) نشر هذه المخطوطة وعلق عليها الاستاذ يوسف يزبك سنة ١٩٣٨ .

ما لبث ان احس بضرورة شيء من التعديل والتبديل ، ولكنه قصر جهده على الجيش وكان كثير من اصلاحاته مظهرياً . ومع ذلك فقد شق عليه جيش الانكشارية عصا الطاعة ، وخلعوه ، ثم قتلوه ، والغوا ما سماه « النظام الجديد » . وبالطبع ان الثورة الفرنسية وحوادثها ومبادئها حملت الاوساط الرسمية العثمانية فوراً على اشمئزاز وامتعاض شديدين . وعاطف باشا الذي صادف ان كان رئيس الكتاب (وزير الخارجية) ايام السلطان سليم الثالث ، علق على الثورة الفرنسية بما يلي :

« ان جان جاك روسو وغيره من مشاهير الزنادقة والدهريين قد قاموا بتأليف الكتب الالحادية المفسدة في سب الانبياء وإبطال الاديان وذم الملوك والاشراف ، ونراهم في هذه الكتب يميلون الى التهكم ، ويستخدمون الفاظ العوام واساليبهم حتى يفهم منهم الناس ويتذوقوا طعم المساواة والجمهورية ... وهم الذين دعوا الى الغاء اصول الالتزام (اي : نظام الاقطاع) الذي يعتبر اساس كل دولة (!) ومدار ارتباطها ونظامها . ثم حرضوا على الالحاد ونبذ الدين والشرع والمذاهب ، وبذلك مهدوا لانقلاب سكان فرنسا الى هيئة البهائم . وليت الامر وقف بهم عند هذا الحد ، بل انهم تجاوزوا ذلك ، فقد وجدوا في كل مكان اشياعاً مماثلين لهم ترجموا بيانهم المفعم بالطغيان والمسمى بـ« حقوق الانسان » الى جميع اللغات ونشروه بين عامة الامم والملل التي كانوا يحرضونها فيه على حكامها [٢٠] . »

غير ان الطلائع الذين المعنا الى ذكرهم ، من اهل العقول النيرة ، في الامبراطورية العثمانية لم يكونوا ليوافقوا عاطف باشا ونظراءه على مثل هذه الاحكام ، والآراء التي تجري مجرى التهم الباطلة . ولم يتحاشوا ان يسددوا سهام نقدهم الى الحكم السلطاني المطلق ويطالبوا بالدستور . وما زال عددهم يتزايد وتأثيرهم ينمو حتى كانت حركة مدحت باشا ودستوره ، ثم الرجعة الحميدية (نسبة الى عبد الحميد) ثم حركة تركيا الفتاة والانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ .

---

٢٠) نقلناه عن الدكتور كامل عياد في مقال له : الثورة الفرنسية والشرق ، نشرته الطليعة جزء ٧ ، سنة خامسة .

ولا يحتاج الى قول : ان الحركة الدستورية العثمانية من مدحت باشا [٢١] الى شباب تركيا الفتاة [٢٢] بل الى الانقلاب الكمالي ، تأثرت بالثورة الفرنسية ومبادىء مفكريها تأثراً واضحاً . ولقد عرف الشرق العثماني والعربي ايام عبد الحميد قافلة كبيرة من احرار الفكر استلهموا فرنسا الثائرة واعلام ادبائها الثائرين وهاجروا الى الارض الفرنسية ، ونقلوا آثاراً فرنسية [٢٣] من نتاج العقول الحرة ، وكانت هجرتهم وما نقلوه من المجاري البارزة التي سلكتها الثورة الى الشرق .

ولكن هذا كله يدخل بنا في فصل جديد ، كثير شعاب الموضوع ، طويل الشقة .

---

٢١) كان تأثر مدحت باشا بالتقاليد الفرنسية صريحاً ومشهورا ، حتى انه لما قبض عليه للمحاكمة ، اخرج مستنطقه راغب بك مكتوبين باللغة الفرنسية من مظروفين وقال له : ما قولك في هذين ؟ (راجع كتاب محاكمة مدحت باشا تعريب يوسف كمال حتاته) .

٢٢) نرى جرجي زيدان يشير الى تأثر شباب تركيا الفتاة (جمعية الاتحاد والترقي) بمبادىء الثورة الفرنسية اشارة جلية حين يجعل عزت باشا في رواية « الانقلاب العثماني » يقول لرامز الكاتب وهو يستنطقه في السجن : « قد اندفعت بتيار الافكار الفرنجية التي يبثها الاعداء باسم الدستور والحرية ... من هم هؤلاء المؤسسون ؟ اظنهم بعض المتفرنجين الذين كانوا في باريس او جنيف ؟ »

٢٣) نخص بالذكر كتاب « شرائط الاجتماع » لروسو ، نقله الى التركية الاديب التركي الكبير محمد نامق كمال ، فعرفه كثير من الادباء العرب الذين كانوا لا يحسنون غير التركية من اللغات الاجنبية . اما التسمية « شرائط الاجتماع » فهكذا نقلها جرجي زيدان في فصله عن محمد نامق في « مشاهير الشرق » ، والمقصود طبعاً Le Contrat Social .

الأدباء والمفكرون العرب أمام الثورة

١ — عرض عام

... والحقيقة هذه هي : ان الانسان لا يفلح ولا يسعد ولا يرتقي الا بممارسة حقوقه الطبيعية ، وان الامم لا تنشأ الا بنشوء افرادها ، وان الحكومات الحرة لا تقوم الا بشرائع عادلة تسنها المجالس النيابية لا باوامر تصدرها الملوك والسلاطين . واول حقوق الانسان : الحرية ، حرية الفكر وحرية القول وحرية العمل . واول اسباب الرقي في الامم : الحرية الاجتماعية والحرية السياسية والحرية الدينية . واول دلائل الحياة الحرة الراقية ان يتمتع افراد الامة على السواء بهذه الحقوق الطبيعية ، فيسعون دائماً في تعزيزها ، وينهضون للدفاع عنها عندما تقيد او تمتهن . ومن اكبر دعائم الحكومات الحرة المستقلة قانون يكفل لشعبها هذه الحقوق الاولية ويوجب عليهم الدفاع عنها يوم ينهض عليها الظالمون ويحاولون قتلها .

امين الريحاني في « الريحانيات »

ها نحن في زمن السلطان عبد الحميد الثاني !

وواضح ان السلالة العثمانية كانت تأخذ باسباب « الحكم المطلق » وتستند الى حق الملوك الالهي شأن غيرها من السلالات المالكة القديمة [1] .

وكان عبد الحميد الذي قبل الدستور ، اول الامر ، شديد النزعة الى الحكم المطلق يريد حصر السلطة بيده ، وقد فعل . فباتت تكال له ألقاب التفخيم

(١) ذكر جرجي زيدان في « مختاراته » ان السلطان سليمان القانوني ارسل الى فرنسيس الاول ملك فرنسا كتاباً هذه فاتحته : « انا سلطان السلاطين وملك الملوك وواهب الاكاليل لملوك العالم ، ظل الله على الارض ... »

والتمجيد ، فهو « ظله (ظل الله) الاكرم وخليفته الاعظم [٢] . » وهو « وارث الانبياء بلا امتنان ، وخلاصة بني عثمان . »

ولعلنا نحسن صنعاً اذا وقفنا قليلاً لنجس تيار الفكر السياسي الذي كان يبيحه عبد الحميد ، فان هذا ليزيدنا فهماً لتيار الفكر السياسي الذي انطلق بدافع من الثورة الفرنسية ، ويعيننا على فهم الاصطدام القوي الذي وقع فيما بعد بين التيارين .

ولعلنا لا نجد احداً يمثل الفكر السياسي الحميدي « مفلسفاً » كما يمثله لبناني من ادباء ذلك العهد ، هو الدكتور الظريف شاكر الخوري . والارجح ان الدكتور شاكر كان لا يشعر بانه يبث « فلسفة » السياسة الحميدية ، بل الارجح انه كان لا يريد ان يبثها ، الا انه مع ذلك كان يكره جلب الاذى لنفسه ، و« المسكين » — في نظره — « من تقدمت افكاره عصرها ، فهو الذي يكون الضحية الاولى . » وما اغناه عن ان « يفحص كلف الشمس بالعين العارية ويعرض نفسه للعمى بلا فائدة . » وباختصار « اكرم رئيسك ولو كان حماراً [٣] . »

مع ان الدكتور في خاتمة كتابه « مجمع المسرات » يعلن ان مؤلفه « حبل به في الظلم وولد في الحرية » لان صدوره مطبوعاً سنة ١٩٠٨ وافق سقوط عبد الحميد واعلان الدستور العثماني ، وبهذه الكلمة نفّس عن صدر متضايق كان ينفس عنه قبلا بلذع التوريات والنكات .

وفي الكتاب فصل عن « ضرورة السياسة للهيأة الاجتماعية » كتب في العهد الحميدي ، وهو الفصل الذي يساير فيه الدكتور شاكر تيار الفكر السياسي الحميدي « مفلسفاً » مجلبباً بجلباب من « المنطق » و« القياس » فيثبت الدكتور اولا ، ضرورة « القوانين التي تعطي كل ذي حق حقه » ثم يثبت ضرورة « اناس مخصوصين يديرون حركة القوانين ويسيرون بموجبها وهؤلاء هم الساسة . » اما القوانين فقسمان : قسم يتعلق « بحقوق الافراد بين بعضهم » ، وقسم يتعلق « بحقوق الهيئة عموماً مع هيئة اخرى » ولا بد للفئة المخصوصة التي تتولى ادارة القوانين من ان « يرأسها شخص تعطى له السلطة »

٢) مجمع المسرات لشاكر الخوري .

٣) جميع هذه المقتطفات من مقدمة كتاب مجمع المسرات للدكتور شاكر الخوري .

ويكون له مساعدون وقوة تنفيذ هي الجيش . ولئلا تخرب الجمعية « حصر الباري السلطة بيد واحد . »

ومن ثم يقابل الدكتور بين الحكومة والجسم ، مقابلة طريفة لا نلبث اذا حققنا فيها النظر ان نجد ان الحكومة هي الدولة العثمانية الحميدية ، شبهها الكاتب بالجسم الانساني ليثبت موافقتها للخلق الطبيعي .

فـ (الرأس هو الملك) . والرأس عليه « مدار الحياة » وهو « مركز العقل يميز النافع من الضار . » ولذلك « نرى هذا التحفظ الكلي للرأس » اذ « تحيطه الحصون من كل ناحية . » ثم (الرئة) التي هي (الصدر الاعظم) ووجه الشبه ان الرئة تدخل الهواء الجديد وتنقي الدم ، والصدر الاعظم وظيفته ان يدخل كل شي نافع لبلاده . ثم (القلب) وهو (وزير المالية) ، القلب يوزع الدم في الجسم ووزير المالية يسهر على الامداد بالنفقة . فالدم هو المال .

اما المعدة (فهي الخزينة) .

واما الاعصاب فهم الولاة ، صلة الوصل بين الملك الذي هو الرأس وبين البلاد . ثم تأتي (الاطراف) ، وهؤلاء هم (العسكرية) ، و « الاطراف العليا تشبه الخيالة ، والسفلى المشاة » ، و « كلها تتحرك بامر الملك . » و « كما ان الاطراف تقنع بالغذاء القليل كذلك العسكرية التي عليها مدار شرف المملكة وحمايتها فتكتفي بغذائها فقط ، لان ليس لها سلطة الادارة . فالقساوة على الاطراف كالقساوة على العساكر ، لان الاطراف – لتعودها مس الارض – فيقسو جلدها ويصير قليل الاحساس كالعسكر الذين يعتادون على الشغل والتعب والحر والبرد ولا يجوز لهم الترفه لانه يضرهم ! »

ثم تأتي الجواس ، التي هي السفراء .

اما الافرازات التي يلفظها الجسم فكالاشخاص المفسدين والمقلقين في المملكة . . واخراج هذه الافرازات وظيفة من وظائف (العسكرية) . ويخلص الدكتور الى النتائج الآتية :

« الوظائف مختلفة في الاهمية ، ولكل عضو وظيفة . ويكون مؤلفاً بهيئة تجعله قادراً على اتمام هذه الوظيفة . وكلما كثرت اهمية العضو كان اكثر كمالاً وتركيباً .

وهذا التفضيل سنّة من الخالق ليس من العضو ذاته . وليس من الحكمة ان يتساوى الرأس والقدم لانهما لو تساويا لاختل النظام وخربت الحياة اذ لا يمكن القدم ان يقوم بواجبات الرأس ، ولا لهذا ان يخلف ذاك . ولكل منهما وظيفة خصوصية يتكافى او يتجازى حسب ضرورتها وحاجة الحياة اليها . وهذا التمييز هو عين العدل . مثلاً يجب للرأس بتغذيته خمسون غرام من الدم وللقدم يلزم عشرة غرامات . فيلزم ان يعطى الخمسون غرام من الدم اولا للرأس ، اذ بدونه لا تقوم قائمة للقدم . ولذا ترى ان الدم اول ما يتوزع للرأس ! »

وبعد ذلك يرش الدكتور على هذا « المعجون الحميدي » شيئاً من الكلام العسلي « اساس السياسة الحق واساس الاجتماع المحافظة على الحقوق . »

ولسنا بحاجة الى ان نشرح للقارىء كيف ان الدكتور يبث الفكر السياسي الحميدي « مفلسفاً » ومجلبباً بجلباب من المنطق والقياس ، فهو يقرر ضرورة حصر السلطة في فرد ، ويدعو كل عضو الى الاهتمام بوظيفته ، والى الرضى بقسطه من الدم (اي من المكافأة على عمله) ، فيكون محصل كلامه توطيد الاوضاع الحميدية . ومما يسترعي انتباهنا بوجه خاص ، رأيه في وظيفة الجنود . واذا ذكرنا ان الاوتقراطية الحميدية تلقت ضربتها فيما بعد من الجيش ، ظهر لنا معنى دروس الدكتور شاكر الخاصة بالعسكرية .

وغني عن البيان ان مقابلة الدكتور بين الحكومة والجسم لا تصمد للنظر ، والمثل الالماني يقول : كل تشبيه اعرج . وتشبيهه هذا كسيح لا اعرج وحسب ! ولحة تعرّفنا ان الملك ، للهيئة او الجمعية ، ليس كالرأس للجسم . فالرأس اذا قطع هلك الجسم . وقد قطعت رؤوس ملوك فلم تهلك الهيئة بل زكت عافيتها وربت صحتها .

وكان طبيعياً ان يتصدى لهذه « الفلسفة » السياسية الحميدية من يخالفها . بل ان هذه « الفلسفة » ، وهي مجلى من مجالي التعبير عن مشروعية الحكم المطلق ، اخذت بها الاوتوقراطية العثمانية قديماً . ووجدت طليعة من المعارضين ايام السلطان عبد الحميد بل قبله ايضاً . وكان عبد الحميد نفسه على جانب من الاستنارة ، فعمد الى شيء

من الاصلاح في نظام الحكم ، فادخل وزيره رشيد باشا « القانون المسمى بالتنظيمات الخيرية للمساواة بين رعايا الدولة المنسوبين الى غير العنصر الحاكم . » ولم يلبث عبد المجيد ان ايد التنظيمات الخيرية بخط يعرف بخط الكولخانة . وسارت الدولة العثمانية خطى نحو الملكية المقيدة .

فلما ولي العرش السلطان عبد العزيز « ساقته عظمة الملك الى حب الاثرة والاستبداد ورأى اللذة في الانفراد بالاحكام ، فلم يجسر احد على التلفظ بكلمة واحدة في امر الاصلاح . فقامت مقام التنظيمات وخط الكولخانة والقوانين الجديدة ادارة استبدادية . » و « ظن عبد العزيز الحكومة غير الامة . وبذر اموال الدولة في غير طائل كشراء الاسلحة واعداد الجنود لمقابلة الشعب بقوة مكونة من ابنائه [٤] » وحارب الوزيرين المستنيرين عالي باشا وفؤاد باشا [٥] .

وفي هذا العهد اشرق نجم مدحت باشا ، وهو احد الاعلام الساطعين في الكفاح من اجل الحكم الشوري في الشرق . وكان يتجه الى الغرب بنظره الاصلاحي . وكانت الثقافة الفرنسية صلة الوصل بينه وبين الغرب . وكان عميق التأثر بمبادىء الثورة الفرنسية ، الا انه في الاغلب كان يرمي الى ملكية مقيدة بدستور ديموقراطي عصري لا الى جمهورية ، وان يكن ظهر من خصومه من « يتهمه » بالجمهورية وتفكيك الدولة العثمانية وحب الاستقلال ببعض اجزائها .

---

٤) هذه المستندات من كتاب محاكمة مدحت باشا ، تعريب حناته .

٥) «كان هذان الوزيران قد اعلنا قانون الولايات ، وهو يوجب انتخاب مجلس عمومي في كل سنة لمشاركة الوالي في اعماله . وانتخبا اعضاء مجلس شورى الدولة من الولايات . فقال السلطان عبد العزيز في نفسه انهما سيتدرجان الى احداث مجلس نيابي . وكان قد رأى اثناء زيارته في اوروبا ، الخطوط الحديدية والمصانع والطرق فشوقه الرجلان الى احداث مثلها في الاستانة ، ولكنه لم يسمع شيئاً مما قالاه ، بل كان جل مقصده وقصارى جهده احداث مصانع ومتاجر باسم خزينته الخاصة لا باسم الشعب . فتذمر الشعب وكثر اللغط ورأى السلطان ان في بقاء عالي باشا وفؤاد باشا ما يخالف مشربه لانهما لم يروجا غايته ولا خدما شخصه وروجا مطالبه . فنفر منهما نفور الظبي من حبالة القانص . » (كتاب محاكمة مدحت باشا) .

ووفق مدحت باشا واعوانه الى خلع السلطان عبد العزيز وتوليـة السلطان مراد ليحكم بموجب دستور تقره الامة . ولكن عبد العزيز انتحر بمقراض لشدة غيظه . ولم يطل حكم مراد ، فعهد بالسلطنة الى عبد الحميد ، والنيـة لا تزال معقودة على اعلان الدستور . واعلن الدستور ، الا ان عبد الحميد ما لبث ان اتهم مدحت واعوانه بقتل السلطان عبد العزيز ، ودبر لهم محاكمة ، انتهت باعدام مدحت . وهكذا استطاع السلطان عبد الحميد ان يتـابع سيرة الاوتوقراطية العثمانية ، واستبد بالامور وبالغ في استبداده .

وقد سبق لنـا ان رأينا تيار الفكر السياسي الحميدي كما مثله الدكتور شاكر الخوري « متفلسفاً » ومجلبباً بجلباب من « المنطق » و « القياس » . فما هو التيـار الفكري المعارض الذي كان يمثله مدحت باشا واعوانه ومفكرونا وادباؤنا الأولى نزعوا نزعته ، متأثرين بالثورة الفرنسية ومبادئها ؟

من اقدم آثار هذا العهد كتاب بعنوان : محاكمة مدحت باشا ، عرّبه يوسف كمال حتاته ، وصدر تعريبه في مصر . وفيه نقرأ ما يوجهنـا الى فهم مذهب الاحرار المعارضين لعبد الحميد ونلمس مدى تأثرهم بالثورة الفرنسية ومفكريها . يقول الكتاب :

« « الحرية تحدد للانسان حدوده ، وتعرفه موقفه في الهيئة الاجتماعيـة ، وهي التي تفرق بين الانسان وبين الحيوان ، وهي التي اوصلت الحكومات المتمدنة الى درجـة الرقي ...

« خلق الله الانسان وخلق اعضاءه فهو مختار في استعمالها ، حر في تصرفاته وحركاته وسكناته ، له حق العمل كما يريد والتوجه الى اي مكان يرى فيه مصلحة نفسه ، وهذه هي الحرية الشخصية . ومع هذا فالانسان يميز بواسطة العقـل النافع والضار والحسن والقبيح . والعقل يختلف بين النـاس ولا يقدر الانسان على الوقوف عند حده وعدم التجاوز على حقوق الغير ، ولذلك فقـد وجدت القوانين لوضع حدود للبشر وتعيين حقوق افراد الشعب ... » الخ .

ولقد اثبتنا في باب النصوص ، من كتابنا هذا ، مقطوعة طويلة نقلناها عن كتاب محاكمـة مدحت باشا . فاذا راجعها القارىء — ولا بد له من مراجعتها — وجدهـا

اشبه بمنهج كامل كان اساساً فكرياً بنى عليه اعلام مفكرينا وادبائنا العرب . فكما كثر الالتفات في هذه المقطوعة (التركية) الى « العدل ، والمساواة ، والحرية ، والشعب ، والحقوق ، ومونتسكيو » — وفي ذلك ما فيه من اثر بيّن للثورة الفرنسية ومبادئها — كثر كذلك التفات اعلام مفكرينا وادبائنا الى هذه القيم والمذاهب في الحكم والى « مونتسكيو » و « روسو » والثورة الفرنسية ومبادئها .

ولسنا نظن انفسنا بحاجة الى المعارضة بين التيار الفكري السياسي الذي تمثله تلك المقطوعة ، والتيار الفكري السياسي الحميدي كما عرفناه في مقال الدكتور شاكر الخوري . فان نقاط الخلاف والتناقض بين التيارين ظاهرة للقارىء .

ويلاحظ من المقطوعة ايضاً ، ان الاعلام من مفكرينا وادبائنا لم يكتفوا بالنظر الى الثورة الفرنسية ، بل نظروا معها الى الاسلام ومبادئه ، فوجدوه يؤيد مطامحهم في الاصلاح والشورى والدستور . (وهذه شعبة من الموضوع سنعالجها معالجة خاصة) .

واندفعت هجمة فكرية عنيفة على الاستبداد الحميدي ، في سبيل الحرية والدستور والاصلاح . فكان الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ ، ولكن بقوة الجيش . واستمرت اليقظة العربية الفكرية ، وقد كانت — وما برحت — للثورة الفرنسية يد قوية فيها .

وسبيلنا في هذا الفصل ان نعرض لقافلة من كتّابنا ومفكرينا الذين تأثروا بالثورة الفرنسية ومبادىء اعلامها ، وسنرى ان القافلة عظيمة حقاً تكاد لا تخلو من اسم كاتب او مفكر عربي شهير . وغني عن البيان اننا سنقتصر على اسماء الذين كان تأثرهم واضح السمة عميق الطابع .

وليكن ابتداؤنا بالسيد جمال الدين الافغاني (١٢٥٤ هـ — ١٣١٤ هـ ، ١٨٣٩ م — ١٨٩٧ م) . وهو وان لم يكن عربياً فقد اتصلت حياته اتصالا وثيقاً بالشرق العربي ، واتقن اللغة العربية ، وله فيها آثار ادبية (كلمات وخطب مقطعة ورسائل) ، تنزله منزلة الاديب العربي .

ولسنا نعلم كيف بدأ اطلاع الافغاني على الثورة الفرنسية ومبادئها ، ولكننا نعلم انه انضم الى الحركة الماسونية في مصر ايام الخديوي توفيق ، والتحق بالمحفل

الاسكتلندي ظناً منه ان الماسونية حركة تحريرية . ولا يزال هناك اعتقاد الى اليوم بان الماسونية لها يد قوية في كل الثورات ، ومنها الثورة الفرنسية . على ان التحقيق التاريخي ، كما يقول زيدان [٦] ، دل على ان هذا الظن لا يستند الى اساس . وبالفعل اصطدم الافغاني بخيبة مرة لما رأى ان المحفل الاسكتلندي الذي التحق به ، جعل من شعاراته : « الماسونية لا دخل لها في السياسة ! » فألقى كلمات نرويها كما حفظها لنا السيد محمد باشا المخزومي ، مؤلف كتاب « خاطرات جمال الدين الافغاني الحسيني » اوسع كتاب في موضوعه . قال الافغاني :

« اذا لم تدخل الماسونية في سياسة الكون — وفيها كل بناء حر ، واذا آلات البناء التي بيدها لم تستعمل لهدم القديم ولتشييد معالم حرية صحيحة واخاء ومساواة ، وتدك صروح الظلم والعتو والجور ، فلا حملت يد الاحرار مطرقة حجارة ، ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة ... .

« اول ما شوقني للعمل في بناية الاحرار عنوان كبير خطير — حرية ، مساواة ، اخاء — ، غرض منفعة الانسان ، سعي وراء دك صروح الظلم ، تشييد معالم العدل المطلق — فحصل لي من كل هذا وصف للماسونية وهو همة للعمل وعزة نفس وشمم واحتقار الحياة في سبيل مقاومة الظلم . »

وظاهر ما في هذا الكلام من تأثر بشعارات الثورة الفرنسية . ولما لم يرَ السيد الافغاني أن اشتراكه في المحفل الاسكتلندي يهيء له ما يريد من النشاط والتوجيه السياسي ، انشأ محفلاً وطنياً تابعاً للشرق الفرنسي ، وركز جهوده على المطالبة بدستور ومجلس شوري ، مستنداً الى ما تأثر به من شعارات الثورة الفرنسية ومبادئها ، مستمداً من روح الشورى في الاسلام ، مقتنعاً بان الاصلاح الداخلي في طريقة الحكم يقوي الشرق في ثباته للغرب الزاحف عليه . وترتبط سيرة جمال الدين الافغاني بثلاث حركات شورية في الشرق هي : الحركة التركية الدستورية ، والحركة المصرية النيابية في عهد الخديوي توفيق وبعده ، والحركة الايرانية النيابية ايام ناصر الدين شاه .

٦) في كتابه عن الماسونية . راجع فصله : الماسونية والثورة الفرنسية .

ويلاحظ ان باريس ، وما وراءها من تقاليد ثورية [٧] كانت جواً استأنس به جمال الدين الافغاني فـأصدر من مدينة ثورة ١٧٨٩ مجلته « العروة الوثقى » بمساهمة صديقه الشيخ محمد عبده . ومع ان هذه المجلة لم ينتشر منها الا ثمانية عشر عدداً ، بين ١٣ آذار و١٦ تشرين الاول سنة ١٨٨٤ ، فان صدى صوتها كان عظيماً في تنبيه الافكار في الشرق العربي عامة .

ويجد القارىء في باب النصوص من هذا الكتاب ، طائفة مختارة من اقوال الافغاني تشف جميعها عن تأثر واضح بثورة فرنسا ومبادىء مفكريها الاحرار .

وينتقل بنا القول الى مفكر آخر من طلائع مفكرينا : فرنسيس فتح الله مراش الحلبي ، وقع في يدنا منه كتابان : « غابة الحق » (طبع في بيروت سنة ١٨٨١) و « مشهد الاحوال » (طبع في بيروت سنـة ١٨٨٣) . كان فرنسيس مراش عميق التأثر بمـا بلغته فرنسا من التقدم في صحة اساليب الحكم وروعة المظاهر العمرانية ، وكان شديد التفاؤل بتيـار الاصلاح الذي دبّ دبيبه ايام السلطان عبد العزيز . فهو في كتابه : « غابة الحق » قوي الايمان بفوز العدل والحرية والعلم والعقل ، قوي الدعوة الى تأمل الطبيعة واحكامهـا وعبرها ، كثير التحدث عن « نزاهة الطبع الانساني » و « حرية النظرة [٨] . »

على انه في كتابه : « مشهد الاحوال » الذي انشأه ، او انشأ معظمه في غربته في باريس ، ميّال الى التشاؤم ، وان كان اكثر تشاؤمه معلقاً بسوء حظه الشخصي . والارجح انه لم يفقد يوماً ايمانه بفوز العدل والحرية والعقل ، الا انه مـا لبث ان أدرك ان موجة الاصلاح التي لمسها ايام عبد العزيز ضعيفة سطحية ، فلا بد من امد طويل قبل اندفاع موجة اصلاحية قوية عميقة النبع كما يريدها .

ولئن يكن فرنسيس فتح الله مراش لم يذكر الثورة الفرنسية ومبادئها ذكراً صريحاً

---

٧) من اقوال جمال الدين : الدعوة لطلب الحرية في فرنسا – وهي دعوة حق ومطالب حق – كم صادف اهلوها من المحن وكيف استحر فيهم القتل وسالت الدماء ، واليوم فالعالم يقدرهم ولسوف يقتدي بهم – خاطرات جمال الدين الافغاني ص ٢١١ – ٢١٢ .

٨) وفي هذا ما يذكر بروسو .

فان وشائج الارتباط بينه وبينها ، وبين اعلامها المفكرين ، صريحة ملموسة ولا سيما في كتابه « غابة الحق » .

وانه لكتاب فريد في نوعه ، قص فيه المؤلف قصة حلم تراءى له ، واودعه آماله وأمانيه في مصير بلاده والدنيا . يدور هـذا الحلم الرمزي العجيب على حرب نشبت بين « مملكة الحرية » و « العبودية » ، فظفرت فيهـا مملكة الحرية ، ووقع ملك العبودية في الاسر ، واقيمت محكمة ، اجتمع فيها ملك الحرية وامرأته « ملكة الحكمة » ورئيس جنده « قائد جيش التمدن » ووزيره وزير « محبة السلام » ، وسيق اليها ملك العبودية واعوانه ليحاكموا ، وكان « الفيلسوف » يمثل دوره الاساسي في توجيه المحاكمة وتوضيح طرق التسوية والاصلاح .

ولما كان اجتزاء الاقوال القصيرة من كتاب « غابة الحق » لا يفي بغرضنا ، فقد آثرنا ان يرجع القارىء الى باب النصوص من مؤلفنا هذا ، ففيه فصول اخترناها لاظهار اثر الثورة الفرنسية ومبادئها في كاتب يعد باكورة زكية من موسم نهضتنـا الفكرية والادبية .

ومن فرنسيس مراش ينتقل بنا الحديث الى اديب اسحق تلميذ الافغـاني وصديقه ورفيقه . وقلّ بين كتّـاب العرب ، في مطلع النهضة الحديثة ، من تصرّف بقلم وبيان كتلم اديب اسحق وبيانه . وان القـارىء ليحس بحرارة الشباب تتنفس في كلماته . ولعل الشيخ اسكندر العازار وفق الى تصوير الرجل وانصافه خير توفيق ، حين قال يؤبنه : « عاش حر الضمير فكراً وقولا وفعلاً ، ومات حر الضمير فكراً وقولاً وفعلاً . يبكيه ضمير الاحرار ، وتندبه الحرية . نشأ وطنيـاً خالصاً صحيحاً ، وعاش جندياً لاشرف الاصول واسمى الغـايات ... اي ، والانسانية ! كان للانسانية نصيراً ولاعدائها نذيراً وبالانسانية بشيراً ، فلتبكه الانسانية ! »

واديب اسحق من اعمق كتابنا صلة بالثورة الفرنسية ومبـادىء مفكريها . وله لفتات الى الثورة تملأ جميع ما سطره قلمه ، وله فلتات رائعة في وصف هذه الثورة واستنباط العبرة منها وضرب المثل بها . وفي كتاب « الدرر » (منتخبات من آثاره طبعت في بيروت سنة ١٩٠٩) رسائل بليغة بعنوان « نفثة مصدور » خطهـا ،

كما يقول ، في فرنسا « تحت سماء الانصاف على ارض الراحـــة ، بين اهل الحرية ، يسمع ألحـــاناً في مجالس العدل ، فيذكر انين قومه في مجالس الظلمة وتحت سيـــاط الجلادين فينوح نوح الثاكلات ، ويرى علائم النعمة في معاهد المساواة فيذكر شقـــاء سربه في ربوع الظلمة فيذرف الدمع ممتزجاً بسواد القلب ويكتب به اليهم ... »

وقد اثبتنا في باب النصوص من هذا الكتاب رسائله الاربع الـــتي تتعلق بالثورة الفرنسية ، وأثبتنا كذلك جزءاً من مقالته « حركة الافكار » وهي تدور في اساسها حول الثورة الفرنسيـــة وسريان روحها من الغرب الى الشرق ، كتبها لمناسبة خلـــع السلطان عبد العزيز ، وظهور حركات معارضة للشاه في بـــلاد فارس . وكثيرة هي النصوص الملائمة التي يمكن اختيارها من اديب اسحق [1] . الا اننـــا اثبتنا النصوص الرئيسيـــة التي سبق ذكرها وعززناها بمقتطفـــات قصيرة من اقواله ، واضطررنا الى الاكتفاء بذلك نظراً لضيق المجال .

ونغادر اديب اسحق الى كاتب آخر من طلائع كتّاب العرب ومفكريهم الذين ناضلوا الظلم في سبيل « قيم » ومبادىء يظهر عليها طابع من الثورة الفرنسية وآراء مفكريها . ذلك الكاتب هو عبد الله نديم الذي اضطر الى الاختفاء من ملاحقـــة السلطات عقداً كاملاً من حياته ، على اثر الثورة العرابية في مصر . وقد دوّن تيمور باشا في كتابه « اعيان القرن الثالث عشر » قصة عبـــد الله نديم واختفائه فاذا هي حقائق عجيبة كاختلاقات الخيال . ولم يترك الشيخ نديم كثيراً من الآثار ، ولا ريب ان يـــد الاضطهاد مسؤولة عن ضياع بعض روائع قلمه . الا اننا وقفنا على احدى مقالاته التي تبين ما نحن بصدده ، فاثبتناها مع النصوص . وسيرى القارىء ان عبدالله نديم يدعو ملوك الشرق الى الشورى ، ويؤيد دعوته بشاهد من الغرب ، ويعـــد بانه سيؤيدها بشواهد من القرآن الكريم في مقالة ثانية .

والى جانب عبد الله نديم ، يرتفع امامنا شخص بقامة معنوية ، فكرية ، شاهقة ، اعني عبدالرحمن الكواكبي مؤلف كتابي : « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » . وغني

[1]) نلفت انتباه القارىء الى مقالته : « الثورة » في الدرر ص ١٧٢ ، والى مقالتـــه « ١٤ تموز في باريس » ص ٣٦٢ .

عن البيـان ان الكواكبي ، كغيره من الاعلام الذين نسوق الحديث عنهم ، لم يكن نتيجة لتيار واحد ، وانما اشتركت في تكوينه تيارات منها الثورة الفرنسية ومبادئها .
وقد عرض الكواكبي في « طبـائع الاستبداد » لذكر السبيلين الرئيسيين من سبل الاصلاح – في نظره – فكان أولهما : « سبيل النبيين » وثانيهما : « سبيل الفئة التي اتبعت اثرهم » ، يعني « فئة الحكماء الذين لم يأتوا بدين جديد ولا تمسكوا بعاداة كل دين ، بل رتقوا فتوق الدهر في دينهم بما نقحوا وهذبوا وسهلوا وقربوا » . وضرب مثلا لهذه الفئة فذكر « مؤسسي جمهورية الفرنسيس » . وكان الكواكبي معجباً بيقظة الشعب الفرنسي وتوثبه الثوري ، ويرى « ان الحكومة من اي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد مـا لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها ، كما جرى في صدر الاسلام فيما نقم على عثمان بن عفان (رضي الله عنه) يوم خص بحكمه ذوي قرباه دون المسلمين ، وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة في فرنسا ، في مسائل النياشين وبناما ودريفوس . »

ويستطيع القارىء ان يرجع الى النصوص التي اخترناها للكواكبي من « طبـائع الاستبداد » واثبتناها في هذا الكتاب ، فانها اوضح دليل على عمق تأثره بثورة فرنسا واحرار مفكريها .

وينتقل بنا الكلام من الكواكبي الى الدكتور شبلي الشميل وهو فلتة زمـانه في قبول النظريات الجديدة ، في العلم والسياسة ، واعتناقها اعتناقاً مدركا واعياً . ترك الرجل مجلدين غنيين يحويان جل آثاره الادبية ، نشرتهما مجلة « المقتطف » باسم مجموعة الشميل ، وليس يهمنا منهما في هذا الكتاب الا الجزء الثاني . وطبيعي ان يكون الدكتور شبلي تأثر بالثورة الفرنسية ومبادئها ، على انه لم يقف عند حدها بل اعتبرها حادثة عالمية تؤلف مرحلة من مراحل التطور البشري الذي كان يعتقـد انه سائر نحو الاشتراكية . ويكفينا هنـا ان نثبت له هذه الكلمة في الثورة الفرنسية : « لولا تلك الثورة لما ارتقى الانسان واصطلح نوع الاحكام الى ما هما عليه الآن ، ليس في فرنسا وحدها بل في اوروبا كلها ، بل في العالم قاطبة . » وليرجع القارىء في باب النصوص ، من هذا الكتاب ، الى مقالته التي علق فيها على اضطرابات فرنسا بعد حادثة

دريفوس ، فيرى قوة اعجاب وعمق تأثر بفرنسا الثائرة ويقظة شعبها .

ومع الدكتور الشميل يعرض ذكر فرح انطون صاحب « مجلة الجامعة » . وفرح هو معرب رواية « دياس الكبير » عن الثورة الفرنسية ، طبعت ثلاثة اجزاء في مجلدين : « نهضة الاسد » و « وثبة الاسد » . وكان فرح اول الامر ، شديد الايمان بمبادىء الثورة يعتقد انها الدواء لكل داء ، ثم ضعفَ ايمانه الا انه – كما قال عن نفسه – تغذى بهذه المبادىء حتى أصبح يحرم على نفسه رشقها ولو بوردة حتى في المبادىء التي بطل اعتقاده بها . والواقع أن ارتياب فرح انطون في قيمة الثورة ناتج عن أنه لم يرها ، كما رآها الشميل ، مرحلة من مراحل التطور البشري ، واعتبرها – وهي التي حدثت في اواخر القرن الثامن عشر – دواء لكل داء في نظام الهيئة الانسانية ولو بعد مضي قرن خطا فيه التقدم خطى جبارة ، وجدت مشاكل تستدعي اصلاحات جديدة . ولنا فيما بعد رجعة الى هذا الموضوع .

وقد كتب فرح انطون كلمة تمهيد للطبعة الثانية ، من تعريب رواية « دياس » ، اثبتنا قسماً منها في باب النصوص ، لانها تدل على مدى تأثره بالثورة الفرنسية وصلة الانقلاب العثماني بها ، وضغط العصر الحميدي على الفكر وحريته .

وما كان لنا ان ننسى في هذا العرض ، الزعيم المصري الوطني ، مصطفى كامل ، وهو الذي نشر كثيراً من مبادىء ثورة فرنسا وآراء أحرارها . ولقد قضى مصطفى كامل ردحاً من حياته في باريس ، ويكاد لا يخلو كتاب في سيرته من الصورة التي عرضها في شوارع باريس ، تمثل مصر فتاة مكبلة مسلوبة الارادة ، تستنجد بفرنسا لرد حريتها . ويفهم من نص العريضة التي وجهها مصطفى كامل الى فرنسا ، في سبيل اسعاف مصر ، انه انما علق امله على روح الثورة الكبرى وما رافقها من مبادىء . وفي العريضة يشيد الزعيم الوطني المصري بفرنسا « التي اعلنت حقوق الانسان » . ومفهوم ان استنجاد مصطفى كامل كان عملا سياسياً فيه كثير من السذاجة ، الا انه في الوقت نفسه يدل على عمق أثر الثورة الفرنسية في الشرق العربي ، وجمال الهالة التي احاطت بها الثورة وجه فرنسا .

ولمصطفى كامل خطب كثيرة تشف عن صلة قوية ، وعدوى بمبادىء فرنسا الثائرة .

وكان اول هدف يتوخـاه « الحزب الوطني » الذي يقوده مصطفى كامل : « اعلان مبادىء الحرية الدينية والسياسية ، وتشكيل مجلس نواب مصري وتحديد كل سلطة ». وقد اوردنا في باب النصوص مقتطفات من خطبه يستطيع القارىء مراجعتها .

وبين طلائع كتّابنـا ومفكرينا اديب ناضل الظلم ، وقاسى النفي والاضطهاد ، واتصل اتصالا روحياً عميقاً بالثورة الفرنسية واعلام المفكرين الذين اوقدوا شعلتها في الضمائر قبل أن يندلع لهب نارها في مدن فرنسا وقراها ويرسل ضوءاً كبيراً قشع ظلمة عن العالم . أردنا ولي الدين يكن ، صاحب « القلم الذي أصبح غازياً في حرب الاستبداد » كما قال عنه في كتابه « المعلوم والمجهول » . وما أشد ما يذكرنا ولي الدين بفولتير حين قـال هو لعبد الحميد « لاهزّن بقلمي أركان قصرك هزاً . » وكان متأثراً بما قاله ساخر فرنسا الساحر لملك بروسيا فردريك الكبير : « ليس لي صولجان ولكن لي يراع ! » ولقـد سالت من ولي الدين على سن قلمه كلمات قصيرة تذهب مذهب المثل ، وكلها تشف عن تأثر الثورة الفرنسية ، كقوله : « الحرية عدوة الملوك وحبيبة الشعوب ! » وكأن مشهد ثورة ، كالثورة الفرنسية ، تشب في وجه عبد الحميد لم يفارق باصرة ولي الدين . فهو ينظر الى الامة أيام عبد الحميد ويراها « اجملت الصبر حتى تنفست عن البارود .» ويرى قصر عبد الحميد وكراسي ملكه ، ثم « ما هي الا صيحة اخذتهما فتساقطت تلك اللبنات الذهبية ، وقعقعت هـاتيك العروش ، وقضي الأمر ! »

ولولي الدين رقة على باريس وحنين اليها . وما مقالته فيها ، يوم طغى عليها نهر السين سنة ١٩٠٠ فنكبها نكبة مؤلمة ، الا قصيدة ناعمة والهة . ومن ابرز مـا يشاهده اديبنا بعين الخيال ، من المدينة العظيمة « برج ايفل كأنه خطيب الحرية ! » ويجد القارىء بين النصوص المختارة في هذا الكتاب قطعة لولي الدين عن « البلبل » ، اجتزأناها من روايته « ذكران ورائف » ، وهي الرواية التي اراد بها تصوير جواسيس عبد الحميد ، وسعي الشباب الاحرار في سبيل الانعتاق من نير السلطة المطلقة المستبدة . وولي الدين متأثر في قطعته هذه التي اخترناها ، بفكرة استلهام الحرية من الطبيعة . ومعلوم انها فكرة روسوية . ويلاحظ ان بلبل ولي الدين « يترفع عن تمليق الملوك »

وهو « على ضعفه وصغره بطل الحرية ما اودع قفصاً الا ومات فيه غماً او انتحر يأساً . »

ولن ننسى ، من كبـار ادبائنا ومفكرينا الذين تأثروا بالثورة الفرنسية ، أمين الريحاني ، وقد توجنا هذا الفصل بكلمة له تنادي مناداة على صلته الواضحة الوثيقة بالثورة الفرنسية ومبادئها ، وتكاد لا تخلو صفحة من « ريحانياته » ، في اجزائها الاربعة ، من أثر من آثار ثورة فرنسا وأعلام مفكريها . ولأمين الريحاني فصل ناقش فيـه كتاب كارليل عن الثورة الفرنسية ، ودار في نقاشه حول مسألة تاريخ الثورة وقضية العنف ، فاثبتناه في باب النصوص من هـذا الكتاب ، لقيمته . والذي يقرأ القصيدة المنثورة التي كتبها الريحاني في الثورة ، اطلاقاً ، ترتسم في ذهنه صورة راسخة من حياة هذا المفكر الجريء ، وهو لا يفتأ يذكر الظالمين ويردد قوله : « الم نقص عليهم قصص باريس ؟ »

ويقودنا الريحاني الى جبران خليل جبران . وقد تأثر هو الآخر بفرنسا الثائرة (١٠) واحرار مفكريها تأثراً عميقاً ، الا انه غير ظاهر فيه ظهوره في الريحاني . والارجح ان ذلك راجع الى ان جبران تعاطى السياسة قليلاً ، وطرأت عليـه طوارىء افكار في القسم الاخير من حياته ، فلان العصب النضالي في ادبه كما لم يلن في الريحاني ، وذهب مذهب الاكتفاء بتأملات نفسية حلوة مخدرة . على انه في مطلع سيرته الادبية اعرب عن ثورية غاضبة ، متسمة بسمات بارزة من الثورة الفرنسية ومبادئهـا . ويجب بعض ان ينسوا تلك البواكير القوية التي انتجتها يراعة جبران في اول امره كـ« الاجنحة المتكسرة » و « الارواح المتمردة » و « عرائس المروج » ، ولكن لها من القوة والحيوية الثورية ، ما يكفل بقاءها . وان الهيئات التي سدد اليها جبران ثورتـه تجعلنا في هذه الظروف نؤثر الاقتصار على رسالة له بعث بها الى احدى الاوروبيات المهتمات بشؤون الشرق فراجعها في باب النصوص . اما هنا فنكتفي منه بهذه النفثات

---

١٠) وكان جبران معجباً اعجـاباً صريحاً لا حد له ، بما سماه « الذات الفرنساوية » . وهو القائل : « واغرب الذوات العامة في التاريخ هي الذات الفرنساوية ، فقد عاشت الفي سنة امام وجه الشمس ولم ترل في شبيبة نضرة » (من كتـابه العواصف) . وغني عن البيان ان الروح الثائرة سمة قوية من سمات هذه الذات التي يتحدث عنها جبران .

النارية المنيرة . قال في مقالته : « يوم مولدي » :

« قد احببت الحرية فكانت محبتي تنمو بنمو معرفتي عبودية الناس للجور والهوان، وتتسع باتساع ادراكي خضوعهم للاصنام المخيفة التي نحتتها الاجيال المظلمة ونصبتها الجهالة المستمرة ونعمت جوانبها ملامس شفاه العبيد . لكني كنت احب هؤلاء العبيد بمحبتي الحرية ! »

وقال في مقالته التي كتبها يصف بؤس لبنان وجوعه ، ايام الحرب العظمى الماضية، وعنوانها « مات أهلي ! » :

« لو ثار قومي على حكامهم الطغاة وماتوا جميعاً متمردين لقلت ان الموت في سبيل الحرية لأشرف من الموت في ظل الاستسلام . »

عند هذا الحد نقف في عرض الاعلام من مفكرينا وادبائنا الذين انطبعوا بطابع ذهني ونفسي عميق من ثورة فرنسا واحرار ادبائها ومفكريها . وكان يمكننا ان نطيل السلسلة فنذكر كثيرين ممن لم نذكرهم ، ونقف عندهم ، كروحي الخالدي (١١) ، وجرجي زيدان (١٢) ، والدكتور طه حسين (١٣) ، والدكتور حسين هيكل (١٤) ،

---

١١) وهو من اعلام الفكر والادب الفلسطيني . كان قنصل الدولة العثمانية في مدينة بوردو ثم اصبح بعد الانقلاب العثماني عضوا في مجلس المبعوثان . ألف كتاباً نفيساً سماه « علم الادب عند الافرنج والعرب وفكتور هوغو » . وقد اثبتنا منه فصولا في باب « نصوص مختارة » .

١٢) وهو القائل في كتاب « رحلة زيدان الى اوروبا » : « هي (يعني آثار فرنسا في المدنية الحديثة) كثيرة منها : الحرية واستقلال الفكر . ان للفرنساويين الفضل الاول في نشر روح الحرية باوروبة وغيرها . وهم قدوة الامم في بث هـذه الروح على اثر نهوضهم لخلع نير الملكية ، والمناداة بالحرية والاخاء والمساواة . »

١٣) الف كتاباً عن حرية الرأي وعن ابطاله فاتى بخمسة احدهم يوناني ، هو سقراط ، والآخرون : فولتير وروسو ورينان وتين « Taine » ، جميعهم فرنسيون . وقال في فصله عن روسو : « لم يقف تأثير روسو السياسي عند انشاء الثورة ، فانتم تعرفون اثر الثورة الفرنسية في نشر الديموقراطية في اوروبا ، بل في بلاد الشرق بعد الحرب الكبرى . فحياتنا نحن الديموقراطية ، ومذهبنا نحن في فهم الحكم وفي ما نريد من المثل السياسي الاعلى تتأثر بهذه الفكرة التي كان جان جاك اول من اشاعها واذاعها في كتاب العقد الاجتماعي . »

١٤) مؤلف كتاب ضخم عن روسو .

والاستاذ عبد الرحمن الرافعي [١٥] ، والاستاذ محمد كرد علي ، وغيرهم وغيرهم [١٦] . ولكننا اكتفينا بمن سبقوا ، واوردنا لاحد هؤلاء (الاستاذ محمد كرد علي) في باب النصوص من هذا الكتاب ، قطعته الشهيرة عن باريس . وكذلك اثبتنا مقالا لاحد كتّابنا المهاجرين عن الاصلاح والصحافة ، وفيه يبرز جلياً كيف كان يفكر مهاجرونا متأثرين بعوامل عدة منها الثورة الفرنسية [١٧] .

---

١٥) كاتب مصري سياسي ، له كتاب عن الجمعيات الوطنية ، اصدره سنة ١٩٢٢ ، وقد اراد به ان يقدم « نموذجاً لما تبذله الامم من الجهود في سبيل تحررها من رق العبودية ، ومقاومة الاخطار التي تتهدد كيانها ، وتدعيم حياتها المستقلة على ارقى القواعد السياسية والاجتماعية . » بدأ الكتاب بفرنسا وجمعياتها ابان ثورة سنة ١٧٨٩ ، واستغرق نصف الكتاب وهو لا يزال يرافق تاريخ الثورة . وتطيب لنا حماسة الكاتب حين يجلو جبين الثورة وعليه هذا القرار من الجمعية الوطنية الكبرى « La Convention » : « ان الجمعية الوطنية الكبرى تعلن باسم الامة الفرنسية انها تؤاخي وتساعد كل الشعوب التي تريد حريتها ، وتكلف قواد الجيش الفرنسي بان يمدوا يد المساعدة الى كل ابناء البلاد المضطهدة الذين ينالهم اذىً بسبب دفاعهم عن الحرية . »

١٦) كالاديب الاستاذ سلامه موسى ، مؤلف كتاب « حرية الفكر » وفيه يقول : « ليست الثورة الفرنسية فرنسية الا بالاسم ، اما حقيقتها فعالمية . وانت ايها القارىء المصري لو قرأت الدستور الذي وضع لمصر منذ نحو اربع سنوات لوجدت عليه مسحة « حقوق الانسان » التي اعلنتها الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ ، ووجدت فيه الفاظاً وعبارات تنم عن هذا الاصل . »

ويعجبنا ان نعلم ان الثورة الفرنسية بلغ من احترامها واحترام مفكريها في الادب العربي الحديث ، أن ادلى مثل الامير شكيب ارسلان بمثل هذا الاعتراف : « لو فرضنا ان القائد العام اليوم او الامبراطور او القيصر لا يقود الى الهيجاء ثلاثة او اربعة ملايين ، بل لو اعتبرناه قائدا لجميع سكان مملكته ، لبقي قاصرا عن جان جاك روسو ، مثلا ، وهو الذي كان خادماً في احد المنازل ، ثم كان اعظم الاسباب في الثورة الفرنسية التي حمل سيلها ايضاً بقية الممالك فانقادت لافكاره الجماهير ولا يزال ينقاد منها الى ما شاء الله ... »

١٧) يلاحظ اننا لم نعرض لذكر شعرائنا ، وتأثرهم بفرنسا الثائرة واحرار مفكريها . ذلك لاننا رأينا الانصراف الى الشعر العربي ، من هذا القبيل ، لا يجدي ولا يثمر كالانصراف

ولما كان الادباء اللبنانيون والسوريون في طليعـة من تصدّى لتصرفات الحكم العثماني وفي مقدمة من بثّ المبادىء المنبثقـة عن الثورة الفرنسية في الشرق العربي ، لا سيما مصر ، فقد اثبتنا مقالاً للكاتب الشهير مصطفى لطفي المنفلوطي يؤدي فيه واجب التقدير والاعجاب لاولئك الاعلام الاحرار .

والآن ننتقل الى فصل آخر ، او الى ناحية اخرى من هذا الفصل نفسه ، فنذكر الدروس الفكرية التي تلقاها ادباؤنا ومفكرونا من فرنسا الثائرة واعلام ثورتها .

٢ — دروس في الفكر والاصلاح

ان بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة وطراداً مستمراً ، يسعى العلماء في نشر العلم ويجتهد المستبد في اطفاء نوره . والطرفان يتجاذبان العوام . ومن هم العوام ؟ هم الذين اذا جهلوا خافوا واذا خافوا استسلموا . وهم الذين متى علموا قالوا ومتى قالوا فعلوا …

عبد الرحمن الكواكبي

ولكن ما هي الدروس الاساسية التي قبسهـا ادباؤنا ومفكرونا من فرنسا الثائرة واعلام مفكريها الثوريين ؟ يبدو ان هذا هو المحور الذي يدور عليه كتابنا . وليس من ريب ان ادباءنا ومفكرينا لما اتجهوا بقلوبهم وعقولهم شطر فرنسا الثورية ، كانوا يرمون الى دروس ومبادىء يتعلمونها ، لا الى تأييد دولة في غرض من اغراضها الخاصة .

الى النثر . ومع ذلك فللثورة الفرنسية ومفكريها اصداء ظاهرة في شعرنا وشعرائنا . وقد اثبتنا لاحمد شوقي ، في صدر من هذا الكتاب ، ابياته القافية الرائعة التي غنى بها الثورة السورية ، عائداً بالذكرى الى الثورة الفرنسية . ولحافظ ابراهيم ابيات يحيي بها ذكرى الانقلاب العثماني ويتذكر الثورة الفرنسية ، وسيأتي نص الابيات في فصل آت . واذا رجع القارىء الى باب « نصوص مختارة » وجد في خاتمتها قطوفاً لطائفة من شعرائنا ، وأحس بصلة تربط هذا الشعر بالثورة الفرنسية ومفكريها السابقين . ..

اما اول هذه الدروس التي تعلموها فهو فكرة الثورة نفسها • لقد رأوا ان حياة الامم ربما اعترتها المفاسد والظلامات في شؤون الحكومة والسياسة والاجتماع والاقتصاد ، ورأوا ان الاصلاح ربما اصبح غير ممكن عن طريق الاقناع والتسوية السلمية فآمنوا بوجوب الثورة في بعض الاحوال ، ورأوا ، بناء على الانقلاب الفرنسي العظيم ، ان الثورة اذا اجيدت وكانت في موضعها ، اتت بخير كثير ، بل خلقت الامة والبلاد خلقاً جديداً •

واننا لنجد هذا الخط من التفكير شديد الوضوح والجلاء عند امين الريحاني ، ولكنه ملموس عند مفكرينا وادبائنا الاحرار جميعهم • يقول الريحاني ، في رسالة وجهها الى نفسه ، على لسان صديق : « من الحقائق الرائعة : ان الثورة للامة كالحمّام للانسان تنبه فيه الدم وتوقظ النشاط ، ناهيك بالنظافة • فالجمود الملازم لحكومات الشرق كلها ، والفساد الذي اعتراها ، والاقذار التي تراكمت عليها لا يزيلها غير الحمام ، حمام الثورة الغالي • » ويقول ملتفتاً الى الثورة الفرنسية : « في الامة الفرنسية ، من نتائج الثورة العظيمة ما تبقى آثاره بادية حية نامية في ترقي الامم والناس • »

وقد ذهب ادباؤنا ومفكرونا في تبرير الثورة الى شبيه بما ذهب اليه الادباء والمفكرون الفرنسيون ، فاعلنوا ان السلطة والسيادة هما للامة والشعب ، وان الهيئة الحاكمة ليست الا لخدمة الامة والشعب ، وهي مسؤولة امامها ، فاذا هي اساءت التصرف حقت محاسبتها ، فاذا هي أصرت وعاندت جازت ازالتها بقوة السلاح • ولنذهب الى امين الريحاني ، مرة اخرى ، فنقرأ : « الحكومة للرعية ، لا الرعية للحكومة » ؛ « واول دلائل الحياة الحرة الراقية ان يتمتع افراد الامة على السواء بالحقوق الطبيعية ، فيسعون دائماً في تعزيزها وينهضون للدفاع عنها عندما تقيد او تمتهن • ومن اكبر دعائم الحكومات الحرة المستقلة قانون يكفل لشعبها هذه الحقوق الاولية ويوجب عليهم الدفاع عنها يوم ينهض عليها الظالمون يحاولون قتلها [1] • »

1) تذكر هذه الكلمات بما اذاعته الثورة الفرنسية سنة ١٧٩٣ : متى خرقت الحكومة حقوق الشعب اصبحت الثورة حقاً مقدساً للشعب ، واصبحت لكل هيئة منه واجباً لا مناص منه •

ولما كان الريحاني يحاول ان يقيم لنفسه تفكيراً متسلسلا في موضوع الثورة ، من الوجهة النظرية ، فقد انتقل من ميدان السياسة والاجتماع الى ميدان الحياة كلها ، والطبيعة كلها ، شأن المفكرين الفرنسيين ، فرأى هنا وهناك شواهد على روح الثورة وفعل الثورة ، وانتهى عند هذه القاعدة « ازرع العاصفة تحصد القاصفة » ؛ « ان روح الثورة حية عاملة في دوائر الحياة كلها [٢] . »

وما ابث ان عرض لأدبائنا ومفكرينا السؤال التالي : ان الثورة لا بد لها من عنف وتدمير وسفك دم ، فهل يجوز ذلك ؟ هل توازي الفوائد المرجوة من الثورة ما يرافقها من اعمال القسوة والتقتيل والتخريب ؟

غني عن البيان أن الثورة لم تكن في نظر مفكرينا لهواً ولعباً يصح ان تقدم عليه الامة أو هيئة من الشعب اقداماً اعمى او أرعن . بل من المقرر ان مفكرينا ، جميعهم ، كانوا يتمنون تلافي الثورة باصلاح عن طريق الاقناع والتسوية السلمية ، ولذلك رأيناهم ، في برهة النشوة والاغتباط بالانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ ، يجعلون من مميزاته سرعته ، وحقنه للدماء وامساكه للارواح . ويلاحظ ان كلمة ثورة ، بمعناها الحديث ، مستجدة في اللغة العربية . اما التسمية القديمة فهي الفتنة ، وقد تركها مفكرونا الحديثون لتسمية النزاعات الداخلية المسلحة ، التي يصطدم فيها فريق بفريق سفهاً وتعصباً وهوساً ، عن غير مبدأ ولا فكرة ولا طلب اصلاح او حق . ومفهوم أن أصحاب الاغراض يخلطون بين الثورة والفتنة ، وقل ان قامت ثورة لم يقم من شنّع عليها بانها فتنة وفوضى . و« دائرة المعارف » البستانية في الفصل الذي عقدته عن روسو تدعو الثورة الفرنسية « الفتنة العظمى المشهورة » ، كما ان نوفل الطرابلسي في كتابه « سياحة المعارف » يدعوها « الفتنة » ايضاً ، ونعتقد أن المناخ العقلي الحميدي ، يدأ في ذلك مباشرة او غير مباشرة .

نزيد بهذا ان نمهد للقول : ان مفكرينا الاحرار كانوا يفرقون بين الثورة والفتنة من جهة ، وكانوا من جهة ثانية لا يجيزون الثورة الا اذا لم يكن سبيل غير سبيلها . وقد تقرر لديهم ، بناء على شواهد في مقدمتها الثورة الفرنسية ، ان الانقلابات الضرورية

٢) تحسن مراجعة مقالته « روح الثورة » في الريحانيات جزء ٣ .

التي تستدعي تخلياً عن امتيازات بطل وجه الحق فيها ؛ وتستهدف تبديل وضع راهن ، وترمي الى احداث تحويل جديد في مجاري الحياة ، لا تقع ، أو قلّ ان تقع ، سلمية بقوة الاقناع والاقتناع وحدها . ولنقرأ ما يقوله جمال الدين الافغاني في هذا الصدد : « والتاريخ لم ينقل لنا أن ملكاً او اميراً او دخيلا بقوته على شعب يرضى عن طيب خاطر ان يبقى مالكاً اسماً وامته هي المالكة فعلا ، لادارة شؤونها وزمام امورها على مطلق المعنى » ؛ « اذا صحّ أن من الاشياء ما ليس يوهب ، فأهم هذه الاشياء الحرية والاستقلال[٣] . »

وهنا نفضي الى القول : ان مفكرينا الاحرار ، الذين فرقوا بين الثورة والفتنة ، ورأوا أحوالاً يصبح فيها التبديل والتحويل ضرورياً ، وادركوا أن اصحاب الامتيازات وانصار الوضع الراهن ، لهم منطق يبتعد بهم عن فهم منطق طلاب الانقلاب ومريدي الاصلاح ، (بحيث يتعذر الحل السلمي الناجع) ، رأوا عند ذاك ان الثورة ضرورة واجبة . ولما كانت واجبة كان لا بد من قبول كل ما يرافق طبيعتها ، اعتقاداً بان ذلك مغرم لا مفر منه لمغنم مرغوب فيه . وهكذا أجاب ادباؤنا ومفكرونا عن السؤال الذي عرض لهم فيما يتعلق بعنف الثورات وقسوتها بما يلي : « ان التنديد برجال الثورة والاستياء من النهضة بجملتها والنفور من هولها والفرار من نارها المحرقة المنيرة ... ذنوب لا تغتفر للمؤرخ اذا اقترفها . فالطفل يولد في الالم والعذاب ، والجمهوريات تنشأ في الثورات والحروب ، والام تتألم ساعة الولادة وكذلك الامة[٤] . »

والذي يستفاد من احدى كلمات اديب اسحق انه لا يحمل الثوار تبعة أعمال العنف التي ترافق الثورات ، بل هو يرى أن ما يأتيه الثائرون ليس سوى رد على فعل سبق ، ويخاطب الجماهير الهائجة بقوله : « ما انتم باصحاب الثورة ، وانما اصحابها الذين يوجبونها بما يظلمون ![٥] »

٣) شاع هذا القول بصيغة اخرى : « الحرية تؤخذ ولا تعطى » ، « الاستقلال يؤخذ ولا يعطى » ونسب الى غير جمال الدين ، ولكن جمال الدين مصدره الاصلي .

٤) من مقال الريحاني في مناقشة كارليل حول قضية العنف في الثورة ، راجعه في باب النصوص من هذا الكتاب .

٥) من مقاله : « الثورة » في الدرر .

ولكن مسألة أخرى عرضت لادبائنا ومفكرينا فيما يتعلق بقضية الثورة ، وكان اهم ما احدث هذه المسألة وقوع الانقلاب العثماني واعلان الدستور وانطلاق موجة من الحماسة والفرح اسفرت بعد قليل عن فتور وانقباض . لقد سدد الانقلاب العثماني ضربة الى سلطة مطلقة هي سلطة عبد الحميد . ولقد صك دستوراً ديموقراطياً يعترف « بحقوق الانسان » ويؤكد حمايتها . ولقد اقر مجلساً نيابياً منتخباً من الشعب ، وجعل الامة موئل السيادة ، واقر مبدأ الحكم الشوري الحديث ، فكان في ذلك كله شبيهاً بالثورة الفرنسية . على أنه مع ذلك لم يثمر الثمرة المنتظرة [٦] ؛ لم يتناول الدولة وحياة البلاد بتغيير عميق ثابت كما تناولت ثورة سنة ١٧٨٩ دولة فرنسا وحياتها .

فما السبب ؟ ما السر ؟ هكذا تساءل أدباؤنا ومفكرونا .

وكان جواب الدكتور شبلي الشميل نافذاً مقنعاً ، فقد رد السبب والسر في تقصير الثورة العثمانية الى « عدم اشتراك الامة فيها اشتراكاً محسوساً بسوى الاكثار من التغني في اول الامر ، وهي اليوم تكثر من العويل ولا تتعداه الى عمل حازم ، وتخرسها اقل كلمة ، فثورتنا حتى الان عسكرية اقتصر فيها التغيير على صورة الهيئة الحاكمة ،

---

٦) وكان العنصر العربي في طليعة العناصر العثمانية التي أحست بسطحية الانقلاب العثماني . راجع كتاب ثورة العرب بقلم احد اعضاء الجمعيات العربية ، فتجد فيه ما يلي : « تحققت طبيعة الاستبداد في الامة العثمانية على عهد الحكومة المطلقة ولم تتحقق طبيعة سلطة الامة في عهد الحكومة الدستورية ، فلم يستبدل الضعف والتقاطع والتخاذل والذل ، والرضوخ لسلطة الفرد ، بالقوة والاتحاد والعزة وتحقيق سلطة الامة والتكافل العام على توطيد دعائم الحكومة الدستورية ، حكومة العدل والحرية والاخاء . » واحس بذلك ايضاً بعض احرار الترك كالدكتور رضا توفيق ، فصرح بما يلي : « ان الدستور لا يكون الا كلمة لا معنى لها اذا لم تحترم الحرية السياسية والحقوق الاساسية وحرية القول والكتابة والخطابة ، واذا لم تعامل العناصر كلها معاملة واحدة بمقتضى احكام الدستور . » ومما تجب ملاحظته ان الحركة القومية العربية لم تتخذ في مبدأ أمرها شكل حركة انفصالية ، بل طالبت باللامركزية وبالاشتراك في ادارة الدولة على اساس ديموقراطي . وقد جعلت الجمعية الاصلاحية البيروتية رأس موادها : « الحكومة العثمانية حكومة دستورية نيابية . » فيمكن القول ان الحركة القومية العربية الحديثة ولدت في الشوق والسعي الى الديموقراطية .

فلم تغير شيئاً من اخلاقنا ولم تتصل الى علومنا وصناعتنا وتجارتنا . »

وضرب شاهداً للثورة التي تشترك فيها الامة اشتراكاً محسوساً ، وتأتي بنتائج عميقة باقية ، فكان شاهده الثورة الفرنسية .

ويحسن بنا هنا ان نسوق كلام الدكتور الشميل بنصه ، قال : « ان الاجتماع لا بد له في بعض الاحوال من ثورة تخلصه من خطر الهلاك . ويلزم ان تكون الثورة صادرة عن استعداد باطن كأنها اتفاق خفي بين اعضائه ، موافقة لامياله ، اي ان تكون عبارة عن صوت الشعب لكي تكون قانونية والا انقلبت شراً عليه . والثورة التي تكون كذلك هي ثورة لا تغلب ولا تقاوم لانها ليست من افعال الآحاد ، بل هي عبارة عن تخلص الجسم كله مما ثقلت وطأته عليه تخلصا طبيعياً قانونياً . ويلتفت الدكتور ليلتمس قياساً يقيس عليه ، فيقول فوراً : « كالثورة الفرنسية ، فانه لم يصدها شيء ولم يقوَ عليها شيء مع انه اعترضتها موانع داخلية وخارجية قوية جداً ، وما ذلك الا لانها كانت موافقة لميل الشعب وناشئة عن استعداده .

وذهب الشيخ مصطفى الغلاييني الى شبه ما ذهب اليه الدكتور الشميل فقال : « ان الحرية الصحيحة هي التي ينالها الشعب بقوته دون مساعدة خارجة عنه ، كالجيش مثلاً ، أو كأن تمنح الحكومة الحرية للشعب من قبل نفسها دون مجبر [٧] . »

والواقع أن الجيش هو الذي زحف من سلانيك واسقط عبد الحميد وقام وحده بالانقلاب العثماني . ومع أن رؤساء الانقلاب قالوا في ندائهم الذي اذاعوه على الشعب : « ان الجيش هو الشعب ، والشعب هو الجيش [٨] » فقد ظل الواقع ان الفرق بعيد جداً بين انقلاب تحدثه القوات المسلحة وحدها وانقلاب تفرضه الجماهير المتحفزة .

وكان طبيعياً ان يعمد ادباؤنا ومفكرونا ، ولا سيا اثر تجربة الانقلاب العثماني ،

---

٧) من كتاب « اريج الزهر » للغلاييني وقد اثبتنا في باب المختارات الفصل الذي اقتطفنا منه هذه العبارة ، مع قطع اخرى من سائر الكتاب . وتتعلق بهذا المعنى نفسه مقالات لدكتور ايوب ثابت نشرت بعنوان « عبرة وذكرى » وقد اثبتنا منها في باب « نصوص مختارة » جزءاً غير يسير .

٨) صدر النص الكامل للنداء في جريدة المشير لسليم سركيس .

الى النظر في قضية الانقلابات الناجعة وخصائصها ومميزاتها ، وفي مقدمة هذه الانقلابات الناجعة الثورة الفرنسية الكبرى . تساءل ادباؤنا ومفكرونا : من يهيء للثورة ويقوم بها ؟ ما هي مقاصد الثورة واهدافها ؟

فأما السؤال الاول ، فنرى في جوابه مذهبين : مذهباً يقول ان المفكرين هم مهيئو الثورة وموقدو شرارتها . فالثورة الفرنسية انشأتها [9] افكار جان جاك روسو وفولتير مثلاً . وكتاب « الاتفاق الجمهوري » الذي وضعه جان جاك مؤذناً « بوجوب المساواة هو الذي ادّى الى الفتنة العظمى المشهورة [10] . » ونرى مذهباً آخر يقول : « ان الفرد انما هو صوت واحدٍ ينطق باسم ملايين الناس الصامتين ، فالرجل العظيم انما هو عظيم بشعبه لا بنفسه ، هو يستمدّ معظم قوته مما يحيط به من الاشياء والظروف والرجال [11] . »

وقد سبق لنا في تعليق طويل ، في الفصل الذي عقدناه عن مفكري الثورة الفرنسية في هذا الكتاب ، ان اوضحنا رأينا في قيمة الفكر ودوره في الانقلابات ، وقلنا ما خلاصته : « ان الفكر الثوري ، السياسي الاجتماعي ، اذا هو قاطعَ او عدم الدعائم المادية الجديدة ، التي تهيئها النشأة التاريخية المحدثة ، لم يكن له وزنه في الثورات والنهضات . فجان جاك روسو اشترك في تهيء الثورة الفرنسية ، ولا ريب . ولكن اشتراكه في تهيئها كان ممكنا ، لان فكره وافق مطامح الامة الفرنسية ، اذ ذاك ، وصح ان يكون مرشداً ، وسلاحاً نظرياً لها في ثورتها . ومطامح الامة الفرنسية ، اذ ذاك ، لم يوجدها روسو ، ولكن التطور التاريخي الذي قوّى الطبقة الثالثة « Tiers Etat » ودفعها الى طليعة المجتمع نفوذاً واهمية ، هو الذي اوجد هذه المطامح ، فعقلها واحسها وعبر عنها ، ونبه اليها جان جاك روسو . بل ان روسو نفسه لم يكن الا ثمرة من ثمرات هذا التطور التاريخي ، ومظهراً من مظاهر تلك

---

٩) كلمة نوفل الطرابلسي في كتابه : « سياحة المعارف » .

١٠) من الفصل المعقود عن جان جاك روسو في دائرة المعارف للبستاني ، المقصود بالاتفاق الجمهوري كتاب « Le Contrat Social » .

١١) الكلمة للريحاني استعملناها في تتويج فصلنا عن مفكري الثورة في هذا الكتاب .

المطامح التي تحركت بها اعماق الامة الفرنسية ، اذ ذاك . فروسو لم يكن ممكناً في فرنسا في القرن السادس عشر مثلاً . »

ولنقل : ان هذا الانقسام النظري لا يزال ظاهراً في تفكيرنا الحديث بين فريقين : فريق يؤمن « بعبقري » او « نخبة مختارة » يفرضون انفسهم وبرامجهم الاصلاحية على الامة ، وفريق يؤمن بامة تناضل بجماهيرها نضالاً يشاركها فيه افذاذ الرجال ، وتنجب اثناءه الرجال الافذاذ ، وتعلمهم ويعلمونها ، وتقودهم ويقودونها .

ولنقل ايضاً : ان فريقاً كبيراً من ادبائنا ومفكرينا السابقين ، في مطلع النهضة ، ادركوا انهم ، مهما سمت آراؤهم وطابت مقالاتهم ، لا يستطيعون وحدهم ، كما لا يستطيع زعيم ، ولا تستطيع هيئة كالجيش مثلاً ، ان تحقق انقلاباً عميقاً واصلاحاً راسخاً في امة لم تتيقظ صفوفها ، وفي بلاد لم تقم فيها دعائم مادية لبناء الاصلاح .

هذا اديب اسحق ، في فصله عن الثورة ، يتصور جماهير غربية (الارجح انها فرنسية) تثور وتنطلق في تيار الثورة وينتهي الصخب والعنف باستقرار الحرية ، وتثبيت الجامعة الوطنية ، واستتباب وحدة الحقوق ، وانتشار العمران والرخاء . ثم يتصور جماهير شرقية تأتي ما يأتيه الغربيون في ثوراتهم من صخب وعنف ، ولكنها (اي : الجماهير الشرقية) لا تنال بعض ما نال اولئك . والسبب هو ان الشرقيين ، كما عرفهم ، « لا يقاتلون عن انفسهم ولا تحسبهم على بيّنة مما يقصدون ... فهم في الثورة دعاة زعيم وعصاة زعيم ... » وظاهر من كلمات اديب اسحق : ان الثورة لا تنجح الا اذا انبعثت من جماهير ، جماهير « يقاتلون عن انفسهم » ، اي : يطالبون بحقوقهم ويدافعون عن مصالحهم ، وهم « على بينة مما يقصدون » ، اي : انهم مدركون واعون ، وليست حركتهم « دعوة لزعيم او عصياناً لزعيم » اي : انها غير قضية شخصية .

وهذا امين الريحاني ، يبحث في « الثورة الحقيقية » فيقول : « الثورة الحقيقية ، ونحن من انصارها ، من رسلها ، انما هي التي يزرع الزمان بذورها في قلوب الناس وفي عقولهم ... هي الثورة التي يتقدمها ريّ العراق مثلاً وسكة الحجاز وحرية الطباعة والتجارة والتعليم ... الثورة الحقيقية ، او بالحريّ الانقلاب العظيم ، هو

الذي يساعد في ارتقاء الاشياء والحياة الى ما ينبغي ان تكون . » وواضح ان امين الريحاني لا يصدق الثورة المرتجلة ، التي لم « يزرع الزمان بذورها في قلوب الناس وفي عقولهم . » فاذا قام مفكر او مفكرون ، مثلاً ، تضم افكارهم بذور ثورة ، فان ذلك لا يكفي ، اذ لا بد من (الزمـان) الذي يزرع البذور ، ولا بد من (التربة) التي هي القلوب والعقول ، قلوب الناس وعقولهم ، والنـاس هم الكثرة لا عشرون ولا مئة . ثم لا بدّ ايضاً من ان تكون البذور صالحة والتربة قابلة ، اي: لا بدّ من ان تكون الافكار الثورية تجاوب مطالب قلوب الناس وعقولهم ، في العهد الذي تلقى فيه اليهم . وفوق ذلك ، ان الثورة ليست افكاراً في افكار ، ولكنها ايضاً تقوم على دعائم مادية عمرانية ، كسكة الحجاز مثلا وريّ العراق ، وتظهر في مظاهر قانونية نظامية تفسح المجال للنشاط الحر في ميادين ثقافية واقتصادية كالطباعـة والتعليم والتجارة ، و « تساعد » بالنتيجة « في ارتقاء الاشياء والحياة الى ما ينبغي ان تكون ! »

وفي قول الريحاني : « يتقدمها ري العراق ، مثلا ، وسكة الحجاز ، وحرية الطباعة والتجـارة والتعليم ... » امر يجب ان يستوقفنا . فما الذي اراده كاتبنـا بكلمة « يتقدم »؟ فالمعروف ان الثورات تقوم لكسب حرية كحرية الطباعة والتجارة والتعليم ، والمشهور ان الثورات تهب لخلق ظروف يتيسر فيها انشاء المشاريع العمرانية . فهل قصد الريحاني وهو يتحدث عن الثورة الحقيقية ان يصفها باعتبـار ما يكون من نتائجها فذكر في مقدمتها بعض نتائجها ، زيادة في التأكيد ، لكي لا يُخالَ ان حادث الثورة غاية في ذاته لا وسيلة الى غاية ؟ ام انها فلتة من فلتات القلم ؟

نرجح ان الريحاني اراد ضمناً ان يفرق بين نوعين ، او مرحلتين من الثورة ، فهو في خطبة عنوانها « روح الثورة » ، القاها في « جمعية تهذيب الشبيبة » سنة ١٩١٣ ، يبحث في الاصلاح ، ثم يقول : « ولكن هـذا الاصلاح لا يتم بلا انقـلاب في الاحكام ، ولا يتم انقلاب بلا ثورة سياسية » ، والذي يقصده بالثورة السياسيـة استيلاء العناصر الجديدة على السلطة ، تأميناً لظروف يصبح فيها الاصلاح ممكناً ، بل واجباً ، اذ ان الثورة اذا اكتفت بالاستيلاء على السلطة لم تكن في الحقيقة ثورة ، بل

كانت كما قال الدكتور الشميل عن الانقلاب العثماني « تغييراً يقتصر على صورة الهيئة الحاكمة . »

وهذا يخرج بنا الى معالجة السؤال الذي طرحناه سابقاً : ما هي مقاصد الثورة واهدافها ؟ (مع العلم ، طبعاً ، اننا نسوق الحديث عن ادبائنا ومفكرينا ، والدروس التي تلقوها من الثورة الفرنسية) .

يؤخذ من مغزى كلمات الريحاني السابقة ، ومن اقوال لغيره ، ان الثورة تتدرج من مقصد الى مقصد ، ومن هدف الى آخر . ويكون احد المقاصد والاهداف في وقت ما هو الغاية ، ولكنه اذا تحقق بات وسيلة الى مقصد وهدف آخر يصبح هو الغاية عندئذ ، وهكذا حتى تتحقق الغاية النهائية .

فاما المقصد الاول ، والهدف الاول ، فهو ان تعمل العناصر الجديدة ، الثورية ، في سبيل « انقلاب في الاحكام » او « ثورة سياسية » او استيلاء على السلطة . ولما كان ادباؤنا ومفكرونا يواجهون سلطة مطلقة ، في نظام الحكم العثماني ، لا سيما ايام عبد الحميد ، فقد غلب عليهم رأي الاستيلاء بالقوة على زمام الاحكام [12] . وكان « شاهد » الثورة الفرنسية قدوة لهم . وكان الاستيلاء على السلطة بالقوة معناه ، في نظرهم ، خلع السلطان ، ونصب سلطان يوافقهم ويسلم بمطالب الانقلاب . وقليلون جداً منهم من كانوا يريدون الجمهورية [13] ، فالرأي الاعم الاغلب كان طلب الملكية ، او السلطنة المقيدة بالدستور .

فاذا تم الخلع ، ونُصب السلطان الجديد ، اعلن الدستور ، واطلقت الحريات الديموقراطية المعروفة ، ودعيت ارعية الى انتخاب مجلس نيابي يمثلها ويشارك السلطان الحكم .

ولكن هذا كله ليس الا مرحلة من المراحل ، بل هو بدء الطريق . هكذا قالت طليعة من ادبائنا ومفكرينا رأت ان الانقلاب العثماني وقف عند هذه الغاية .

---

١٢) لم ينشأ بينهم خلاف حول قضية الوصول الى الحكم عن طريق القوة او البرلمان ، مثلا ، لانهم كانوا يطالبون ببرلمان .

١٣) كان من رأي جمال الدين الافغاني أن الشرق في زمانه لا تصلح له الجمهورية .

فلقد نسخ الانقلاب العثماني الصفحة الاولى من الثورة الفرنسيـــة واكتفى . ولم تكن له جماهير تؤيده في الشوارع كما كانت الحال في الثورة الفرنسية .

وكان الدكتور شبلي الشميل وامين الريحاني وغيرهما في مقدمة الطليعـة من ادبائنا ومفكرينا الذين لمسوا التقصير في الانقلاب العثماني وأحسوا طبيعته السطحية ، وادركوا ان الانقلاب يجب ان تكون له اهداف ومقاصد تعليمية ثقافية ، وصناعية زراعية تجارية .

ان اعلان الدستور واحداث المجلس النيابي انما هو اصلاح — اذا وقع كما وقـع الانقلاب العثماني بقوة الجيش واشتراك فئة قليلة — لا تتم فائدتــه الا اذا سيق الى اذهـان الشعب بالتثقيف المتواصل المخلص ، والا اذا طهر جهاز الدولة القديم ، فـان موظفاً قبل الدستور يعمل بروح ما قبل الدستور ، لا ينقلب بسرعة ما تصله القوانين الجديدة والتعليمات الجديدة .

كان هذا رأياً في نقد الانقلاب العثماني أخذت به الطليعة من ادبائنا ومفكرينا ، فدلت على انها فهمت طبيعة ذلك الانقلاب السطحية ، واكدت — كما اكد مفكرو القرن الثامن عشر في فرنسا — ضرورة تعليم الامة وتنقية جهاز الدولة وتربية القائمين باعمال الحكومة تربية جديدة .

اما من حيث الصناعة والزراعة والتجارة ، فلعل الرأي الاقتصادي السائد كان يعتبر نشاط الدولة في انشاء الصناعات امراً غـير مرغوب فيه ، بل محظوراً [14] . وهو رأي مستعار من مفكري النهضة الصناعية الاوروبية الحديثة ، في مفتتح شأنها ، ومستعار ايضاً من الثورة الفرنسية واعتمادها — بالنتيجة — على قاعدة ما نسميه « الاقتصاد الطليق » . غير ان دولة كالامبراطورية العثمانية تأخرت في احداث انقلابها الدستوري الى اول القرن العشرين ، وهي جد متأخرة في بنائها الاقتصادي — نصف الاقطاعي — وعرضة لمآرب الدول الاستعمارية ما كان لها ان تكتفي بالنشاط الفردي في ميدان الصناعة (لا سيما الصناعة !) والزراعة والتجارة اعتقـاداً منها بان مجرد اعلان الدستور واحداث المجلس النيابي كفيل بسير كل شيء على ما يرام . فالنشاط الفردي ، الاقتصادي ، واطلاق

١٤) راجع في باب النصوص فصلا بعنوان : « وجوب حرية الانشاء الاقتصـادي من تدخل الدولة » وهو فصل اجتزأناه من كتـاب « محاكمة مدحت باشا » تعريب : حتاته .

الحرية لهذا النشاط الفردي ، كل ذلك واجب ومثمر ايضاً ، الا انه وحده لا يكفي للوثب بدولة افاقت متأخرة على السباق الاقتصادي العالمي .

على اننا قد نكون ، هنا ، جاوزنا بعض الشيء ما قاله ادباؤنا ومفكرونا في نقد الانقلاب العثماني . والواقع ان ثقافة ادبائنا ومفكرينا ، من الوجه الاقتصادي ، كانت ولا تزال ضعيفة في الغالب . ولكن يجب القول : ان ادباءنا ومفكرينا اذا كانوا قد مالوا الى مذهب الاقتصاد الطليق ، وآثروا ان ترفع الدولة – ولو كانت منبثقة من الامة – يدها عن البناء الاقتصادي ، فقد ادركوا كل الادراك ، هذه الحقيقة الاساسية وهي : ان وجود حكومة شورية ، (او دستورية او ديموقراطية) ، تطلق الحريات وتحميها ، حاجة اولية لا بد منها لتقدم الشعب ونهضة البلاد .

وهكذا دعوا الى العناية ، وايّدوا الاهتمام الكلي بمسألة السلطة ، لانها مفتاح كل شيء . وكأنما جعلوا شعارهم ان « المرء الذي لا يكترث لامور حكومته يعد خاملاً [١٥] . » ووجهوا الفكر والادب الى السياسة والاجتماع ، شأن الاعلام الفرنسيين في القرن الثامن عشر ، ورائدهم الحرية السياسية التي هي « العافية المفقودة » كما سماها عبد الرحمن الكواكبي في طبائع الاستبداد .

ويتصور اديب اسحق فريقاً يقول له : « دع السياسة لاهل الرئاسة ، فهم فيها احق ، وبها اعلم ، وعليها اقدر . » وقد اراد اديب اسحق ان يعرّض بنوعٍ من ذهنية تعتقد ان السياسة وقف خاص او احتكار ، وراح ينقض هذا الرأي فقال : « الف الكاتب الفرنسوي روسو كتاب الميثاق الاجتماعي في السياسة ، وشعر من اهل زمانه بمثل ذلك الاعتراض فأجاب : يقولون أأنت امير ام انت حاكم لتكتب في السياسة ؟ واقول لا . ولكنني من اجل هذا كتبت ، فاني لو كنت اميراً او حاكماً لما اضعت الزمان في كتابة ما ينبغي ان افعل ، بل كنت افعله او التزم السكوت ! » ويستأنف اديب اسحق كلامه فيقول : « من حقوق الانسان الطبيعية بل من واجباته ان ينظر فيما يمسه وما يحيط به من الامور الدنيوية والاحوال الاجتماعية . ولقد جاز للمرء ان يبحث عن اسرار الوجود ويستكشف نواميس الطبيعة

١٥) الكلمة للريحاني .

في حالة كونه لا يستطيع تغيير شيء من نظامها ولا يقوى على مخالفة حرف من احكامها ، فكيف يحظر عليه النظر في النظام الذي هو جزء منه والاحكام التي هي من وضع الانسان ؟ »

وينظر كاتبنا الى الفلسفة ، فلا يعترف بانها « مخصوصة بطائفة من الناس دون الآخرين . »ثم يقول : « ان الامم خرجت من خطة الغنمية ... وانتقلت من دور الطفولية ، وسئمت انفسها الغذاء من لبن الخرافات والرموز ، فلا بدّ لها من العلم بالحقائق السامية كما تُعلم المعارف الدانية ، فقد ازف الوقت الذي يخرج فيه عن صفة الانسانية من لم يكن عارفاً بكل ما اكتشفه عقل الانسان . » ويذهب كاتبنا الى التصريح بان الفلسفة اداة ، او يجب ان تكون اداة من ادوات الكفاح الثوري في شؤون الاجتماع وقضايا السلطة ، فـ « تأثير (علمها) غير منحصر في المعلومات الانسانية، ولكنه يتجاوزها الى هيئة الاجتماع فتظهر فيه آثار تغيّره (اي : الاجتماع) بمظاهر من ثورات الخواطر وتجليات الالباب . ولا بدع في ذلك فهو (اي : علم الفلسفة) علم الانسان ، فلو قدّر ان يكون من نتائجه الحكم بكون الناس نوعين اثنين احدهما للامر والسلطة ، والآخر للطاعة والانقياد، للزم من ذلك ان يكون في الارض ظلاّم لا يرحمون وعبيد لا يأبقون . ولو فرض ان تلك النتيجة قد هذبت فيه واطفت فلم تقض الا بان يكون في كل جمعية مدنية فريق يتدبرون الأمور عن الكافة ، وان تكون الكافة وقفاً على خدمة ذلك الفريق ، لحصل من ذلك مبدأ الامتياز الارستوقراطي القبيح لزوماً . »

ويلتفت اديب اسحق الى الكتّاب فيجرهم الى المعمعة ، ويريدهم مكافحين مناضلين ، ويجعل من واجباتهم « السعي الى جنة الحرية مع ثقل سلاسل العادات وقيود القوانين » ...

ووجد ادباؤنا ومفكرونا انفسهم امام قيم ومُثل ومعقولات جديدة ، شاعت على الالسنة والاقلام ابان الثورة الفرنسية ، وتناقلتها الافواه والقراطيس في الشرق العربي . فقد طفق الناس يتحدثون عن « الوطن » و « الوطنية » و « الامة » و « القومية » و « الحرية » و « المساواة » و « الحقوق الطبيعية » وشؤون اخرى ، فكان النظر فيها

واجباً على ادبائنا ومفكرينا .

اما الوطن ، فلا نعلم أن احداً من طلائع ادبائنا ومفكرينا ، حاول البحث فيه كما حاول اديب اسحق . وقد اثبتنا له في باب النصوص من هذا الكتاب قطعتين تدوران حول الموضوع . ويلاحظ ان اديب اسحق بنى على المفكرين الفرنسيين قبل الثورة ، وأيد نفسه بقول من « لابروبير » : « لا وطن في حالة الاستبداد . » وخلاصة رأي كاتبنا في موضوع الوطن أنه « خير وحدة » يرجع اليها المواطنون و « يجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجراً صلدا » ، ولا بد للوطن — حتى يكون وطناً بصحيح المعنى — من حرية وحقوق وواجبات تسري على الجميع ، فـ « ان امتياز بعض الناس عن بعض في وطن واحد يلحق بذلك الوطن الضرر العظيم حساً ومعنى [١٦] . »

والوطنية هي حب الوطن ، والمواطنين ، مع ما يستدعي ذلك من الخدمة والتضحية ، والفداء في بعض الاحيان . وقد تطرق اديب اسحق الى بحث الوطنية ، فاثبتنا بحثه في باب النصوص . ولاحمد فارس الشدياق فصل ممتع في نقد الوطنيين الزائفين ، اثبتناه ايضاً وهو يشف عن روح الرجل الفكهة ، اللاذعة ، وقرابتها من « رابليه » و فولتير [١٧] .

وبديهي أن ادباءنا ومفكرينا انصرفوا الى تعزيز الشعور الوطني وتقويته ، واعتبروا

---

١٦) هذه العبارة الاخيرة مأخوذة من مقالته في الدرر : « اماني » .

١٧) لا نظن ان احمد فارس الشدياق كان متأثرا تأثرا مباشرا بالثورة الفرنسية ، ولم يكن طبيعياً ان يشيد بالثورة وهو في ظل عبد الحميد . غير ان حملته على سلطة معينة في لبنان ، وبراعة سخره ، واستنكاره لاحراق الكتب (وكان شديد الخوف من ان يحرقوا كتابه الفارياق) ، كلها عوامل انزلته منزلة فولتيرية في ادبنا ، وجعلته من دعاة حرية الرأي والفكر . وقد يقال ان الشدياق كان مسوقاً الى ثورته بدافع فاجعة عائلية ، مسته في الصميم (فاجعة اخيه) ، ولكن ذلك لا يغير شيئاً من نتيجة الحكم بثوريته . والذي يؤخذ من آثاره انه كان معجباً جدا باعلام فرنسا الفكريين ، وفيهم يقول :

وكم فاتح منهم وما بارح الحمى كتائبه اقلامه والقراطيس

ولئن يكن كتب فصلا في « كشف المخبا عن فنون اوروبا » تناول فيه كومين باريس ، سنة ١٨٧١ ، وانجرف بتيار الاحكام التي لا تزال سائدة بحق الكومين ، فذلك لا ينقض انه كان معجباً بـ « الفعلة » في باريس ، كما سمى العمال في « الفارياق » .

الوطنية خير جامعة يجمعون بها صفوف الامة لحمايتها وانهاضها . وما كاد الشيخ عبد الله النديم يطرح هذا السؤال الذي جعله عنوان احدى مقالاته : « هذه يدي في يد من اضعها ؟ » ، حتى اجاب في اول سطر من المقالة : « ضعها في يد وطنيّك ! »

اما الامة ، فيبدو لنا ان ادباءنا ومفكرينا لم يطيلوا الوقفة عندها ، وسبب ذلك – على ما نرجح – أن معظم ادبائنا ومفكرينا الاول كانوا يأخذون بالجامعة العثمانية [18]. ومفهوم ان امبراطورية السلطان العثماني لم تكن تتألف من امة واحدة . فاذا استعمل ادباؤنا ومفكرونا لفظ الامة تجوزوا فيه وتوسعوا . والواقع ان تعريف الامة ، في الفكر العالمي ، لا يزال الى اليوم موضوع جدل كثير . وفي باب النصوص من هذا الكتاب ، بحث قصير لاديب اسحق ، حاول فيه تحديد الامة فجعلها « الجماعة من الناس » « تتجانس جنساً واحداً » و « تخضع لقانون واحد » و « تتعارف باسم تنتسب اليه وتدافع عنه . » اما « وحدة اللغة » فاستحسنها [19] ، ولم يذكر الرابطة الدينية مطلقاً [20] . وعنى بقوله : « تتجانس جنساً واحداً » ان ليس من الضروري ان تكون الامة من اصل واحد في النسب ، لان التقلبات التاريخية ادت بمعظم

١٨) راجع العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث جزء ١ (العوامل السياسية) لانيس الخوري المقدسي .

١٩) ان وحدة اللغة ضرورية للامة . ولكن اديب اسحق كتب في العهد التركي ، ولم تكن في الامبراطورية لغة واحدة ...

٢٠) خالف ذلك نفر قليل من مفكرينا ، جعلوا وحدة الدين من شروط الامة ، واستندوا الى قول القرآن : « كنتم خير امة اخرجت الناس ... » وقالوا انه يقصد بالامة المسلمين . على ان القرآن استعمل كلمة الامة في موضع آخر ، فقال : « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ... » وظاهر ان الامة هنا لا يمكن ان يكون معناها المسلمين ، بل الجماعة . ومما ينسب الى الرسول قوله في قس بن ساعدة : « يبعث امة وحده » وقيل أن معناها هنا : الطريقة . وقد قصد الرسول : ان قساً كانت له طريقة اخرجته عن حكم ما سبق (اي : الجاهلية) ولما لم يدرك الاسلام فقد لبث امة (اي : طريقة) وحده . وعلى هذا فالطريقة – الطريقة الواحدة ، او المتشابهة في الحياة والعادات ، مثلا – عنصر مندرج في معنى الامة . ولكن يجب ان لا ننسى ان الالفاظ تكتسب ، باختلاف الاحوال ، معاني مستحدثة ، فتقييد استعمالاتها الجديدة باستعمالاتها القديمة يورط في الاخطاء .

البشرية الى الاختلاط والتمازج . ولا ريب ان اديب اسحق وفق الى الصواب في النقاط التي ذكرها ، وكان موفقاً ايضاً في سكوته عن الرابطة الدينية . والذي يمكن استنتاجه من فحوى كلامه : ان الامة هيئة تتكون تاريخياً (يكونها التاريخ) ولا توجد في اصل الخلق . وانها لحقيقة من الاهمية بمكان عظيم . على ان اديب اسحق غفل في تحديد الامة عن بعض نقاط اساسية[٢١] .

اما كلمة القومية ، فكان استعمالها قليلاً جداً ، في إبان انتشار فكرة « الجامعة العثمانية » ولم تشع الا بعد نهضة فكرة العروبة[٢٢] . والقومية اسم لشعور وفهم بنيا على النسبة الى القوم . وقد ذهب اديب اسحق الى ان « الامة من الرجل هي قومه . » ومعنى ذلك ان كاتبنا جعل القوم الامة ، والامة القوم ، فتكون « القومية » من « الامة » بمثابة « الوطنية » من « الوطن » . وهذا هو المعنى الاغلب الذي قصده ويقصده اكثر كتابنا وادبائنا بالقومية ، مع العلم ان بعض الفوضى لا تزال منتشرة في استعمال هذه الكلمات التي لم تعين مدلولاتها الحديثة تعييناً واضحاً في لغتنا واذهاننا .

ويعالج ادباؤنا ومفكرونا موضوع الحرية ، وكلهم مجمعون على انها الضالة الحيدة المنشودة[٢٣] . ومن الخير انهم لم يقفوا في امرها عند حد المدح والثناء ، بل اعملوا

٢١) اوفى تعريف اطلعنا عليه للامة هو قول ستالين : الامة ١ - جماعة ثابتة من الناس ، (اي : انها لم تتألف عرضاً بنجاح موقت في الفتح كامبراطورية الاسكندر) ، ٢ - مؤلفة تاريخياً (اي : تكونت بمر التاريخ) ، ٣ - لها لغة مشتركة ، ٤ - وارض مشتركة ، ٥ - وحياة اقتصادية مشتركة ، ٦ - وبنيان نفسي مشترك ، يجد تعبيرا له في الثقافة المشتركة . . . ان اجتماع كل هذه المميزات هو وحده الذي يوجد الامة . (كتاب المسألة الوطنية) .

٢٢) راجع كتاب « ثورة العرب » بقلم احد اعضاء الجمعيات العربية ، فتقرأ فيه ان الاختبارات المرة « اظهرت للعرب كافة ان اتفاقهم مع الترك كان شرا عليهم لانه لم يكن قائما على اساس القومية . » ص ٤٣ - ٤٤ .

٢٣) « ايتها الحرية ، يا مصدر كل امر جليل في الارض ، لقد علمنا انه لا نجاح بدونك ، ولا سعادة مع البعد عنك ، فان الامة الحرة تكون كفرس مقيد يسير رافعاً رأسه وينتشق ملء صدره الهواء النقي ، ويسرح في المرعى النضير ، اما الشعب المستعبد فهو كفرس مستعبد يدور حول الرحى مغمض العينين يسير السنة بتمامها ولا ينتقل من مكانه . » - اديب اسحق .

الفكر المحلل ، وكانت القاعدة التي بنوا عليها ما ورد في « بيان حقوق الانسان » : «حد الحرية انه يباح للمرء عمل كل ما يريد شرط ان لا يؤذي غيره . » واتفقوا على ان لا بد للحرية من قوانين نافذة ، فهم بذلك قد ماشوا مونتسكيو ، ولكنهم ، بلسان اديب اسحق ، اخذوا على مونتسكيو « ذهوله عن ماهية القوانين . » ففي واشنطن قانون وفي طهران قانون . وكذلك الامر في لندرا وبكين . ولكن التقيد بالقانون في طهران وبكين لا يعني الحرية ، كالتقيد بالقانون في واشنطن ولندرا . والسبب راجع الى ماهية القوانين ، ففي واشنطن ولندرا دستور وشورى وديموقراطية ، بينما في بكين كانت تنفذ ارادة الامبراطور المطلق ، وفي طهران كانت تنفذ ارادة الشاه المطلق . واذن ، فالحرية هي التقيد بقوانين يشترك الشعب في وضعها عن طريق ممثليه . وفي هذا عرق من روسو نجده في ادبائنا ومفكرينا .

وكما سعت الثورة الفرنسية وسعى اعلامها الفكريون الى حرية الرأي والعقيدة الدينية والطباعة والخطابة والانتخاب ، وحرية التصرف بالاملاك وتنظيم الجمعيات ، وحرية الشخص الانساني بحيث لا يُقبض عليه ولا يسجن ولا يحاكم ظلماً ، كذلك سعى ادباؤنا ومفكرونا الى هذه الحريات اجمع ، في مدى قانون يحميها ويضع لها حداً تقف عنده هو الاضرار بالغير وبالمصلحة العامة .

وكما رجع اعلام الفكر الفرنسي الثائر الى الطبيعة يؤيدون بها مذهبهم ، كذلك رجع ادباؤنا الى الطبيعة ايضاً .

وجميل ان نعير التفاتة خاصة الى مفكر عربي خرج عن نطاق الحرية المدنية والسياسية (وكل ما ذكرناه سابقاً يدخل في هذا النطاق) فمسّ موضوع الحرية فلسفياً . ذلك المفكر هو فرنسيس فتح الله مراش الحلبي ، فقد رأى ان بناء الحرية على الطبيعة مذهب سطحي . فالطبيعة كلها قواعد ونواميس تضبطها في حركاتها وتطوراتها ضبطاً حديدياً . فأين هي الحرية في الطبيعة اذن ؟ ولكن المراش لم يخلص من هذا الى الغاء الحرية ، بل كان مؤدى فكرته ان كل شيء في الوجود الطبيعي لا يمكنه ان يكون حراً الا اذا خضع لقواعد ونواميس هي ضرورية كافلة لوجوده . ومعنى هذا : ان لا حرية الا مع القيام

بالضرورات ، لا حرية الا مع اتمام الحاجات التي لا بد منها . فالحرية ليست ، فقط ، حقوقاً نرغب فيها ، وهي تضمن لنا بمجرد قانون نضعه ، ولكنها ايضاً واجبات لا بد من الوفاء بها حتى تحق الحقوق . ولذلك لم ينظر المراش في الوجود الاجتماعي والمدني ، الى مجرد الرغبة في الحرية ، والى مجرد قانون يُزال او قانون يوضع ، بل نظر ايضاً الى الضرورة ، وقرر ان اطلاق الحرية بالغاء كل قيد لا حاجة اليه هو قانون صوابي . ولرب قائل يقول : ولكن من يثبت ان هذا القيد ، او ذاك ، بات ولا حاجة اليه فيجب الغاؤه ؟ وليس من شك ان المراش فطن الى مثل هذا الاعتراض ، وعرف ان القيد اذا أصبح عائقاً للتقدم لا ضابطاً يخدم نظاماً صالحاً ، فللثورة عند ذلك محلها اللائق ، فأيد المراش الحرب الاهلية الاميركية التي وقعت في زمانه لتحرير العبيد ، مع انه عليم ان كثيرين كانوا في اميركا لا يزالون يجادلون في وجوب استعباد الرقيق ويدافعون بالسلاح عن هذا الحق . ومن اقوال المراش : ان الكون لا يزال مملوءاً برائحة البارود في سبيل الحرية .

ومن معاني الحرية التي نظر اليها بعض كتابنا وادبائنا : الحرية النفسية [٢٤] . والمقاصد بهذا النوع من الحرية كثيرة . فمنها ما يتصل بالاخلاق ويرجع الى التربية . واديب اسحق بناء على روسو وكتاب « اميل » قد ادرك شدة الحاجة الى الحرية في التربية ، وعرّض بالذين « يربون الاولاد كما تضرب الدراهم » ، درهم منسوخ عن درهم . ولكن من الحرية النفسية ما قد يعني اكتفاء الانسان بمحض الاعتقاد انه حر ، وتلك حرية الوهم . ومن الحرية النفسية ما قد يعني استغناء الانسان بنفسه ، وانسلاخه عن محيطه ، تحرراً من الواقع وتوصلاً الى شهود الغيب ، وتلك حرية لا تدخل في بحثنا [٢٥] .

---

٢٤) كما سماها الدكتور سليمان غزالة في كتابه : الحرية .

٢٥) عرض المفكر العربي الكبير ، ابو اسحق النظام المعتزلي ، الى جماعة « هجروا الديار والاوطان واقبلوا على اكل الحشيش ومساكنة الجبال ومرافقة الوحوش ، فخف دماغهم واخذهم الماليخوليا ، فتعجلوا بالمد السوداء وذهبت اعمالهم هباء ولم يحصلوا الا على سراب يحسبه الظمآن ماء . » (مفيد العلوم للخوارزمي) ، وهو كلام شديد الانطباق على جماعة « الحرية »

وعالج ادباؤنا ومفكرونا قضية المساواة ، وفهموها كما فهمتها وأقرتهـا الثورة الفرنسية ، اي : مساواة امام قانون واحد ، يسري على جميع المواطنين ، يمثلون كلهم امامه ، لا فرق بين غني وفقير ، وضعيف وقوي ، وابناء مذهب ومذهب [٣٦] . ومن يراجع آثار الطلائع من ادبائنا يجدهم جميعاً كثيري الالتفات الى قضية المساواة . ذلك لان الامبراطورية العثمانية كانت مبنية الاحكام على الدين والتفريق في القضاء بين ابناء المذهب والمذهب ، يضاف الى ذلك نقائص صارخة ، كهضم حقوق الطبقات الهابطـة في السلم الاجتماعي ، ومحـاباة الطبقات الرفيعة ، ومراعاة « المحسوبيات » ، وشيوع الرشوة ، وما اشبه . وقد اتخذ التدخل الاجنبي حجة من هـذا كله ، ففرض محاكم خاصة تنظر في قضـايا الاجانب ، ونجح في استغلال الاستياء المشروع الذي كانت تبديه عناصر مختلفة في البلاد . فكان من الطبيعي ان يشتد طلب ادبائنا ومفكرينا للمساواة ، حرصاً على مماشاة الرقيّ وانصافاً لجميع المواطنين ، وقطعاً للحجج الاستعمارية .

وتفرعت من قضيـة المساواة لدى ادبائنا ومفكرينا مسألة الرجل والمرأة وهـل يتساويان ؟ وقد القى الدكتور شبلي الشميّل محـاضرة جنح فيها الى ترجيح جانب

الذين يستهدفون شهود النيب . وغني عن البيان ان حرية الشرود في البراري ، والتنسك ، والرياضات الروحية قليلة الجدوى الاجتماعية والسياسية ، وهي رد فعل انهزامي أمام الظلم ، ولكنها لبست ، احياناً ، اشخاصاً يروعنا سموهم الخلقي وتقاوم النفسي كابن ادهم .

٣٦) نستطيع ان نسوق شواهد لا حصر لها في هذا الباب . ولكننا نكتفي بشاهدين من اديب اسحق والمراش . قال اديب اسحق : « انما حقيقة المساواة ان تكون الاحكام سواء على من هم بالنظر اليها سواء ، يعني ان تجرد النصوص الحكمية من كل ما يجعل بعض الناس فوق بعض ، وتنزه عن كل ما يفتح باب النجاح لبعضهم دون الآخرين ، وتطهر من كل ما يشف عن شيء من ذلك ان يؤدي اليه ، فتكون امن الخائف وملاذ الفازع ونصفة المظلوم وسدا سديدا في وجـه الجريء . » وقال المراش : « ان اعظم المقومات لصحـة السياسة واقامـة الحق ، هو مجرى شرائعها متساوية على كل ابنائها بدون ادنى امتيـاز بين الاشخاص او تفريق بين الاحوال . فلا يجب الاخذ بيد الكبير ودفع الصغير . ولا الالتفات الى الغـني والاعراض عن الفقير . ولا موازرة القوي وموازاة الضعيف . بل يجب معـاملة الجميع على حد سواء كيلا يقع خلل في نظام الحق . » (راجع تتمتها في باب النصوص من هذا الكتاب) .

الرجل ، فكانت موجة قوية من الاخذ والردّ . وسبق لأديب اسحق ان نظر في الموضوع ، فشخص الى هيكل وحيه ، الى الثورة الفرنسية ، فرأى – على تعبيره – ان « روبسبيير رسول المساواة الكبير ... نسي نصف النوع الانساني . » وبالفعل ، ان الثورة الفرنسية لم تعترف للمرأة بحق مساواة الرجل ، وكان اعلام مفكري الثورة ، لا سيما روسو ، متحاملين على المرأة . الا ان اديب اسحق قرّر ان « المرأة غير الرجل » وبذلك ترك الباب مفتوحاً ، فلم ينف مساواتها ، كما انه لم يثبتها . واذا خرجنا عن موضوع المساواة وجدنا ادباءنا ومفكرينا جميعاً يعترفون بسموّ مكانة المرأة وبوجوب احترامها وتعليمها وانهاضها . ومن هنا شاع على ألسنتهم القول : الامة نسيج الامهات !

اما النظر الى الطبيعة والتعلم منها ، شأن أعلام فرنسا في القرن الثامن عشر ، فهو سمة بارزة من سمات أدبائنا ومفكرينا . وقد مر معنا كيف ان فرنسيس المراش رأى ان بناء الحجة ، في وجوب الحرية ، على شاهد الطبيعة مذهب لا يخلو من السطحية ، وكان فرنسيس المراش في ذلك اعمق من غيره . إلا ان ادباءنا ومفكرينا – على وجه عام – اتجهوا الى الطبيعة اسوة بالمفكرين الفرنسيين في القرن الثامن عشر ، واستخلصوا ، كما استخلص اولئك ، ان الحرية والمساواة وسائر المطامح الانسانية انما هي حقوق اثبتتها الطبيعة للانسان . واذن ، فقد كان مبدأ الرجوع الى الطبيعة له مغزى سياسي اجتماعي ، وتلك هي أهمية هذا المبدأ بقطع النظر عن خطأه او صوابه . فاديب اسحق ، مثلاً ، حين يقرر الحرية الطبيعية لا يقف عند حد التقرير ، ولكنه يرسل الصيحة الى النضال فيقول : « كل ما يذهب بالحرية الطبيعية تقييداً او إضعافاً او محواً كلياً ، فهو اختلاس او جهل بماهية الوجود ، لانَ العبودية ، اما ان تكون اجبارية ، فهي من جانب المستعبِد سرقة واتلاف لاقدس حقوق الوجود ، واما ان تكون اختيارية فهي من جانب العبد جهل وعمى قلب يخرج بهما عن ان يكون انساناً . »

يضاف الى ذلك ان التوجه الى الطبيعة كان له أثر مبارك في حقن أدبنا وادبائنا بدم جديد . فانهم لما خرجوا الى جو الطبيعة الطلق بدأوا يخرجون عن الكتب

والتقيد بالقواعد المرسومة في الاساليب والافكار . هذا المنفلوطي يهتف بالشاعر داعياً اياه الى التفلت والانطلاق :

« انت كالطائر السجين في قفصه ، فزق عن نفسك هذا السجن الذي يحيط بك وطر بجناحيك في اجواء هذا العالم المنبسط الفسيح ، وتنقل ما شئت في جنباته واكنافه ، واهتف باغاريدك الجميلة فوق قمم جباله ورؤوس اشجاره وضفاف انهاره ، فانت لم تخلق للسجن والقيد ، بل للهتاف والتغريد ! »

وهذا جبران خليل جبران يحاول دفع الناس الى الاحساس بالبون الشاسع بين حالتهم والحالة الطبيعية ، ويدعوهم الى الحرية ونور الشمس :

« امام عرش الحرية تفوح الاشجار بمداعبة النسيم ، وامام هيبتها تبتهج بشعاع الشمس والقمر . على مسامع الحرية تتناجى العصافير ، وحول اذيالها ترفرف بقرب السواقي . في فضاء الحرية تسكب الزهور عطر انفاسها ، وامام عينيها تبتسم لمجيء الصباح . اما البشر فمحرومون هذه النعمة لانهم وضعوا لارواحهم الآلهية شريعة عالمية محدودة وسنوا لاجسادهم ونفوسهم قانوناً واحداً قاسياً ، واقاموا لاميالهم وعواطفهم سجناً ضيقاً مخيفاً ، وحفروا لقلوبهم وعقولهم قبراً عميقاً مظلماً . فاذا ما قام واحد من بينهم وانفرد عن جامعتهم وشرائعهم قالوا : هذا متمرد شرير خليق بالنفي ، وساقط دنس يستحق الموت . ولكن هل يظل الانسان عبداً لشرائعه الفاسدة الى انقضاء الدهر ؟ ام تحرره الايام ليحيا بالروح وللروح ؟ ايبقى الانسان محدقاً بالتراب ؟ ام يحول عينيه نحو الشمس ليحيا بنورها ويحترق بنارها ؟ »

والخلاصة ان مبدأ الرجوع الى الطبيعة يعني في الحقيقة ان الانسان ينظر الى الطبيعة فُيفيض عليها حياة من حياته ، ويقيمها مقام المشارك له في عواطفه وافكاره وامانيه . وهذا هو جوهر الرومانتيكية . الا ان من الرومانتيكيين من يتصور الحالة الطبيعية — وهي الحالة المثلى — ويرى ان لا امل في العودة اليها ، فيعتبر نفسه ، والانسان جملة ، اشبه بملاك طرد طرداً نهائياً من الفردوس ، فهو حزين كئيب والطبيعة حزينة كئيبة [٢٧] . ومن الرومانتيكيين من يشهد الفرق بين الحالة الطبيعية

٢٧) ترك هذا النوع من الرومانتيكية اثرا بليغاً في عدد من ادبائنا ابرزهم المنفلوطي .

— الحالة المثلى — والحالة الراهنة ، فيرسل الصيحة الى النضال . ولئن كانت هذه الصيحة مبعثها في الغالب شعور يحس الهدف ، ولا يرسم طريق الوصول ، فانها مع ذلك خير من رومانتيكية الندب والعويل .

بقي معنى لا بد لنا من ذكره ، يقصده ادباؤنا ومفكرونا حين يقولون : « الطبيعي » . فلقد نظروا في اشياء الطبيعة وتصرفاتها ، فاذا بهذه الاشياء والتصرفات لها خصائص ونواميس تسري عليها . فالحجر اذا افلت من فوق وقع الى تحت ، وهذا طبيعي . والفحم اذا تمت فحميته اسود ، وهذا طبيعي ايضاً . ونظر ادباؤنا ومفكرونا في السياسة والاجتماع فاذا للامور والتطورات السياسية والاجتماعية خصائص ونواميس تسري عليها . فالاستبداد ، مثلا ، اي : « حكم الحاكم بامره » كما عرّفه الكواكبي ، له في صفاته ومسالكه طبائع ملازمة له . ومن هنا كان عنوان كتاب الكواكبي « طبائع الاستبداد » . ولا يجوز القول بان ادباءنا ومفكرينا قبسوا هذا الاستعمال من اعلام الفكر الفرنسي وحدهم ، فقد سبق اليه ابن خلدون اذ يقول ، مثلا : « من طبيعة الملك الانفراد بالمجد [٢٨] » .

ولم ننبه الى هذا المعنى من معاني « الطبيعة » و « الطبيعي » ، لنبين محض طريقة من طرق استعمال الكلمة ، ولكن لنظهر ما وراء ذلك من صحة وعمق فكر . فان معرفة ادبائنا ان الامور والتطورات السياسية والاجتماعية — كالانظمة واشكال الحكم والانقلابات — لها طبائع مخصوصة انما هي معرفة ثمينة تمكننا من انتظار ما يجوز ، او يجب انتظاره ، في شأن هذا الضرب من ضروب السياسة او هذا النوع من انواع الاجتماع . فاذا كنا امام « حاكم بامره » توقعنا الاستبداد والجور لان ذلك طبيعي ، ولم يحق لنا ان نتوقع زوال الاستبداد والجور الا بتغيير النظام الذي يحكم فيه حاكم بامره ، لان طبيعة الشيء لا تتغير الا بتبدل الشيء نفسه ، فالفحم لا يخرج عن الفحمية اذا دهن بالطبشور ، ولكنه ينقلب اذا صار ماساً .

وهناك درس آخر افاده ادباؤنا ومفكرونا من الثورة الفرنسية وعلامها الفكريين ، ذلك هو فصل الدين عن الدولة . وقد شاءت بعض الجهات في الثورة الفرنسية ان

٢٨) عنوان فصل من فصول المقدمة .

تتدخل في امر الدين ، فترسم للناس عبادة جديدة هي عبادة العقل ممثلاً في امرأة ، ولكن الرأي الاخير قرّ على ان يفصل الدين عن الدولة ويحال بين السلطات الروحية والتدخل في الشؤون الزمنية . وصحيح ان عدداً من ادبائنا ومفكرينا كالشدياق في « الفارياق » ونوفل الطرابلسي في « سياحة المعارف » وقفوا موقف المستنكر من الثورة الفرنسية لمسّها شأن الدين . وصحيح ايضا ان بعض مفكرينا كالدكتور شاكر الخوري في « مجمع المسرات » وقفوا موقف النقــد من روسو وفولتير لانهم خالوهما يريدان نقض[٢٩] الدين . ولكن ليس من شك ان رجال الادب والفكر عندنا ايدوا جميعاً مطلب فصــل الدين عن الدولة وحصر نفوذ السلطات الروحية في نطاق خاص بهــا لا تتعداه . ومفهوم ان اوضاع الامبراطورية العثمانية كان فيها ما يدفعهم دفعــاً الى تأييد هذا المطلب ، فشاع على الالسنة والاقلام الشعار التالي : « الدين لله والوطن للجميع » .

وبهذا ننهي جانباً آخر من بحث ادبائنــا امام الثورة الفرنسية ومفكرينا . وواضح اننا كنا الى هذا الحد نستعرض الذين رأوا في الثورة دروساً ونتائج ايجابية ، فلنلتفت الآن الى الذين حاولوا ان ينقدوا الثورة نقداً يصحّ اعتباره .



٣ ــ نقــد ورد

هل جاءت الديموقراطية بكل ما ينتظر منها ؟ مي زيادة

هذه التربية الجشعة المحضة ، التي يحاولون تسخير العلم لتأييدها ، فيقوم نياتش ونوردو فيلسوفا الالمان ، مدفوعين برغائب حكومتهما العسكرية ، يشدان ازر القوي في القضاء على الضعيف ، وتحطيم اسنان الغير ، واحتكار الحياة والقوت والارتزاق ، هي تربيــة فاسدة تماماً ، تجر الانسانية الى الوحشية وتجعل العالم غار وحش ضار كله بقايا عظام رجسة . ولذا وجب

٢٩) مع ان الواقع انهما كانا مؤمنين يأخذان بمبدأ الربانيين « Déistes ».

دك معالمها وتقويض اساسها الراسخ واقتلاع جذورها واحراقها وتذريتها في الآفاق .

قاسم امين

قد تغيرت القيود وتنوعت السلاسل واستبدل النخاسون بغيرهم .

أمين الريحاني (فوق سطوح نيويورك)

نعم ، لا يقتضي ان يتساوى العالم الذي صرف حياته في تحصيل العلم النافع او الصنعة المفيدة بذلك الجاهل النائم في ظل الحائط ولا المجتهد المخاطر بالكسول الخامل ...

(ولكن) الانسان لا يكون انسانا ما لم تكن له صنعة مفيدة تكفي معاشه باقتصاد ، لا تنقصه فتذله ولا تزيد عليه فتطغيه ...

وقد أصبح للثروة العمومية اهمية عظمى لاجل حفظ الاستقلال .

كلمات للكواكبي

جعلنا سبيلنا في هـذا الفصل ان نعرض لادبائنـا ومفكرينا الذين حاولوا ان ينقدوا الثورة الفرنسية الكبرى نقداً يصح اعتباره ، ونحن نعني ، بالطبع ، اننا ان نعرض للذين لم يستطيعوا ان يروا في الثورة الا بعض مظاهر وقفوا عندها فأساؤوا حتى فهم تلك المظاهر ، وكتبوا ، وهمهم التشنيع على الثورة او الاغراب الادبي في سرد القصص والحوادث . وقد كان للروايات التي نقلتها الى العربية « مجلة روايات الجيب » عن رافائيل سباتيني والبارونة اوركزي أثر سيء في تصوير الثورة الفرنسية . فنحا هذا النحو بعض ادبائنا المحدثين كالاستاذ حسن الشريف في كتابه : « تاريخ ما أهمله التاريخ » اذ راح يشبع قراءه حديثاً عـن مواضيع كالملكة ماري انطوانيت و « حزنها الملكي » كأن الحزن ايضاً طبقات كطبقات المجتمع ! ومن هذه الطائفـة ايضاً الاستاذ عبـدالله عنان الذي كتب سفراً في المؤامرات السياسية في التاريخ ، فذكر غراكوس بابوف وحركته ، واظهر في ما سطره عجزاً ذريعـاً عن فهم الثائر الفرنسي وحقيقة مكانته [1] .

مر بنا ان الادباء والمفكرين العرب ، على وجـه الجملة ، وقفوا موقف المعجب

---

1) لعل خـير الكتب التي تعالج مرحلة من الثورة الفرنسية ، وتجري على الاسلوب الروائي ، كتاب « ١٤ تموز » للاستاذ يوسف ابرهيم يزبك .

المتعلم من الثورة الفرنسية وافذاذ مفكريها . ولكن تقصير الانقلاب العثماني عن تحقيق الاصلاح المنشود أضعف الحماسة ، بعض الشيء ، المبادىء التي رفع الانقلاب لواءها ، وهي مبادىء الثورة الفرنسية . كما ان « حقوق الانسان » وشعارات « الحرية والاخاء والمساواة » لم تصدّ دولاً تدين بها ، او بما يماثلها ، عن الزحف نحو الشرق بغية التسلط عليه . يضاف الى ذلك ان « حقوق الانسان » وشعارات « الحرية والاخاء والمساواة » رغم قيامها في المجتمعات الاوروبية لم تلغ كفاحاً داخلياً مستمراً في تلك المجتمعات ، ومنها فرنسا نفسها . فقد ظل ادباؤنا ومفكرونا يسمعون ، مثلاً ، بعمال يضربون ، وبمفكرين يطالبون بالحرية والمساواة والاصلاح ، فخالط بعضهم شك في ان الثورة الفرنسية غيّرت شيئاً ، بل بات بعضهم يعتقد بان مبادىء شبيهة بمبادىء الثورة الفرنسية ، تخالف طبيعة الامور ولا يتهيأ تحقيقها . وبلغت اذهان الادباء العرب اصداء من فردريك نيتشه الذي حمل حملة شعواء على الثورة ومبادئها . وكذلك لم تلبث ان بلغتهم اصداء من غوستاف لوبون وموقفه العدائي من الثورة . وقامت الحركات النازية والفاشستية ، فكانت مبادىء الثورة الفرنسية من اهمّ الاهداف التي صبت عليها نيرانها .

كل هذه عوامل اضعفت الاعجاب لدى بعض مفكرينا وادبائنا بالثورة الفرنسية ، وضاءلت الثقة بقيمة مبادئها .

...

وكان فرح انطون في طليعة أدبائنا الذين اخذوا يديرون ظهورهم الى مبادىء الثورة بعد ان كانوا شديدي الحماسة لها . على ان فرح انطون ، وقد انتهى الى الاعتقاد بالاشتراكية ، ظن ان اعتقاده الجديد يضائل من قيمة الثورة الفرنسية ومبادئها ومنزلتها في التقدم التاريخي . وكأن الدكتور شبلي الشميل قصد الرد على فرح انطون حين كتب القطعة التالية ، وفيها يبين ان الثورة الفرنسية كانت مرحلة عظيمة في سير التقدم ، ولكنها ليست بالمرحلة الاخيرة ، ولا هي تفي بمطالب الاصلاح جميعها على ممر الايام . قال الشميل :

« ... الغريب ان هؤلاء الذين كان امثالهم يجورون في الحكم على فرنسا في الثورة الاولى يعترفون جهارة اليوم بانه لولا تلك الثورة لما ارتقى الانسان واصطلح نوع الاحكام الى ما هي عليه الآن ليس في فرنسا وحدها بل في اوروبا كلها ، بل في العالم

قاطبة . وهؤلاء الذين يعترفون بذلك اليوم يؤاخذون شعب فرنسا على عدم رضاه من نظام احكام كانت تصلح له من مائة عام ولم تبق تصلح له اليوم ، لان الهيئة الاجتماعية المتمدنة ارتقت كثيراً عما كانت عليه من مائة سنة مع بقاء نظام الاحكام على حاله ... فاضطراب فرنسا وعدم رضاها من نظام جمهوريتها لا يفيدان كما يتوهمه قصار النظر انها تميل للرجوع الى الملكية ، او انه اذا قام فيها ملك حازم يستطيع ان يقبض عليها بيد من حديد ويسير بها كيف شاء . فهذا حلم يجوز على عقول الاطفال ولكن لا يجوز على الذين يدركون بعض الشيء من اسرار العمران ، ففرنسا لن تعود الى الملكية . ولكن الجمهورية التي تطلبها فرنسا عن حاجة في النفس مندفعة اليها بالطبع لا عن اجهاد في قوى العقل ، والتي تتوقعها اوروبا ، هي الجمهورية الحقيقية الديموقراطية التي تصبح فيها الامة الكل والحكومة لا شيء ، بخلاف حكومات اوروبا وجمهورية فرنسا اليوم ، فانها كلها متقاربة في نظاماتها متساوية في نقصها ، ولو اختلفت في اسمائها ، وكلها مقصرة عما تتطلبه الهيئة الاجتماعية اليوم وفي المستقبل القريب ...

« ... ولا سيما ان الاسباب الداعية اليوم الى النفور من نظامات الهيئة الاجتماعية واحكامها هي اثقل جداً على عاتق الامم مما في عصر الثورة الاولى ، فالثورة الاولى اسبابها الاستئثار بالاعناق والارزاق لشرف المولد . وقد كان الناس قليلهم يدرك حق المساواة واما اليوم فالثورة هي ... بين قوى العقل المستنبط واليد العاملة ، وبين فساد نظام الاحكام ، حتى أصبحت مستنبطات العقول وأعمال الايدي خادمة لـ (نفر) يستفيدون منها . »

وقد كان على التاريخ ان يقطع شوطاً كبيراً ، فتقع الحرب العظمى الاولى ، وتقع الثورة الروسية سنة ١٩١٧ ، ثم تقع هذه الحرب بين قوى التقدم من جهة وقوى الرجعية التي تتزعمها المانيا النازية . كان على كل ذلك ان يقع ، وان تعثر فرنسا ثم تأخذ في النهوض من جديد ويهتف الجنرال ديغول : من يقل فرنسا يقل ثورة ، ويتحدث عن « فرنسا الغد التي لن تكون كفرنسا الامس » ، وعن الجمهورية الرابعة ، وتثار في بريطانيا وكل مكان مشكلة الضمان الاجتماعي ، وتمتلىء الدنيا حديثاً عن الديموقراطية الصحيحة ، والعهد العالمي الجديد ، كان على كل ذلك ان يقع

حتى يظهر كلام الدكتور الشميّل في مدى عمقه وصحته .

قبـل فرح انطون ، ارسل أديب اسحق هذه الكلمات التي تجذبنـا الى النظر والتأمل فيها ، قال :

« ليس في الوجود الطبيعي ولا المدني من واجب الا بحق يقابله . وليس فيه من حق الا بواجب يقابله . فاذا وجب على الوالد للهيئـة المدنية تعليم ولده فقد حق له امكان ذلك التعليم عـلى قدر الكفاء . واذا حق للهيئـة الحاكمة اجباره عليه فلقد لزمها توفير اسبابه وتمهيد سبيله على قدر الامكان . فان كان الوالد من الذين اصابهم النظام المدني باختلاله ... فهو فقير معدم ... لا يقوى على تعليم ولده ... فالهيئة الحاكمة مأمورة بأن تيسّر له ما لا يستطيع . »

وهي كلمات ايدها الكاتب بقول الاقتصادي الفرنسي الشهير ساي : « ان مركز المحترف العامل يدّني مقدار دخله الى حد انه لا يكاد يفي بحاجتـه الا بشق النفس ، فاذا استطاع تربية الولد وتعليمه حرفة فهو لا شك عاجز عن ان ينيله من العلم القـدر الذي يقتضيه حسن الحال في الهيئة المدنية ، فان رامت هذه الهيئة التمتع بنفائع هذا القدر من العلم في الفئة المحترفة العاملة ، وجب عليها ان تبثه فيهم على نفقتهـا بانشاء المدارس المجانية . » (الاقتصاد ، الكتاب ٣ ، الفصل ٦) .

فاديب اسحق يثير ، في ما قاله وما قبسه من ساي ، مشكلة عظمى هي مشكلة الذين يصيبهم النظام المدني باختلاله ، على حد تعبيره ، وهو يعني اولئك الذين يقعون ضحية العجز الاقتصادي فـلا يستطيعون ان يعلموا اولادهم . والى جانب ذلك يثير اديب اسحق مبدأ عاماً يتناول بمداه شؤوناً كثيرة غير التعليم الالزامي ، فما هو هذا المبدأ العام ؟

يقول كاتبنا : « اذا وجب على الوالد للهيئة المدنيـة تعليم ولده ، فقد حق له امكان ذلك التعليم على قدر الكفاء . واذا حق للهيئة الحاكمة اجبـاره عليه ، فقد لزمها توفير اسبابه وتمهيد سبيله على قدر الامكان . »

واذن فليس يكفي فرض الواجبات على الناس والمجتمع ، بل يتحتم على الهيئـة الحاكمة ان تيسر لهم وسائل القيام بالواجبات المفروضة . وبطريق القياس ، ليس يكفي

ايضاً منح الحقوق للناس في المجتمع ، بل يتحتم على الهيئة الحاكمة ان تيسر لهم الوسائل الضرورية لممارسة الحقوق الممنوحة .

وبكلمة مختصرة ، ان القوانين والقرارات ، مهما تكن عادلة ، نزيهة ، انسانية ، تنحو منحى المثل الاعلى ، فهي لا تفي بالغرض المقصود منها ، بل قد تظل حبراً على ورق ، بل قد تنقلب ظالمة جائرة ، ان لم تكن قائمة على اساس يمكن من مراعاتها وتنفيذها ويغلق باب العذر والحجة على من يخالفها .

ولقد عرض كاتبنا نجيب الحداد لشيء من هذا ، تنبه اليه بتأثير من فيكتور هيغو وكتاب البؤساء ، قال :

« وضع « فيكتور هيغو » كتابه المشهور بعنوان « البؤساء » في ستة مجلدات كبيرة بناها على حكاية رجل حسن الاخلاق طيب القلب لم يخلق للشر والعدوان ، قضت عليه الضرورة القصوى ، وهي ضرورة الجوع او ضرورة البقاء التي فطر عليها الانسان ان يسرق رغيفاً من الخبز لاهل منزله وفيهم صغار اطفال يتضورون من الجوع . فقبضت عليه الحكومة بهذا الذنب الكبير وحكم عليه القضاة بموجب قانونهم بالإشغال الشاقة الى امد بعيد . وقد افرغ هيغو في هذا الكتاب كل ما حواه عقله الكبير من فلسفة الشقاء ، وكل ما شعر به فؤاده الكريم من واجب الرحمة والحنان ، وكل ما سمح به برهانه القاطع وحجته الدامغة من الطعن على القضاء في مثل هذا الظلم الشديد على فقير بائس يسرق رغيفاً لسد الرمق وقوام الحياة ، دفعته اليه ضرورة العيش وحب البقاء ، فاقدم عليه مضطراً غير باغ ولا عاد ، وليس من طبعه السرقة وحب الاذى ، فحكم عليه القانون القاسي بمثل ما يحكم به على سارق المال الكثير تدفعه اليه يد الطمع وفساد الطبع وحب الاذى والميل الى السرقة والاختلاس . »

وقال الكاتب نفسه يعالج مشكلة صغار الموظفين :

« لا يخفى ان حياة الانسان وحفظ وجوده هو الدافع الاكبر له في كل امر ، بل هو الطبع الغريزي الذي ينقاد اليه بالفطرة الحيوانية حتى يفضله بحكم الطبيعة على كل شيء سواه . . . فاذا ضاقت يد العامل (يقصد عامل الحكومة اي : موظفها) وكثر عياله وقل مورد رزقه من ضيق راتبه ووجد نفسه مدفوعاً الى حفظ وجوده بعامل

الخلقة والفطرة، هانت عليه الذنوب وسهلت لديه اسباب المخـالفة والخروج عن الواجب الخفي في سبيل صيـانة الحياة الظاهرة، وعن الغرض الوهمي في الحصول على الوجود الحي الذي هو حقيقة الانسان وانسان الحقيقة . ولما كانت اعمـال الحكومة التي تمس جانب الشعب مباشرة من طريق الحس قائمة على ايدي صغار العمال كالجندي والجـابي والكاتب والنـاظر ونحوهم، وكان هؤلاء الصغار في ضيق من العيش وقلة في الرزق وحاجة الى الانفـاق، لم يكن يؤمَن على الرعية من اهتضام حقوقهـا تلك اليد التي تسلمها الحكومة رعاية الشعب من جانب، وتدفعها الفاقة والحاجة الى ظلمه والتضييق عليه من جانب آخر، لا عن رغبة في الظلم او حب في السلب والاهتضام، ولكن عن حاجة في النفس وضيق في اليد، وكم قاد شر الى شر . »

وبكلمة اخرى، يريد اديب اسحق ونجيب الحداد ان يوجهـا النظر الى ما للضمان الاقتصادي من شأنٍ عظيم في ضمان القوانين، وحسن سير الحكومة، بل حسن سير المجتمع على وجه عام، وكون الحقوق والواجبات فيه ذات معنى للجميع .

ولكن، ما علاقة هذا كله بالثورة الفرنسية، وبانتقادها ؟

ان الثورة الفرنسية قـد اعطت الانسان والمواطن حقوقاً اساسية جداً، على ان ديدرو، مثلاً، كان يقول : ان الملكية (اي ما يملك الانسان) هي التي تجعله مواطناً [٣] . وبالفعل، اننـا نجد في الثورة الفرنسية تياراً قوياً يأبى اعتبـار الذين لا يملكون شيئاً مواطنين، ويريد تجريدهم من حقوق المواطن كحق الانتخاب مثلاً . وهو تيار قاومه الثـائر مارا مقاومة عنيفة كان من تأثيرها بالنتيجة ان تراجع هـذا التيار واندحر . ومع ذلك، فـلا شك ان حقوق الانسان والمواطن، وان شملت جميع المواطنين، نظرياً، فان كثيرين من المواطنين لا تتهيأ لهم عمليـا ممارستهـا كما ينبغي . اذ ليس يكفي ان تعلن للمواطن حريته الفكرية، مثلاً، وحقه في الدعوة الى رأيه، مع كون هذا المواطن لا يستطيع القراءة والكتابة ولا يتمتع بالطاقـة الاقتصادية التي تمكنه من بث فكرته عن طريق التأليف والطباعـة . وبكلمة اخرى ان الحرية السياسية والمدنية لا تتوطد ويعز شأنها ما لم توفر باليسر الاقتصادي الشامل .

٣) انسيكلوبيدي، مادة « Représentants » .

وهذا هو وجـه النقص الذي حاول ان يتلمسه كاتبانا اديب اسحق ونجيب الحداد ، الا انهما لم يهتديا اليه صراحة ، بل لمساه لمساً عابراً من طرف ربما خفي عليهما . وقد ذهب نجيب الحداد مع هيغو الى ان الرحمة المفقودة من قلوب القضـاة ، هي النقص الذي اذا عوض فض المشكلة او كاد . وربما مرت هنيهات بالكاتبين كليهما طغت في نظرهما الالوان القاتمة على نظام اوروبا عامـة ، لا فرنسا خاصة ، فقررا ان الحرية فيها « اسم بلا مسمى عند القوم ، وان تكرار ذكرهـا في محافلهم ، ورسمهـا في مجامعهم ، هو من قبيل اللغو الساقط والتمويه والتطرئة »[٣] ، وان الهمجية السوداء عند الزنوج تقابلها « الهمجيـة البيضاء »[٤] في اوروبا ، فكأن الثورة الفرنسية وهبّات الاصلاح جميعها لم تكن ، او لم تجدِ فتيلا . وقد يكون مصدر هذا الاجحاف ذهابا مع عاطفة وطنية مستفزة ، الا انه عند التأمل والتحليل يرجع الى ان الكاتبين لم يستطيعا ان يفهما حق الفهم وجه النقص الذي ذكرناه في الحرية التي اسفرت عنها الثورة الفرنسية .

وكأنه كان على اديب اسحق ونجيب الحداد ، كما كان على فرح انطون ، ان يدعا مثل هذا المجال للدكتور شميل يخوض فيه . وقد رأينا كيف تصدى له الدكتور الشميل من غـير ان يمسّ بمنزلة اوروبا وقيمة الثورة الفرنسية ، ومـا حققته من نهوض ورقيّ .

على اننا يجب ان لا ننسى ان فرح انطون وأديب اسحق ونجيب الحداد ، في هذا الموقف الذي وقفوه من الثورة الفرنسية ، كانوا يطمحون الى مزيد من الاصلاح ، لا الى نقصان ، وكانوا يريدون مضياً في التقدم لا رجعة ، فاذا نقـدوا الثورة فلأنها قصرت عما ينشدون .

أما غوستاف لوبون فقد نقد الثورة لانها كانت في رأيه حادثاً عبثاً ، ولو انهـا لم تحدث قط لما ضاع شيء على فرنسا من نتائجها . وغوستاف لوبون مؤلف مدح الحضارة العربية ، فكان ذلك ممهداً لاشتهاره في البلاد العربية ، فنقل اكثر كتبه الى لغـة الضاد ، ومنها كتاب اسمه « روح الثورات والثورة الفرنساوية » ، عربه محمـد عادل .

٣) الكلمة لاديب اسحق .

٤) الكلمة لنجيب الحداد .

زعيتر . ولعله الكتاب الوحيد الذي يستطيع ان يتناوله القارىء باللغة العربية ، ويطلع فيه على محاولة طويلة في تقدير الثورة الفرنسية . ذلك لان الكتب الخاصة بالثورة معدومة تقريبا في لغة الضاد ، وقد تناولنا نحن سفراً يجمع بين الثورة الفرنسية ونابليون ، ألفه محمد صبري ، وجله من باب تقرير الوقائع .

وهكذا كاد يخلو الجو لغوستاف لوبون . وتتمثل خلاصة رأيه ، في الثورة ، في هذه السطور التي حوتها مقدمة كتابه « روح الثورات ... » : « ولا ريب في نيلنا (*) منذ زمن طويل ، ما بلغنا اليه ، وما بلغت اليه امم كثيرة قبل الثورة الفرنساوية من المساواة والحرية سواء اشتعلت هذه الثورة ام لم تشتعل . »

وأقل ما يقال في هذا الكلام انه فاقد البرهان . وكيف نستطيع ان نجزم ان فرنسا كانت تنال نتائج الثورة بدون الثورة ؟ وقول غوستاف لوبون : ان امما كثيرة بلغت قبل الثورة ما بلغته فرنسا من المساواة والحرية ، فيه موضع للنظر . فان هذه الامم الكثيرة ليست في الحقيقة الا اثنتين : الامة الانكليزية والامة الاميركية ، وكلتاهما نالت الحرية والمساواة بثورة كبيرة شبيهة بثورة فرنسا !

وقد رد اميل اوليفيه على غوستاف لوبون ، فقال : « هل يأسف لوقوع الثورة الفرنساوية من لا يريد ان يكون مسخراً لصيد الضفادع في الغدران كي لا تقلق الامير الاقطاعي في نومه ، وهل يترح لحدوثها من يريد ان لا يرى كلاب شاب عات تخرب حقله ، وهل يحزن لنشوبها من يريد ان لا يسجن في الباستيل لولوع رجل من بطانة الملك بزوجته او لتفوهه بكلمة ضد رجل نافذ او لغير ذلك ، وهل يغتم لاشتعالها من يريد ان لا يبغي عليه وزير او موظف او وكيل ، وان لا يكون تحت رحمة احد من الناس ، وان لا يؤخذ منه اكثر مما يفرض عليه ، وان لا يهينه ويشتمه من يدعي بانه فاتح ؟ ولذلك فاني بصفتي من الطبقة المتوسطة اشكر اولئك الذين انقذوني بعد عناد شديد من الانيار التي لولاهم لبقيت رازحاً تحت اثقالها ، وابارك لهم رغم زلاتهم . »

---

*) نقلنا العبارة كما عربها محمد عادل زعيتر ، وفيها اضطراب ، وصوابها : « ولا ريب في اننا كنا نلنا منذ زمن طويل الخ ... »

فكان ان رد عليه غوستاف في مقدمة «روح الثورات ...» بما يلي : «مصدر هذا الوهم الشائع — حتى بين كثير من اقطاب السياسة — هو المبدأ القائل بان طرق الحياة عند الامة تكون بحسب نظاماتها ، والواقع ان الطرق المذكورة تابعة للمبتكرات العلمية والاقتصادية ، فتأثير القاطرة في التسوية بين الناس خلاف تأثير المقصلة .»

وصحيح الى حد كبير أن طرق الحياة عند الامة لا تكون بحسب نظاماتها ، كما يقول لوبون . ولكن لماذا حدثت الثورة الفرنسية ؟ انها حدثت لان الحياة الفرنسية جرت شوطاً في التغير ، عقلياً ومادياً ، بينما بقيت النظامات على ما هي ، فوقع التناقض بين الحياة الفرنسية الجديدة ، الآخذة في الظهور والنمو ، وبين النظامات القديمة . ولما كان من المستحيل ان يقتنع جميع ممثلي النظامات القديمة بان دورهم انتهى ، وقع الاصطدام بينهم وبين ممثلي الحياة الجديدة . واذن فالثورة الفرنسية نشبت لتقيم نظامات جديدة ترضي بها مطالب الحياة الجديدة ! على ان طرق الحياة عند الامة تتأثر ايضاً بنظاماتها . وقول لوبون ان الطرق المذكورة (طرق الحياة) تابعة للمبتكرات العلمية والاقتصادية ، يشف عن اختطاف لتعابير ماركسية لم ينزلها حق منزلتها . وكأنه شعر بالخطأ فقال : «ان تأثير القاطرة في التسوية بين الناس خلاف تأثير المقصلة» مع ان سياق فكرته كان يجب أن يدعوه الى اثبات كل التأثير للقاطرة ونفي التأثير عن المقصلة ! اما ان تأثير القاطرة في التسوية بين الناس خلاف تأثير المقصلة ، فهذا مما لا يجادل فيه احد ، الا ان القاطرة بمجرد وجودها لا تكفل التسوية بين الناس ، بل لا بد من نظام يضمن هذه التسوية مع القاطرة ، ولا بد لهذا النظام ، في ولادته وحمايته ، من تأييد حتى بالمقصلة احياناً !

غير ان غوستاف لوبون كان اقل شراً على سمعة الثورة الفرنسية من رجل آخر هو فردريك نيتشه ، بلغت آراؤه وافكاره البلاد العربية عن طريق النقل . وكان فرح انطون في طليعة من اهتموا من ادبائنا بنيتشه ، وان يكن فرح لم يقف منه موقف المسلّم المحبذ . والى القارىء مـا نقله فرح انطون عن الكاتب الالماني بشأن الثورة الفرنسية ، قال :

« ومن اقواله (اي نيتشه) ان الاديان والثورة الفرنسية هي التي افسدت مبادىء

البشر في الدنيا وخربت طريق الانسانية ، وصرفتها الى طريق اخرى ادت الى الاضطراب والفوضى الحاضرة . فان (المساواة والاخاء والحرية) التي وضعت تلك المبادىء اساسها قد ادت الى تسويد الصغار على الكبار وترجيح الخاملين القاصرين على اهل الكفاءات ، وجعلت الفضل في الدنيا لكثرة العدد لا للاستعداد الطبيعي ، واقامت « سلطنة الشعب » التي هي سلطنة تطيع المواشي . وقال في فصول عديدة في كتابه « بدء الظلام » وكتابه « ما بين الخير والشر » وكتابه « زاراتوستا » : « ان الاديان ومبادىء الثورة الفرنسوية المتولدة منها ، والناشئة عنها ، هي أشد وباء اصاب الانسانية وهدم الكفاءات فيها ، ويكاد يفني قواها كما يفني داء التدرن قوى المسلولين . وان نتيجة هذا الداء ستكون انحطاط الانسانية الى ما هو ادنى من انحطاطها الحالي اذا لم يحتط البشر له ويحدث لديهم رد فعل في شأنه (٦) . »

واهتم اديب آخر ، هو فيلكس فارس ، بنيتشه فعرب له كتابه : « هكذا تكلم زرادشت » . وفيلكس من ادبائنا الذين ابتهجوا بالدستور العثماني ، واكثروا عنه الخطب فعرفوا بـ « خطباء الدستور » . ولا شك ان فيلكس ، اذ ذاك ، كان يحب الثورة الفرنسية ويستلهمها ، بل هو ثابر على هذا الحب ، فنحن نقرأ له في احدى خطبه ، في كتابه « رسالة المنبر » ما يلي : « هدم الرجل الباستيل لانه اصبح معقلاً لمن اختلسوا حق الحرية والحياة ، وجاءت المرأة بدورها تهدم جدران بيته (اي بيت الرجل) ، لانه كأسياد الباستيل اساء استعمال سلطته . » وهذا كلام يشف عن تأييد للثورة الفرنسية .

الا ان فيلكس ، مع ذلك ، وقف موقف المؤاخذ للثورة ، فقال (الكلام من رسالة المنبر) :

« خرجت اوروبا الى عهدها الجديد ولكن عيسى لم يكن مهديها ولا محمد

---

٦) نسخنا هذا الكلام عن مقدمة فرح انطون ، لرواية ديغنس ، التي عربها عن الثورة . وقد وقع فرح في بضع هفوات ، فكتاب نيتشه « ما بين الخير والشر » هو في الاصل « وراء » ، او « فوق الخير والشر » ، وكتابه « زاراتوستا » هو في الاصل « هكذا تكلم زراتوسترا او زرادشت » .

ماشياً في طليعتها . كان انجيلها حقوق الانسان الـتي كتبها الثائرون بالدم المتمرد . وكان قرآنها القوانين التي سنها نابليون لاقامة الموازنة بين الحقوق . ولكن هـذا الانجيل الحديث الذي استمد من انجيل عيسى المساواة والانصاف لم يتناول سواهما من مبادىء الاحسان والعطف والمغفرة والرحمـة . وهذا القرآن الجديد ، قوانين نابليون المستمدة من مذاهب الائمة في الشرع الاسلامي ، وقف عند حد التنظيم المادي المحض لحقوق الناس ، فقصر عن الأخذ بمـا في قرآن النبي الهادي من الدعوة الى المعروف والبر بالأدنين والأبعدين من بني الانسان . »

وهكذا نجد كاتبنا يود لو كانت الثورة لم تهمل القيم الدينية المعنوية ، كالعطف والمغفرة والدعوة الى المعروف [٢] . فهو من هذا القبيل مخالف لنيتشه الذي ينزل الثورة الفرنسية والاديان منزلة واحدة ، كما عرفنا مما ذكره جرج انطون .

ولقـد كاد يعلق شيء من « النيتشية » بأديبة كبيرة من أديباتنا ، هي الآنسة مي زيادة ، مؤلفة كتاب « المساواة » . تقول مي في مقدمة هذا الكتاب :

« لاجلها (أي : لاجل المساواة) شبت الثورة الفرنساوية وانبرت تعلن للانسان حقوقه المدنيـة المرتكزة على الحقوق الطبيعية ، فاثبتت في مطلع بيانها بنـداً اول يشاركها اليوم فيـه العالم المتمدن ، وهو ان الناس « يولدون ويظلون متساوين احراراً ازاء القانون . » فحذفت بهـذا البند نظام الاقطاع القـائم على تفاوت الحقوق والواجبات . »

ثم تقول : « انها (اي : المساواة) مع الحرية والاخاء لتهز نفسي ، وقـد لمستها منذ ان كان لي نفس تتحرك . غير اني وصلت الى نقطة اود عندها تحليل كل شعور ، وكل تأثير . فما هي المساواة ، وأين هي ، وهل هي ممكنة ؟ هذا مـا أرغب في استجلائه في الفصول الآتية ... »

وليس في هذا الكلام كله ما يدل على صلة بين مي ونيتشه . والحق ان مي لم تسلم يوماً بجميع ما ذهب اليه الكاتب الالماني ، على انها وقفت مثله موقفاً منكراً

٢) الواقع ان فيلكس فارس اهمل شعار الثورة الفرنسية : الاخاء ، وهو ينطوي على شيء كثير مما اراده اديبنا .

للمساواة ، مؤمناً بعدم امكانها ، بل بضررها . وهذا ما توضحه فصول كتابها .

والخطأ الاساسي عند مي هو انها لا تتمهل لتقيد كلمة المساواة بمعانيها التي لابستها في التاريخ والحركات التاريخية ، كما انها لا تتمهل ايضاً لتقيد كلمات كثيرة بمعانيها في مختلف العصور والاجيال . وهذا جدير ان يؤدي الى شطط في التقديرات والاحكام .

ان الآنسة مي لم تجب السؤال الذي سمعناها تطرحه على نفسها : « ما هي المساواة ؟ » راحت تتساءل مثلاً : « أي قوة اقامت دولة المماليك في مصر ان لم يكن التطلع الى المساواة ؟ » وهنا لا يتمالك القارىء من ان يسائلها : أي مساواة تعنين ؟ ولكنها تستمر فتقول : « لاجلها (اي : لاجل المساواة) شبت الثورة الفرنساوية ... » وبديهي ان جعل المساواة هدف المماليك في حركتهم في مصر ، وهدف الفرنسيين في ثورتهم سنة ١٧٨٩ ، انما هو حكم يعبث به تخليط تاريخي عجيب . فالمماليك آنسوا قوة وفرصة ، فاستولوا على الامارة في بلاد حكموها حكماً استبدادياً مطلقاً ، بينما ثار الفرنسيون فاقاموا نظام حكم مصدره سلطة الامة ، والناس فيه امام القانون سواء . ولعل مي قصدت ان المماليك ارادوا ان تكون لهم امارة يحكمون فيها ويستبدون كغيرهم ، فكانوا بذلك متطلعين الى « المساواة » . غير ان هذا عنت واخلال باستعمال الكلمات ، والا لجاز ان نقول مثلاً : ان خروج (فلان) ليصبح لصاً ك (فلان) ، فيه ايضاً « تطلع الى المساواة ! »

يقرأ القارىء كتاب مي فيجدها تبدأ بمسألة « الطبقات الاجتماعية » ، وتذكر شيئاً تسميه « التنوع بين الطبقات » ، تريد بذلك ان تهرّب « تمايز الطبقات » في تعبير لا ينفر . وتذكر ايضاً « التنوع بين الافراد » ، وتعرض لروسو الذي « طال تأمله في حالة البداوة الاولى ، وقام هو واتباعه ينادون بالعودة اليها لتحصل الانسانية على الهناء المفقود وترتع في بحبوحة السلام والحرية . وقد نسوا ان الهمجي مستعبد بجهله الفادح ، وان له من الخرافات سجناً لعقله ، ومن الاوهام حجاباً لروحه . فهو وان كان حراً حرية نسبية ، من حيث علاقته بامثاله ، وبقناعته — التي لا يمكن ان تدوم اكثر من زمان ما — فهو اسير احط انواع العبودية واخطرها . وهيهات الرجوع الى الماضي ! »

على ان الثورة الفرنسية لم تقصد بشعار المساواة الغاء التنوع او التمايز بين الطبقات ، الا فيما يتعلق بسريان القانون على الجميع ، كما ان احداً من اعلام الثورة لم يفكر بالغاء التنوع بين الافراد . وقد قفزت مي في تعرضها لروسو من موضوع الى موضوع . فالحرية غير المساواة وان تكن بينهما قرابة . وروسو لم يطالب بالغاء الطبقات او التمايز بين الافراد ، بل ان الثورة الفرنسية لم تنشب ، وروسو لم يكتب ، الا في سبيل تغيير نظام يحصر الامتيازات حصراً صريحاً في طبقة معينة . اما حالة البداوة الاولى — او الحالة الطبيعية على الاصح كما يسميها روسو نفسه — فقد اصابت مي في نقدها ، على اننا لا نظن ان روسو اراد الرجوع اليها فعلاً ، بل هو تصورها تصوراً ، واتخذها مهبط وحي يستلهمه .

ثم تتقدم مي الى مسألة الارستوقراطية ، فاذا مر القارىء بفصلها هذا وتسامح بكثير مما فيه وجدها تقرر ما يلي : « ستظل الارستوقراطية ، ارستوقراطية الجماعة ، وارستوقراطية الفرد ، ما دامت الطبيعة ، ولو تحولت منها الانواع وتغيرت المظاهر وتعددت الاسماء ! » ولكن السر — كل السر — هو في تحول هذه الانواع ، انواع الارستوقراطية ، اذا شئنا الاصرار على الاسم . فان الثورة الفرنسية ، مثلاً ، ازالت سيطرة ارستوقراطية الاقطاع وشرف المولد ، وفسحت السبيل لارستوقراطية الصناعة والتجارة والمال . هذا صحيح . على ان الارستوقراطية الجديدة وثبت بفرنسا وثبة هائلة الى امام . فلا يصح اطلاق الحكم الواحد على الارستوقراطيتين . وتستأنف مي كلامها فتقول : « سيظل التفوق موجوداً ما بقي بين البشر جماعات وافراد يسيرون بخطوات الجبابرة نحو قمم الوجود ، فيتجلون على طور القدرة والمجد فوق صياح الصائحين وتجديف المجدفين . » وفي هذا رائحة ، بل الفاظ نيتشية ظاهرة . ولكن مي هنا تنتقل بكل يسر وسهولة ، من الارستوقراطية الى التفوق . والمعنيان ، حسب المتعارف ، متباعدان جداً . فالمفهوم بالارستوقراطية انها تشمل طبقة من المجتمع تنسب الى نفسها شرف الدم والمولد ، وتتغطى بالقاب خاصة ، وتكون ثروتها عقارية في الاغلب كأمراء الاقطاع في القرون الوسطى ، مثلاً . فاذا كانت ثروتها نقدية اجيز تسميتها بارستوقراطية المال . الا ان هذه في الغالب لا تنسب الى شرف المولد ، ولا تسبغ عليها الالقاب

الخاصة . ولسنا ندري ما علاقة هذا بالتفوق ، والسير بخطوات الجبابرة نحو قمم الوجود ، والتجلي على طور القدرة والمجد فوق صياح الصائحين وتجديف المجدفين ؟ لعل مي تقصد الفاتحين العسكريين . لعلها تقصد العباقرة المفكرين والمخترعين واصحاب المواهب والكفاءات . لسنا ندري بالضبط . الا ان مي تتابع طريقها فتقول لنا : « سيوجد ابداً هؤلاء ، ومنهم من ينعكس خيال ارستوقراطيتهم في الاجيال الآتية ويمتد حتى اطراف الدهور القصية مهما تقلبت الثورات والنظم والعمرانات . هذا اذا كانت الارستوقراطية من الطراز « الاصلح » وهو الطراز الذي قررت له الطبيعة الفوز اولا وآخراً . »

فما هي هذه الارستوقراطية التي هي من الطراز « الاصلح » ؟ وما هو هذا الطراز الذي قررت له الطبيعة الفوز اولا وآخراً ؟ ان مي لا تجيب بكلمة . وبمثل هذه الغوامض كان يتحدث نيتشه ، ولا يزال الباحثون الى اليوم مختلفين في معنى الارستوقراطية التي قصدها ومعنى « السوبرمان » .

غير ان هذا كله لا يمس حقيقة موضوع المساواة . فالمساواة التي سارت تحت لوائها الثورة الفرنسية حاربت الارستوقراطية التي تتربع على ظهر المجتمع ، وتسيج نفسها بالامتيازات تجاه القانون ، وفي احتلال الوظائف واداء الضرائب ، وغير ذلك . ولا شك ان الثورة الفرنسية ، لما ازاحت تلك الارستوقراطية ، واعلنت المساواة ، وسعت المجال لكفاءات كثيرة ومواهب كثيرة جديدة . فلم تعن المساواة التي اعلنتها كبحاً لطفرة العبقريات والحيويات الدفينة في اعماق الامة بل هي التي شجعتها واطلقتها من مكامنها وعقالاتها .

وما مقصدنا ، هنا ، ان نرافق مي في جميع كتابها . فهي احياناً ترجع في نقد الثورة الفرنسية ، والمساواة التي اعلنتها ، الى ما ذكرناه سابقاً من ان هذه الثورة لم تعزز الحقوق السياسية والاجتماعية بكفالة الحقوق والوسائل الاقتصادية . وقد كان هدفنا ان ندلّ على شيء من النيتشية علق ، او كاد ، بتفكير اديبتنا .

ومن نيتشه ، وموقفه من الثورة الفرنسية ، يخرج الباحث الى النازية والفاشستية وموقفهما من هذه الثورة . فنيتشه هو الكاتب الذي اتخذه النازي والفاشست اباً روحياً .

وفي غير مكان من هذا الكتاب يجد القارىء كيف أن موسوليني وغوبلز يشددان الهجوم على الثورة الفرنسية ومبادئها وأعلام مفكريها . « ان التعاليم الفاشستية هي التعاليم المعاكسة لجميع نظريات سنة ١٧٨٩ الخالدة (يستعمل هذا النعت متهكماً) . » « ان الفاشستية رد فعل لحركة مجانين القرن الثامن عشر ومعتوهي الانسيكلوبيديا (٨) . » « ان عام ١٧٨٩ سيلغى من التاريخ (٩) . »

وليست هذه الاقوال كلمات عابرة . ففي كثير من الكتب النازية الهامة يرد ذكر الثورة الفرنسية مشفوعاً بالهجوم عليها . فكتاب « مباحث عن بعث المانيا » يزعم ، طبعاً ، ان الجرماني خالق المدنية الحديثة . ثم يندد بكارثة مشؤومة « هي الثورة الفرنسية الكبرى التي قضت على زعماء الشعب الفرنسي الجرمانيين » ، لان « طبقة الاشراف — كلها ، او معظمها ، بما فيها سلالة البوربون — كانت جرمانية الاصل . وهذا ما حدا بالجماهير غداة الثورة الفرنسية ان تصبّ جام حقدها على طبقة الاشراف خاصة ... » والحق ان هذا مضحك ، لان الشعب الثائر ، ان لم يوجه سخطه الى طبقة الاشراف ، في جملة اصحاب الامتيازات ، فالى من يوجهه ؟ واذا كان الشعب يرى ان طبقة الاشراف هي اشد اصحاب الامتيازات تشبثاً وتمسكاً ، اذا كان الشعب يرى قليلين من هذه الطبقة ينحازون الى جانبه بينما ينحاز اكثر الاكليروس ، اذا كان الشعب يرى اكابر هذه الطبقة يهجرون البلاد ليعودوا غازين مقاتلين تحت لواء اجنبي ، فعلى من يصب جام حقده ان لم يصبه عليهم بصورة خاصة ، لا لانهم جرمان ، بل لانهم اعداؤه ؟

وكتاب « اسطورة القرن العشرين » لالفرد روزنبرغ « يتنازل » الى حد الاعتراف بالفكر والعقل لاعلام فرنسا ، من ادباء وفلاسفة ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ولكنه يجعلهم جميعاً « محرومين كل سمو حقيقي في الشعور ! » ويستنتج من ذلك ان « يوم ١٤ تموز اصبح رمز ضعف في الاخلاق ! » ويذهب الى ان الثورة الفرنسية مثلت فيها مسألة اللون دوراً خطيراً . « فالجماهير اليعقوبية ، ذات اللون القاتم (!)

---

٨) القولان لموسوليني .

٩) القول لغوبلز .

كانت تجر الى المقصلة كل من كان ممشوق القامة اشقر الشعر ! » (اي : آرياً) .
واخيراً يقرر روزنبرغ « ان الانسان الجديد ، وليد اختلاط انسان جبال الالب بانسان البحر الابيض المتوسط ، احتل المكان الاول منذ هذا اليوم ! » (يوم انتصار الثورة الفرنسية) .

وهكذا يرى النازيون في ثورة فرنسا سنة ١٧٨٩ ضربة مسددة الى « طبقة الاشراف الجرمانية الاصل » ، والى كل « ممشوق القامة اشقر الشعر » . وعلى تعبير « ايوالد ماغولد » في كتابه « فرنسا وفكرة الجنس » ، يرى النازيون في الثورة الفرنسية « شق عصا الطاعة ، من الجماهير القاطنة ما بين البحر الابيض المتوسط وجبال الالب ، على سيطرة طبقة الفوهرر ! » ويكاد لا يحتاج الى ذكر انهم يرون فيها ايضاً اثراً من آثار « الاجرام اليهودي » اذ لا بد من الاصبع اليهودية في كل شيء لا يعجب النازيين . فيقرر جيرهارد أوتيتيكال في كتابه « الجريمة اليهودية التقليدية » ان اليهود هم الذين قاموا بالثورة ، ولكن عن طريق الماسون !

في كلمات نيتشه التي نقلناها عن فرح انطون ، يقول الكاتب الالماني : « ان الاديان ومبادىء الثورة الفرنسوية المتولدة منها ، والناشئة عنها ، هي اشد وباء اصاب الانسانية وهدم الكفاءات فيها ، ويكاد يفني قواها كما يفني التدرن قوى المسلولين . وان نتيجة هذا الداء ستكون انحطاط الانسانية الى ما هو أدنى من انحطاطها الحالي ، اذا لم يحتط البشر له ، ويحدث لديهم رد فعل في شأنه . »

والنازيون الذين يتخذون من نيتشه اباً روحياً ، يزعمون انهم ، وحركتهم ، هم رد الفعل الذي ينتشل الانسانية من وهدة انحطاطها التي تدفعها فيها مبادىء الاديان والثورة الفرنسية وشقيقاتها . وفي بعض الآراء التي نقلناها عن مؤلفي النازيين يبدو من تهوسهم بالجرمانية وحمق عقولهم وتنورهم في البحث انهم ، حقاً ، أكفاء للقيام بهذا الواجب الانساني العظيم !

ولكن لندع المزاح . ان التاريخ يصدر حكمه الآن في ميادين النضال والقتال . انه يلفظ قراراً رهيباً في اي الجانبين يجب ان يعيش ويكمل سير تطوره وتقدمه : القيم الدينية ، ومبادىء الثورة الفرنسية وشقيقاتها ، ام مبادىء رد الفعل النازي ؟

ومن قبل ، اصدر احد ادبائنا ومفكرينا حكمه في هذا الموضوع.. ففي خاتمة رواية الريحاني « خارج الحريم » ، بعد ان تنتحر بطلة الرواية جهان ، يطالع القارىء هذه الاسطر :

« أما المدية وكتاب نيتشه (هكذا تكلم زرادشت) ، فقد كانا على الارض الى جانب الديوان (المقعد) مغموسين بالدم ، كأنهما يشهدان شهادة حق على ما ينبغي ان يموت في الشرق والغرب قبل ان تولد روح العالم الجديدة ! »

غير اننا نتحدث عن هذه الروح الجديدة كأنها لم تولد بعد ، وهي في الواقع مولودة ، سائرة في طريق الشباب .

ولربما غشيت المنكر ساعات من الحدة العصبية ، تجلت له فيها الانسانية شاسعة الفرق بين ما هي عليه وما ينبغي لها ان تكون ، فصرخ صرخات جبران خليل جبران [10] في مقالته العبودية . وتراءى له « الشبح الهزيل » الذي تراءى لجبران فسأله : « من أنت ؟ » واذا به الحرية ! فسأله : « من اولادك ؟ » فاذا بهم ثلاثة : « واحد مات مصلوباً وواحد مات مجنوناً وواحد لم يولد بعد ! » ثم توارى الشبح خلف الضباب ...

الحق ان الحرية منذ عصور لم تبق شبحاً هزيلا ، ولها ابناء كثيرون لم يموتوا مصلوبين او مجانين .

والحق انها لبثت عصراً فعصراً تغالب الضباب الذي ينعقد ليواري شمسها ، واذا باشعتها تتكاثر وتزداد قوة ، وتبدد الظلام ، وتنير بقاعاً اعظم فاعظم من الكون .

... الخنجر وزراتوسترا نيتشه ، شاهدا شهادة الحق ، على ما يجب ان يموت في الشرق والغرب ، كما قال الريحاني .

---

١٠) يقول الاستاذ ميخائيل نعيمه ، في كتابه عن جبران ، ان صاحب النبي تأثر بنيتشه في كتاب هكذا تكلم زرادشت . وقد يكون ان جبران ونيتشه تلاقيا في اشياء هي من مشاعات الفكر ، ولكن المؤكد ان الروح الجبرانية بعيدة جدا عن النيتشية كما يصورها دعاة النازية . وهذا لا يعني ، طبعاً ، اننا ننفي ان يكون جبران تأثر بنيتشه ادبياً من حيث الاسلوب والقالب . فتصميم كتاب النبي فيه مشابه من كتاب هكذا تكلم زرادشت .

تياران يتفاعلان

متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ؟
عمر بن الخطاب

يولد الناس ، ويلبثون ، احرارا ، متساوين في الحقوق .
من البند الاول من « اعلان حقوق الانسان »

« متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً ؟ »

شدّ ما تذكّر هذه الكلمة التاريخية التي فاه بها عمر بن الخطاب بفاتحة اعلان حقوق الانسان والمواطن ، وشد ما تذكر ايضاً بكلمة روسو : يولد الانسان حراً ، ولكنه في كل مكان مقيد بالحديد ، وهي الكلمة التي افتتح بها كتابه : الميثاق الاجتماعي .

فهنا قرابة فكرية نفسية بادية للعيان . وقد سبق لنا ان ذكرنا كيف ان الاعلام من مفكرينا وادبائنا لما انفتح لهم سبيل الاطلاع على الثورة الفرنسية ومبادئها ومفكريها رأوا محيطهم وظروفه فلم يلبث ذلك ان ردهم ايضاً الى عصر النبوة والراشدين ومبادىء الاسلام في طلعته البكر . فسموا الحكم الديموقراطي الذي كانوا يستهدفونه بالحكم الشوري ، ونقشوا على الراية الديموقراطية التي رفعوها الآية الكريمة : « وامرهم شورى بينهم » . واذا طالبوا بحرية الفكر مثلاً نادوا بالآية : « لكم دينكم ولي دين » .

وقد عزز الكواكبي حق المفكرين في الحماية من الاضطهاد والاستبداد بالآية : « ولا يضارّ كاتب ولا شهيد » .

وبالطبع ان الفرق بعيد بين العصر الذي تلقّى فيه الناس آيات القرآن لاول مرة ، والعصر الذي وقعت فيه الثورة الفرنسية او العصر الذي طلع فيه الافذاذ المفكرون

من اعلام نهضتنا الحديثة . ولكن فهم المفكرين للكتب الدينية يكون عادة ، من خلال مطالب عصرهم ، ولا سيا المفكرون المصلحون والثوريون . ومن اسرار البقاء في الكتب الدينية انها تتسع في كل عصر لمضمون فكري يطاوع مطالب العصر الاصلاحية . والاسلام بدأ وثبة تقدمية جبارة ، والوثبات التقدمية الجبارة في كل العصور لا يخلو بعضها من مضمون بعض ، وكثيراً ما تتقارب تعابيرها اللغوية عن اهدافها العامة ، تبعاً لتقارب الاشواق الانسانية واتجاهها في الحياة الاجتماعية نحو الخير والتجديد والعدل والرفق والحرية وسائر المُثل والقيم العليا .

ولا شك ان مثل هذا التراث العظيم الذي وجد مفكرونا المصلحون انفسهم متكئين عليه ، خلق فيهم استعداداً نفسياً كبيراً للاعجاب بالثورة الفرنسية وتقبل مبادئها .

كانوا يرجعون الى القرآن فيصادفون الآيات النارية التي تتوقد غضباً على العتاة والجبارين وترن بالنداء الى الثورة :

« ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبّح ابناءهم ويستحيي نساءهم ، انه كان من المفسدين . ونريد ان نمنّ على الذين استُضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكّن لهم في الارض ، ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون . »

« وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون . »

وكانوا يرجعون الى سيرة النبي واقواله ، فيجدونه في ساعة عصيبة من العهد الذي ذاق فيه ألوان الاضطهاد يقسم ان لو وضع خصومه كلا من القمر والشمس بيديه لم يرجع عن رسالته . وهو مثال يتبع في الثبات على العقيدة ، وفي الايمان بحق الاعلان عن الرأي . وكانوا ايضاً يرددون من مأثور حديثه : اذا رأيت امتي تهاب الظالم ان تقول له : انك ظالم ، فقد تودع منها .

وفي زمن الراشدين ، كانوا يرون كره الخلفاء للملكية الوراثية المطلقة وما يصحبها من ابهة وبذخ في طريقة الحياة ، وما تستدعيه من حراس وحجاب وابتعاد عن الشعب . كانوا يسمعون قول القرآن في الملوك : « ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة . » ويسمعون رأي ابي بكر في الجالسين على العروش ، وتصريح عمر

ابن الخطاب : ما انا بملك فاستعبدكم . وكانوا يقرأون مما تسجله التواريخ عن ابن الخطاب من مباشرته امور الناس بنفسه ، ومراقبته العمال (الولاة) ، وحرصه على بيت المال ، وان لا تثري الاسر ذات النفوذ على حساب الرعية . كانوا يسمعون قوله للناس : كلكم راعٍ وكلكم مسؤول ، ويرددون جوابه الشهير للبدوي : الحمد لله الذي جعل فيكم منٍ يقوّم اعوجاج عمر ، فيستنتجون ان للامة حقاً في محاسبة حكامها . وكانوا يتمثلونه نائماً كأحد الناس ، يوقظه الفارسي متعجباً من رئيس دولة يرقد ولا حارس له ، فيجيبه الفاروق : عدلت فامنت فنمت !

وكانوا اذا راحوا يقرأون اخبار الفتوحات الاولى ، يرون كيف التقت جيوش العرب تحت لواء المبادىء الشورية الجديدة في اصول الحكم ، بجيوش الفرس وهي تحت لواء الاوتوقراطية الكسروية .

كانوا يقرأون كيف وقف رستم قائد الفرس على قنطرة القادسية قبل المعركة الشهيرة ، فواجه مفاوضاً عربياً هو فيما سماه التاريخ زهرة . فحدثه المفاوض العربي عن الدين الجديد الذي تألق نوره في سماء الجزيرة العربية ودعاه ودعا الفرس اليه . فقال رستم : أرأيت ان اجبت الى هذا ومعي قومي كيف يكون امركم ؟ أترجعون ؟ قال المفاوض العربي : اي والله ! ففكر رستم . لقد كان سمع من المفاوض العربي ان هذا الدين الجديد « يخرج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله » . وفي ذلك — معنوياً وعملياً — ما فيه من المس باوتوقراطية التاج الفارسي ومصالح الاشراف والدهاقين ، والنظام الاجتماعي الفارسي جملة . فقال للمفاوض العربي : « ان اهل فارس منذ ولي اردشير لم يدعوا احداً يخرج من عمله من السفلة . وكانوا يقولون : اذا خرجوا من اعمالهم تعدوا طورهم وعادوا اشرافهم . » ومعنى هذا في لغة علم الاجتماع الحديث ان النظام الاجتماعي الفارسي كان نظاماً يقسم السفلة (اي : جماهير الشعب) الى طوائف يلتزم كل فرد طائفته التي ولد فيها ووضعه الاجتماعي ، لا حق له ان يتزحزح عنه ، فهو فلاح قن ، مثلا ، يكون ابنه فلاحاً قناً ايضاً ، وهو محترف عمل الاحذية ، مثلاً ، يكون ابنه محترفاً عمل الاحذية ايضاً ، وهكذا ...

فأجاب المفاوض العربي بقوله لرستم : نحن خير الناس للناس . فلا نستطيع ان

نكون كما تقولون بل نطيع الله في السفلة ولا يضرنا من عصى الله فينا .

ولم يكن رستم غبياً ، فأحس ان هذا الدين الجديد لن يقبل بنظام اجتماعي اقطاعي متحجر كالنظام الفارسي ، وان يقر الاوتوقراطية الفارسية ويلقي الحبل على الغارب للاشراف والدهاقين .

وكانوا يقرأون محضراً آخر من محاضر المفاوضة بين العرب والفرس قبل القادسية ، اذ طلب رستم مفاوضاً من العرب يأتيه في الخيمة ، فأرسل اليه سعد بن ابي وقاص المغيرة بن شعبة . فأقبل المغيرة فوجد القوم عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب ، قد فرشت بسطهم على مسافة غلوة ، فلا يوصل الى صاحبهم حتى يمشى عليها . وكان رستم قد تأخر عن الحضور مبالغة في الابهة والعظمة . فما زال المغيرة منطلقاً على البسط حتى انتهى الى مقعد فخم ، فارغ ، كان مقعد رستم ، فجلس عليه . فوثب رجال الحاشية وانزلوه ومعكوه ، فصاح بهم : قد كانت تبلغنا عنكم الاحلام ، ولا ارى قوماً اسفه منكم . أنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً ، فظننت انكم تواسون قومكم كما نتواسى . كان احسن من الذي صنعتم ان تخبروني ان بعضكم ارباب بعض . اليوم علمت انكم مغلوبون . ان ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا هذه العقول !

وكانوا يقرأون كيف ان اشراف الفرس لما سمعوا كلام المغيرة قالوا : والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون اليه (اي : يميلون اليه)[1] .

ثم كانوا يقرأون خبر النقمة على عثمان لما خص اقرباءه ، وكيف قيل له : اعتدل او اعتزل . ثم يقرأون خبر الثورة عليه ، فيستنتجون ان ولي الامر يمكن دعوته الى التنحي عن منصبه وخلعه .

وفي عصر بني امية كانوا يجدون الخلافة تتحول على يد معاوية الى ملكية . بدأ هذا التحول باستحداث تغييرات في نمط حياة الخليفة ، اذ ابتنى قصراً وجعل له حجاباً وحراساً ، وفصل بين شخصه وسائر المصلين في المسجد ، واخذ البيعة لابنه يزيد ،

١) راجع امر مفاوضات العرب والفرس قبل القادسية ، في كتاب « الفتوحات الاسلامية » ، لدحلان ، الجزء الاول .

فأقر بذلك قاعدة الملكية الوراثية ، واصبحت البيعة من بعده مظهراً شكلياً ، لا نوعا من الانتخاب ، كما كانت قبلا .

قال الجاحظ : فعندها استوى معاوية على الملك واستبد على بقية الشورى وعلى جماعة المسلمين من الانصار والمهاجرين في العام الذي سموه عام الجماعة ، وما كان عام جماعة بل كان عام تفرقة وقهر وجبرية وغلبة ، والعام الذي تحولت فيه الامامة ملكا كسروياً والخلافة غصباً قيصرياً [٢] .

كانوا يجدون هذا التحول ويسمعون اصوات الاحتجاج ، وفي مقدمتها صوت عبد الرحمن بن ابي بكر : لا تحدثوا علينا سنة الروم كلما مات هرقل قام مكانه هرقل . وكانوا كذلك يقرأون ما يذكر المؤرخون وعلماء السياسة بهذا الصدد اذ يقررون ان الخلافة انقلبت الى « ملك عضوض » .

اجل ، بات الاعلام من ادبائنا ومفكرينا في النهضة الحديثة يرجعون الى التراث القديم . ويرافقون عصور التاريخ العربي فيستلهمون من عبره ما يوجههم شطر الحرية ومقاومة الاستبداد ، ويفتح نوافذ قلوبهم واذهانهم على الثورة الفرنسية ومبادئها وقواعد الحكم الديموقراطي الحديث .

ونستطيع نحن ان نستأنف السير طوال عصور التاريخ العربي ايام الامويين وبعدهم ، فنرى كم هي كثيرة الوقائع والافكار الخليقة بان تذكر بالثورة الفرنسية ومبادئها . نستطيع ، مثلاً ، ان نتلو هذه الرواية عن جارية بن قدامة ومعاوية ، قالوا :

٢) تظهر نظرية « حق الملوك الالهي » في التاريخ العربي جلية ايام معاوية ، ولكن على لسان ولاته ودعاته اكثر من ظهورها على لسانه الخاص ، فيقول زياد بن ابيه ، في الخطبة البتراء ، لاهل العراق : « نسوسكم بسلطان الله الذي اعطانا . » على ان اجلى مظهر لهذه النظرية ، في التاريخ العربي ، جاء على لسان المنصور الخليفة العباسي الثاني : « ايها الناس ، انما انا سلطان الله في ارضه اسوسكم بتوفيقه وتسديده ، وانا خازنه على فيئه اعمل بمشيئته ، واقسمه بارادته ، واعطيه باذنه . وقد جعلني الله عليه قفلا اذا شاء ان يفتحني لاعطياتكم وقسم فيئكم وارزاقكم فتحني ، واذا شاء ان يقفلني اقفلني ، فارغبوا الى الله ايها الناس وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم فيه من فضله في كتابه الخ ... ان يوفقني للصواب ويسددني للرشاد ويلهمني الرأفة بكم والاحسان اليكم ، ويفتحني لاعطياتكم وقسم ارزاقكم بالعدل عليكم . انه سميع قريب ! » (خطبها في الحج) .

« دخل جارية بن قدامة على معاوية فقال له الخليفة الاموي الاول : ما كان اهونك على قومك اذ سموك جارية . فاجابه : ما كان اهونك على قومك اذ سموك معاوية (وهي الانثى من الكلاب) . فقال الخليفة : اسكت لا ام لك . فاجابه : بلى ، ام لي ولدتني . اما والله ان القلوب التي ابغضناك بها لبين جوانحنا ، والسيوف التي قاتلناك بها لفي ايدينا . وانك لم تهلكنا قسوة ولم تملكنا عنوة . ولكنك اعطيتنا عهداً وميثاقاً ، واعطيناك سمعا وطاعة . فان وفيت لنا وفينا لك ، وان نزعت الى غير ذلك ، فانّا تركنا وراءنا رجالا شداداً واسنة حداداً . فقال معاوية : لا اكثر الله في الناس مثلك يا جارية . فاجابه : قل معروفاً فان شر الدعاء محيط باهله . »

أوليس من المعجب ان يستعمل المفكر الفرنسي روسو ، كلمتي جارية بن قدامة « عهداً وميثاقاً » في جبين كتابه الذي كان إنجيل الثورة الفرنسية كما لقبوه ؟ أوليس من المعجب ان يقول جارية للخليفة : اعطيتنا عهداً وميثاقاً ، واعطيناك سمعا وطاعة . فان وفيت لنا وفينا لك ، وان نزعت الى غير ذلك ، فانّا تركنا وراءنا رجالا شداداً واسنة حداداً ؟ وفي هذه الكلمات المعدودات زبدة للفكر الثوري الذي ارتكزت عليه الثورة الفرنسية ، وخلاصته ان ازمة السلطة الحكومية امانة في ايدي الحكام سلمتها اليهم الرعية ، فاذا اساؤوا التصرف بها عدوا غير أهل للامانة وحق تجريدها منهم (٣) .

---

٣) وعلى اساس من هذا المبدأ اصدر شيخ الاسلام ، السيد محمد ضياء الدين ، فتواه بخلع السلطان عبد الحميد وقد تليت في مجلس المبعوثان (النواب) وهذا نصها :

« اذا حذف (زيد) امير المؤمنين بعض مسائل شرعية مهمة من كتب الشرع المقدسة ومنع ومزق واحرق الكتب المذكورة ، وبذر واسرف في بيت المال بدون مسوغ شرعي ، وقتل وسجن ونفى رعاياه بدون سبب شرعي ، وتعود ارتكاب غير ذلك من المظالم الاخرى ، ثم بعد ان اقسم بان يرجع الى الصلاح حنث بيمينه واصر على احداث فتن عظيمة تخل تمام الاخلال بانتظام امور المسلمين واحوالهم وحرض على المذابح ، واذا كانت الاخبار تتوالى من جميع انحاء البلاد الاسلامية طالبة خلعه تخلصاً من ذلك الجور ، وكان في بقائه ضرر محقق وفي زواله صلاح ملحوظ ، فهل يجب اجراء ما يرجحه ارباب الحل والعقد واولياء الامور

وكذلك نستطيع ان نقف وقفة عند فرقة الخوارج التي كانت ترى ان الخلافة بالانتخاب ، وليست مقصورة على اسرة او قبيلة ، والقرآن ، كلام الله ، يتزل عندهم سياسياً منزلة الدستور في اللغة السياسية الحديثة ، وعلى الخليفة ان يتقيد به ، فاذا لم يفعل وجب الخروج على طاعته اذ « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » . وقد اتخذ الخوارج هذه القاعدة شعاراً [٤] . ومن شعاراتهم ايضاً ما جاء على لسان ابي حمزة الخارجي : الناس منا ونحن منهم الا ثلاثة : حاكماً جاء بغير ما انزل الله ، او متبعاً له ، او راضياً بعمله .

وفي وجوب الخروج على السلطان الجائر ومجاهدته بالسلاح ، يلتقي الخوارج بالمبدأ الثوري الذي اعلنه المؤتمر الوطني « La Convention » ، وفيه يثبت حق الثورة على الحكومة الظالمة .

ولنراجع هنا خبر حادثة وقعت بين الخليفة عبد الملك بن مروان واحد الخوارج ، فانها لتتعلق بالموضوع الذي نحن بصدده .

روى الشيباني عن الهيثم عن ابن عباس ، قال : كنا عند عبد الملك بن مروان ، اذ اتاه كتاب الحجاج يعظم فيه امر الخلافة ويزعم ان ما قامت السموات والارض الا بها ، وان الخليفة عند الله افضل من الملائكة المقربين والانبياء المرسلين ، وذلك ان الله خلق آدم بيده واسجد له الملائكة واسكنه جنته ، ثم اهبطه الى الارض وجعله خليفته ، وجعل الملائكة رسلاً اليه . فاعجب عبد الملك بذلك ، وقال : لوددت ان عندي بعض الخوارج فاخاصمه بهذا الكتاب . فانصرف رجل من جلساء عبد الملك الى منزله فجلس مع ضيفانه وحدثهم الحديث . فقال له حوار بن زيد الضبي ، وكان هارباً من الحجاج : توثق لي منه ثم اعلمني به . فذكر الرجل ذلك لعبد الملك بن مروان ، فقال الخليفة : هو آمن على كل ما يخاف . فانصرف الرجل الى حوار فاخبره بذلك فقال : بالغداة ان شاء الله . فلما اصبح حوار اغتسل

من الزامه بالتنازل عن السلطة والخلافة او خلعه ؟ الجواب نعم ! — كتبه الفقير السيد محمد ضياء الدين عفي عنه . » (كتاب سمير الليالي لمحمد امين الصوفي السكري ، طبع طرابلس)

٤) كان الريحاني كثير الذكر للخوارج . راجع مقالته في الريحانيات : حكومة المستقبل .

ولبس ثوبين ثم تحنط وحضر باب عبد الملك ، فقال الخليفة : ادخله يا غلام . فدخل رجل عليه ثياب بيض يوجد عليه ريح الحنوط . ثم قال : السلام عليكم . ثم جلس . فقال عبد الملك : ائت بكتاب ابي محمد يا غلام . فاتاه به ، فقال : اقرأ . فقرأ حتى اتى على آخره . فقال حوار : اراه قد جعلك في موضع ملكاً (ملاكا) وفي موضع نبياً ، وفي موضع خليفة . فان كنت ملكاً فمن انزلك ؟ وان كنت نبياً فمن ارسلك ؟ وان كنت خليفة فمن استخلفك ؟ عن مشورة من المسلمين ام ابتززت النـاس امورهم بالسيف ؟ فقال عبد الملك : قد امّناك ولا سبيل اليك ، والله لا تجاورني في بلد ابداً ، فارحل حيث شئت . قال : فاني قـد اخترت مصر . فلم يزل بها حتى مات عبد الملك . (العقد الفريد ، جزء ٣) .

واهم ما يعنينا من هذا الحديث الطويل سؤال حوار الضبي لعبد الملك : ان كنت خليفة فمن استخلفك ؟ عن مشورة من المسلمين ام ابتززت الناس امورهم بالسيف ؟ فكأن حواراً قال لعبد الملك : الخليفة الشرعي (او الدستوري) ليس الذي يبتز الناس امورهم بالسيف بل هو الذي يتولى منصبه عن مشورة منهم . الخليفة الشرعي هو الذي تصدر خلافته عن الشورى .

واننا لنستطيع كذلك ان نعرض لذكر مشهد المنافرة الذي ألمّ بـه الكواكبي ، بين الوليد بن عبد الملك وقيس ، اذ خرج قيس مغضباً يقول للخليفة : « اتريد ان تكون جباراً ؟ والله ان نعال الصعاليك لاطول من سيفك . »

ثم نستطيع ان نردد هذا البيت لابي العلاء المعري في الحكام :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها　　فعدوا مصالحها وهم اجراؤهـا

وفيه يقرر ابو العلاء ان الحكام ليسوا فوق الرعية ولكنهم مأجورون لهـا ، فوجبت عليهم خدمة مصالحها لا ظلمها وكيدها .

... كان اعلام مفكرينا وادبائنا يتجهون الى هذا كله ، في ثنايا التراث القديم ، كما يتجهون الى الثورة الفرنسية ومفكريها والقواعد التي انبثقت عنها في اصول الحكم .

فاذا قال الكواكبي : « ان الحكومة من اي نوع كانت . لا تخرج عن وصف

الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها » ، نظر اولاً الى التاريخ العربي فقال : « كما جرى في صدر الاسلام فيما نقم على عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ، وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة في فرنسا ، في مسائل النياشين وبناما ودريفوس . »

واذا كتب الدكتور شبلي الشميّل في الاجتماع البشري او العمران — وقد عرفنا تقديره للثورة الفرنسية واثرها في ارتقاء الانسان واصلاح الاحكام — نظر ايضاً في ثنايا التراث القديم فذكر كلمة منسوبة الى انوشروان يقول فيها الملك الفارسي : « ورأس الكل افتقاد الملك حال رعيته بنفسه واقتداره على تأديبها حتى يملكها ولا تملكه . » ثم عارض الشميل هذا الرأي برأيٍ سواه خلاصته ان انفراد الملك بالسلطة دون ما محاسبة ، يؤدي به الى اساءة استعمالها ، فيفسد هو وتفسد بطانته ، ويسري الفساد في الرعية جملة . ثم يعمد الشميّل الى تلاوة اثر من التراث القديم ، ساقه ابو الفداء في تاريخه ، وهو امر يبين كيف يفسد الحاكم اذا اعفي من المحاسبة وكيف تفسد الرعية . ويبين ايضاً ان التراث القديم لم يخل من ذكر شجعان تعرضوا — ولو فردياً — لمحاسبة الحكام المطلقين . ونكتفي هنا باثبات بعض هذا الاثر :

« بيناء الخليفة المنصور يطوف بالكعبة ليلاً اذ سمع قائلاً يقول ، اللهم اني اشكو اليك ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق واهله من الطمع . فخرج المنصور الى ناحية من المسجد ودعا القائل وسأله عن قوله فقال له : يا امير المؤمنين ، ان امّنتني انبأتك بالامور على جليتها واصولها ، فأمّنه فقال : ان الذي دخله الطمع حتى حال بين الحق واهله هو انت يا امير المؤمنين ! فقال المنصور : ويحك ! وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي والحلو والحامض عندي ؟ فقال الرجل : لان الله استرعاك المسلمين واموالهم فجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر وابواباً من الحديد وحجّاباً معهم الاسلحة وامرتهم ان لا يدخل عليك الا فلان وفلان ، ولم تأمر بايصال المظلوم والملهوف ولا الجائع والعاري ولا الضعيف والفقير ، وما احد الا وله في هذا الامر حق . فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك تجبي الاموال فلا تعطيها وتجمعها ولا تقسمها ، قالوا : هذا قد خان الله تعالى

فما لنا لا نخونه وقد سخر لنا نفسه ، فاتفقوا على ان لا يصل اليك من اخبار الناس الا ما ارادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف امرهم الا اقصوه ونفوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره . فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم . فكان اول من صانعهم عمالك بالهدايا ليتقووا بهم على ظلم رعيتك . ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا به ظلم من دونهم . فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلماً وفساداً وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وانت غافل . فان جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول اليك ، فان اراد رفع قصة اليك وجدك قد منعت من ذلك وجعلت رجلاً ينظر في المظالم ، فلا يزال المظلوم يختلف اليه وهو يدافعه خوفاً من بطانتك ، فاذا صرخ بين يديك ضرب ضرباً شديداً ليكون نكالاً لغيره وانت تنظر ولا تنكر ، فما بقاء الاسلام على هذا ؟ »

هذا ، ولما كان الحاكم يفسد بتحرره من المحاسبة ، وكان فساده فساد الرعية ايضاً ، كان نوع الحكم في المجتمع مفتاح التقدم او التأخر ، والسعادة او الشقاء ، وكان الاهتمام بالسياسة امراً لا بد منه لكل انسان ، ولا سيما رجال الادب والفكر والفلسفة . وفي ادوار التاريخ واعمار الامم عهود خاصة هي عهود الرجات والانقلابات تطرح فيها مسائل الحكم على بساط البحث طرحاً لا مناص منه لاحد .

وكان اعلام ادبائنا ومفكرينا يستندون ايضاً الى التراث القديم في تقرير اهمية الدور الذي تمثله السياسة في حياة الانسان . كانوا يقرأون قول الطرطوشي في كتابه سراج الملوك : ان الانسان اعز جواهر الدنيا واغلاها قدراً واشرفها منزلة ، وبالسلطان صلاح الانسان . ويقرأون ايضاً : ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة ، كذلك ليس دون رتبة السلطان الشرير الجائر رتبة.. وكانوا يقرأون ايضاً : اربعة اشياء ينبغي ان تفسر للفهيم كما تفسر للبليد ، ولا يتكل فيها على ذكاء احد : تأويل الدين والخلاط الادوية وصفة الطريق المخوف والرأي في السلطان ، فيعزز ذلك مذهبهم في ضرورة الاهتمام بالسياسة وبحث قضايا الحكم .

وانا لنستطيع ان نمضي في هذا الكتاب الى غاية يمتد معها اجل الكلام في اثبات التوفيق الذي ذهب اليه اعلامنا ومفكرونا بين الثورة الفرنسية ومبادئها والتراث القديم

وصفوة مُثله وقيمه . على اننا نكتفي بهذا الشاهد الشعري الاخير من احد كبار الشعراء في الفترة الاخيرة . دعي حافظ ابراهيم الى انشاء قصيدة في حفلة اقيمت بمصر سنة ١٨٩٩ ابتهاجاً بعيد الدستور العثماني ، فقال :

فمن يطلب الدستور بالشر بعدما حمته يد الفاروق فالله طالبه
اذا شوكت الفاروق قام منادياً الى الحق لباه نيازي وصاحبه
ثلاثة آساد يجانبها الردى وان هي لاقاها الردى لا تجانبه
روت قول بشار فثارت واقسمت وقامت الى عبد الحميد تحاسبه
اذا الملك الجبار صعَّر خده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه

فهذه التفاتة من الشاعر الى التراث القديم ، الى بشار ، وكان ينزع منزع الشورى في الحكم ، وقد رافقتها على الاثر التفاتة الى الثورة الفرنسية وعيد ١٤ تموز :

لك الله يا تموز انك بلسم لجرحى الاسى والدهر تعدو نوائبه
فكم رعت جباراً وارهقت ظالماً وانصفت مظلوماً توالت مصائبه
ففي الغرب عيد ينظم الغرب حسنه فتهتز من وقع السرور جوانبه
وفي الشرق عيد لم يرَ الشرق مثله تدفَّقُ في دار السلام مواكبه

ومفهوم ان العيد الذي في الغرب ، كما يقول شارح ديوان حافظ ، هو عيد الحرية في فرنسا ، وهو في شهر تموز .

وليس بالغريب مطلقاً ان تتلاقى ، عند اعلام ادبائنا ومفكرينا ، صفوة من التراث القديم بصفوة الثورة الفرنسية ومبادئها . ليس من الغريب ان يقول الكواكبي مثلاً :

« لما كان ضبط اخلاق الطبقات العليا من الناس من اهم الامور أطلقت الامم الحرة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات ، مستثنية القذف فقط . ورأت ان تحمّل مضرة الفوضى في ذلك خير من التحديد لانه لا ضامن للحكام ان يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد يخنقون بها عدوتهم الطبيعية ، اي : الحرية . وقد حمى القرآن قاعدة الاطلاق بوضعه قاعدة : ولا يضارّ كاتب ولا شهيد .

« وهذه الامم الموفقة خصصت منها جماعات باسم مجالس نواب وظيفتها السيطرة والاحتساب على الادارة العمومية السياسية . وذلك منطبق تماماً على ما امر به القرآن

الكريم في آية : « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويـأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . » وفي كمالة هذه الآية وهي « واولئك هم المفلحون » من التبجيل ما يحمل نفوس الابرار على تحمل مضض القيام بهذه الوظيفة الشريفة في ذاتها، الممقوتة طبعا عند المستبد واعوانه . »

ليس من الغريب ان يقول الكواكبي هذا القول وهو يعلم ان النتائج التي تستقر عندها افكار المتكلمين « في مسائل السياسة وطبائع الاستبداد خاصة » انما هي نتائج متحدة المدلول مختلفة التعبير على حسب اختلاف المشارب والانظار في الباحثين .

« فيقول المادي : الداء القوة والدواء المقاومة . ويقول السياسي : الداء استعباد البرية والدواء استرداد الحرية . ويقول الحكيم : الداء القدرة على الاعتساف والدواء الاقتدار على الاستنصاف . ويقول الحقوقي : الداء تغلب السلطة على الشريعة والدواء تغلب الشريعة على السلطة . ويقول الرباني : الداء مشاركة الله في الجبروت والدواء توحيد الله حقا .

« هذه اقوال اهل النظر ، واما اهل العزائم ، فيقول الابي : الداء مد الرقاب للسلاسل والدواء الشموخ عن الذل . ويقول الشهم : الداء التعالي على النـاس باطلا والدواء تذليل المتكبرين . ويقول المتين : الداء وجود الرؤساء بلا زمام والدواء ربطهم بالقيود الثقال . ويقول المفادي : الداء حب الحياة والدواء حب الموت . »

فاذا تلاقت عند ادبائنـا ومفكرينا صفوة من التراث القديم بصفوة من الثورة الفرنسية ومبادئها ، فذلك طبيعي ما دام التراث القديم قد استهدف عدل الحكومات وحرية الناس ورقيهم ، وما دامت الثورة الفرنسية وادباؤنا ومفكرونا قد استهدفوا ايضا عدل الحكومات وحرية الناس ورقيهم (*) .

« انا الشرق قد جئتك يا فتى الغرب رفيقا ! » هي كلمة لامين الريحاني في مناسبة

*) في باب « نصوص مختارة » فصول أثبتناها للشيخ رشيد رضا ، وفيها يظهر ظهورا جليا قصد التوفيق والملاءمة بين المذاهب [والمبتكرات السيـاسية الحديثة من جهة ، والتفكير الاسلامي من جهة ثانية . ولا شك أن الانقلاب التركي الكمالي حتم السير بهذا التوفيق والملاءمة الى مدى بعيد . ولكن فصول الشيخ رشيد رضا لا يزال فيها قليل أو كثير من التحفظ . أما الفصل الذي اثبتناه للاستاذ عزام في باب النصوص فقد حمل التوفيق والملاءمة الى اقصى الحدود .

ما . وبالطبع ، انها رفقة على صعيد المساواة ، رفقة في سبيل عدل الحكومات وحرية الناس ورقيهم . وهكذا يلتقي الشرق والغرب ويبقى شعر الشاعر كبلنغ سطراً في كتاب [٦].

---

٦) المقصود قوله : الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا .

القسم الثاني

نصوص مختارة

الامير حيدر الشهابي

١٧٦١ - ١٨٣٥

الثورة الفرنسية : انه في سنة ١٧٩٢ مسيحية الموافقة ١٢٠٧ هجرية ، حدث في مدينة باريس بلبلة عظيمة اذ هاج شعب هــذه المملكة هياجاً عظيماً ، وتظاهر ظهوراً جسيماً ضــد السلطان والامرا والاشراف في يوماً كان شديد الارتجاف . وابرزوا الكمين منــذ اعوام وسنين . وطلبوا نظامات جديدة وترتيبات حديثة . وادعوا ان وجود السلطان بصوت منفرداً ، حــدث خراباً عظيماً في المملكة ، وان اشرافها يتنعمون في خيراتها ، وباقي شعوبها يكابدون اتعابها ومشقاتها . فلاجل ذلك نهضوا جميعهم سوية ، تلك الشعوب الفرنساوية ، ودخلوا عــلى سراية الملك فخاف منهم خوفاً عظيماً مع ارباب دولته . وسألهم عن مرامهم والسبب الداعي الى قيامهم . فاعلموه انه من الآن وساعد (وصاعداً) لا يبرز الملك امراً او يبت رأياً من تلقا ذاته . بل يكون بت الاحكام والترتيب والنظام بموجب ديوان عظيم ومحفل جسيم . ويكون الملك له الصوت الاول . ثم من بعــده مشايخ الشعب الذي عليهم المعول فبذلك يهون الصعب ويرتفع الظلم عن الشعب .

فلما فهم الملك لويس قيام هذا الشعب المذكور . وما ابدوه من تلك الامور اجابهم انني وايضاً انا اود عمار هذه المملكة وخيرها وطيّع لما تروه مناسباً لرفــع ضرها وضيرها .

فقالوا له : ان كنت كما زعمت اختم لنــا الشروط التي تلايم اصلاح هــذه المملكة وقيام المشيخة . فقبل ذلك خوفاً من الشعب . وختم لهم الشروط الــتي قدموها له . ثم بعــد اياماً جهز الملك نفسه للهرب وخرج ليــلاً من مدينة باريز وصحبته اخويه وبعض اصحابه قاصداً الانبراطور ملك النمسا لانه كان نسيبه شقيق

زوجتـــه ٠

وعندما بلغ مشايخ الشعب خروج هذا الملك ، جدوا في ضبـــه فوجدوه في احدى اللوسطاريات التي في الطريق ٠ فقبضوا عليه ورجعوا به الى المدينة ووضعوه في السجن مع امرأته وولده ٠ واما اخيه فانه نجا منهما ٠ وسار الى بلاد النمسا ٠ وبدا جميع الشعب يصبح صارخاً فليقتل الملك بموجب الشريعة لانه نكث في عهده مـــع شعبه ٠ وقد هرب لكي يلتجي الي (ملك) النمسا الذي هو اخو زوجتـــه ، الذي قد تسبب لنا هذا الخراب بسببها ٠

ثم ان بعد ما سجنوا الملك اربعة اشهر حكموا عليه في الموت ، وأحضروه امام الشعب في اليوم الاثنين الحادي والعشرون من كانون الثاني وقد ابرزوا عليه الموت ٠

وقد طلب الملك لويس ان يخاطب عيلته والمتوكلون عليـــه احضروا امرأته وبنوه وشقيقته واستمروا معهم في المكان الذي كان يأكل بـــه نحو ساعتين ونصف ٠ وخاطب ابنته مريم انطونيتا قايلًا لها تعلمي من مصايب والدك ولا تجزعي من موته ٠ وطلبوا منه عيلته ان ينظروه عند الصباح ، فلم يجيبهم الى ذلك ٠ وفي الصباح اعلموه المتوكلون ان الجمهور قد حكم عليه بالموت ٠ فطلب الملك لويس دقيقة لكي يتكلم مع معلم اعترافه فاذنوا له بذلك ٠

ثم اعرض مغلفاً على احد المتوكلين وتوسل اليه ان يرسله الى مجمع الجمهور ٠ فاجابه انني لا استطيع هذا الامر لكوني متفوض ان ارافقك الى منقع الدم ٠

ثم اعطا ذلك المغلف الى شخص آخر ٠ واوعده انه يوصله للجمعية وكان بذلك المغلف وصيته ٠

اعدام الملك لويس وظهور نابليون : وفي الساعتين ونصف بعد نصف الليل صعد القايد العام نحو الملك لويس وعرفه بانه مزمع ان يذهب الى الموت ، فاجابه الملك انني مستعد لذلك واذ خرج من مكانه وصعد الكروسي حيث كان معلم اعترافه ٠ وقد اصطفت العساكر في التبعبة حيث كان مكان الموت ٠ وقد كان صمت كلي ٠ واما الملك لويس ، بعد ما قرأ صلوة المنازعين ، تعرا من ثيـــابه بشجاعة فريدة وقلب غير

مرتجف . وصرخ بصوت عال : ايهـا الفرنساويون انني اموت برياً واغفر الى كل اعداي ، وارغب ان موتي يكون مفيداً الى الشعب . ثم امر القايد العام الى الجلاد ان يتمم وظيفته وفي الحال قطع رأسه . وكان حزناً عظيماً عند الذي كانوا من حزب الملك . واما الشعب كان عنده سروراً عظيماً . وصنعوا في مثل ذاك اليوم عيداً في كل سنة تذكاراً لقتل الملك وانتصار الشعب [1] . وكان ذلك في مبادي شهر كانون في الرومية ، وجعلوه بدو سنتهم ، ولقّبوه تاريخاً للمشيخة ، وغيّروا الاشهر النصرانية ورتبوها اشهر جديدة وسموها اسامي مختلفة . واما الاشهر بقيتها ثلاثين يوما كعادتهـا الاوله . وفي ذلك الوقت رفضوا الديانة ... وكان خراب عظيم في تلك المملكة . واهوالاً متلفة مهلكة . وحدث عدة مواقع وحروب بينهم وبين حزب السلطان ولا زالت تزداد وتتنامى وتنموا الاحقاد وتتجند الاجناد . وتهلك العبـاد . حتى ضعف حزب السلطان وقويت شوكة المشيخة قوة عظيمة . وبعد ان اعتدل ميزانها وتوطدت اركانها واهلكوا اخصامها ، فانفذوا كتـابات اساير الملوك يعرفونهم عن تأييد مشيختهم وهده ما تضمنه كتاباتهم ، ان كلمن يقر بمشيختنا فهو حبيب لنا . ومن لم يقر بمشيختنا فهو عدو لنا . ويستعد الى محاربتنا لاننا قد استعدينا ان نحارب المسكونة باسرها ! ثم كتبوا بمثل ذلك الى الدولة العثمانية . وقد كانت هذه الدولة المذكورة منذ قيامها متحدة مع الدولة الفرنساوية دايماً فقبلت كتابتهم ، وقرت بمشيختهم . واما الملوك الفرنجية حين وصلتهم كتابة الفرنساوية نهضوا الجميع باتفاق ، على قدم وساق . وعزموا على محاربة ذلك الشعب الخارج عن الاسلوب لئلا تتشبه به بقية الشعوب . فاول من اشهر عليهم بالحروب ملك النمسا الانبراطور . لانهم قد قتلوا شقيقته وزوجها ملكهم ثم نهضت ضدهم دولة الانكليز . ثم سلطان اسبانيا . ثم سلطان ايطاليا ثم البـابا سلطان مدينة رومية العظيمة وجميع الممالك . ولكون ان شعب هذه المملكة هو اوفر عدداً من ساير الشعوب فاعتصبوا جميعهم عصبة واحدة واستعدوا لحرب جميع مضادديهم . وخرجوا من مدينة باريز الى قتـال اعدايهم الواردين عليهم من كل ناحية . وابتدوا يحاصروا مدينة بعد مدينة ، ومملكة بعد مملكة . وهم في عساكر كالبحار الزاخرة

١) لعل المؤلف خلط بين سقوط الباستيل في ١٤ تموز ، وسقوط الملك .

بآلات الحرب الوافرة · والقوات القادرة · الى ان اشتهر باسهم واقتدارهم · وانتشر تملكهم وانتصارهم وتملكوا حصون وقلع وبلدان وضيع · واستولوا على ممالك بلاد ايطاليا وكانت حكم احد عشر سلطانـا · وامتلكوا عدة قلع من بلاد النمسا · وكان ذلك الانتصار والتملك عن يد ذلك الليث الظاهر والاسد الكاسر الفرد الفريد والبطل الصنديد · امير الجيوش بونابارته · وكان هـذا من بعض كبـار المشيخة الفرنساوية · وكان قصير القامة رقيق الجسم اصفر اللون ، باعه اليمين اطول من اليسار مملواً من الحكمة مشمولاً بالسعد والنعمة · يبلغ من العمر ثمانية وعشرين سنة · وهو طلياني الاصل من جزيرة كورسيكا · وتربيته في مدينة باريز كرسي دولة فرنسا ·

اول منشور لبونابرت اذاعه في مصر : بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله ولا ولدا له ولا شريك بملكه ·

من طرف الجمهور الفرنساوي المبني على اساس الحرية · والساري عسكر الكبير بونابارته امير الجيوش الفرنساوية · ونعرّف اهالي مصر جميعهم · ان من زمـان مديد السناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعـاملون بالذل والاحتقـار في حق الملة الفرنساوية · ويظلمون تجارها بانواع البلص والتعدي · فحضرت الآن سـاعة عقوبتهم وحسرة من مـدت عصور طويـلة هـذه الزمرة المماليك المجلوبين من جبـال الابازا والكرجستان يفسدوا في الاقاليم الاحسن ما يوجد في كرة الارض كلها · فاما رب العالمين القادر على كل شيء فقد حتم في انقضا دولتهم · يا ايهـا المصريين قد يقولوا لكم انني ما نزلت في هذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم · فذلك كذب صريح فلا تصدقوه · وقولوا للمفترين انني ما قدمت اليكم الا لكيما اخلص حقكم من يد الظالمين وانني اكثر من المماليك اعبد الله سبحانه وتعـالى · واحترم نبيه محمـد والقرآن العظيم · وقولوا لهم ايضا ان جميع الناس متساويين عند الله وان الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم بعض فهو العقل والفضايل والعلوم فقط وبين المماليك ما العقل والفضل والمعرفة التي تميزهم عن الآخرين وتستوجب انهم ان يتملكون وحدهم كلما يحلو به حيوة الدنيا · حيثما يوجـد ارض مخصبة فهي مختصة للمماليك · والجواري الجمـال والحلل

الحسان . والمساكن الاشهى فهذه كلها لهم خاصة . فان كان الارض المصرية التزام للمماليك فليوردون الحجة التي كتبها لهم الله . فلكن رب العالمين هو روأفاً وعادل على البشر . بعونه تعالى من اليوم وصاعدا لا يستثنى احداً من اهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية . وعن اكتساب المراتب العالية . فالعقلا والفضلا والعلما بينهم سيدبروا الامور ، وبذلك يصلح حال (الامة) كلها . سابقا في الديار المصرية كانت المدن العظيمة والخلجان الواسعة . والمتجر المتكاثر وما زال ذلك الا لطمع وظلم المماليك .

طوبى ثم الطوبى الى اهالي مصر الذين يتفقوا معنا بلا تأخير . وينصلح حالهم وتعلا مراتبهم . طوبى ايضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مبالين من الفريقين المحاربين . فاذا يعرفونا بالاكثر يسرعون الينا بكل قلب لكن الويل ثم الويل للذين يتحدوا مع المماليك ويساعدوهم في الحرب علينا . فما يجدوا طريق الخلاص ولا يبقى منهم آثار .

المادة الاولى : جميع القرى القريبة ثلاثة ساعات عن المواضع الذي يمر بها العسكر الفرنساوي ترسل للساري عسكر بعض وكلا لكيما يعرّفوا المشار اليه انهم اطاعوا ونصبوا السنجق الفرنساوي الذي هو ابيض وكحلي واحمر .

المادة الثانية : كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار .

المادة الثالثة : كل قرية تطيع العسكر الفرنساوي الواجب عليهم نصب السنجق الفرنساوي . وايضاً نصب سنجق السلطان العثماني محبنا دام بقاه .

المادة الرابعة : المشايخ في كل بلد يختموا حالا جميع الارزاق والبيوت والاملاك متاع المماليك . وعليهم الاجتهاد الزايد لكي لا يضيع ادنى شيء منها .

المادة الخامسة : الواجب على المشايخ والقضاة والايمة ان يلازموا وضايفهم ، وعلى كل من اهل البلد ان يبقى في مسكنه مطمآنا . وكذلك تكون الصلوة قايمة في الجوامع على العادة والمصريون باجمعهم يشكروا فضل الله سبحانه وتعالى لانقراض دولة المماليك قايلين بصوت عالي : ادام الله تعالى اجلال السلطان العثماني ! ادام الله اجلال العسكر الفرنساوي ! لعن الله المماليك ! واصلح الله حال (الامة) المصرية !

تحريراً في عسكر اسكندرية ، في ثلاث عشر من شهر سيدور [1] سنة ستة من اضافة الجمهور الفرنساوي اعني اواخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجرية . – (من تاريخ الامير حيدر الشهابي الجزء الثاني) .



احمد فارس الشدياق

١٨٠١ - ١٨٨٧

الوطني المزائف : من الناس من يبالغ في مدح وطنه ويحن اليه حنينه الى سكنه ، فيصف مروجه ورياضه وبروجه وحياضه ووهاده وجباله وتلاعه وتلاله وربوعه ودياره ونباته واشجاره وبقوله وثماره ودوحه واطياره وطيب هوائه ولذة مائه ، ويزعم ان فصوله كلها كالربيع حسناً وان جميع اقطاره تتدفق بركة ويمنا وان شهراً فيه خير من الف عام في غيره وان كل بلد مستمد من خيره ومحتاج الى ميره ، ثم يزفر زفير الهائم الحيران ويصرخ صراخ الولهان الا ان حب الوطن من الايمان ، لقد جبت السهولة والحزون وركبت الذلول والامون وطوفت في الامصار وجولت في الاقطار وضربت في مناكب الارض مستقصياً واختبرت احوال من عليها مستفتيا وسبرت اطوارهم واوطارهم وعلمت قوافيهم واسرارهم ، فلم اجد عيشا هنيئا الا في بلادي ولم يرقني شيء غير ما رأيته فيها من طارىء وعادي ، فنعمت البلاد مثوى وطابت مقاما ومأوى وانها لجديرة بان تكون مقاماً للملوك وما غيابهم عنها الا من النوك فمن اين يجدون لها مثيلاً ومن ذا الذي يبغي عنها حوولا ؟ هي البلاد التي تغزلت بها الشعراء فقال فيها فلان ابياتاً وقال فيها فلان قصيدة غراء واسمع ما قيل في

---

١) سيدور : تحريف ميدور ، شهر من شهور السنة ، بحسب التسمية الجديدة بعد اعلان الجمهورية الفرنسية الاولى ، وهو الشهر العاشر من السنة الجمهورية .

جداولها ونواعيرها وبلابلها وعصافيرها وخمائلها وازاهيرها وصروحها وقصورها ومصانعها ودورها وظبائها ومراتعها وزكائها ومواقعها وفي اريج آفاقها وبهيج أشفاقها ونضرة حدائقها وبهجة شقائقها ، بل قد ذكرت ايضاً في بعض الكتب المنزلة في عدة مواضع مفصلة فقيل انها معدن الخير والكرم ومثوى الصالحين من الامم ومنها كان مبدأ الصنائع والعلوم في كل معمول ومعلوم . فاذا قلت له كيف جارك الادني لعله كان الك عونا وخدناً قال ويلي انه شر جار وهو على البلاد عار وشنار فكيف جاره الذي يليه عسى انه ممن توالفه وتصافيه قال ويلي انه شر من اخيه . فكيف اهل الحارة طراً قال ويلي انهم كانوا كلهم عليَّ شراً ولم اجد منهم الا ضراً . فكيف اهل البلد اجمعين قال ويلي مـا منهم امين ولا معين فما كأنهم خلقوا من ماء وطين . قال ويلي اني قد اختبرتهم جميعاً فلم اجد لاحد منهم من خلاق وان هم الا جهـال اغبياء ينقادون لمن يأمرهم من الاغنياء فانهم عبيد الدرهم والدينار ولا يبـالون الا بملء بطونهم ولو من اخشار . فكيف اهل المدن والامصار قال ويلي انهم اولو غبن وغش وتغرير واخفار ما تعامل منهم من احد الا ويعنيك بالكمد والنكد والخسار لانهم لما كانوا متقلبين في امور المعاش ومنهمكين في اتخاذ الاثاث والرياش ، ظنوا ان سائر الناس همج فما عليهم في غبنهم من حرج . فكيف اهل الجبال عسى انهم ممن صفت طويتهم وطاب منهم البال فتلك خلة قد اختصوا بها في جميع الازمان وشان قد عرفوا به في كل قطر ونعم الشان . قال ويلك ومن اين لهم الصفاء وقد فطروا على الشراسة والجفاء فابتعدوا عن الآداب فكادوا ان يحصوا مع الذئاب فان احدهم ليقتل اخاه على خبزة يسد بهـا جوعه ويسلب صديقه في اكلة ويحرمه هجوعه ، هذه حالة سكان البلاد الحاضر منهم والباد فلا تكثرن من السؤال ولا يخطرن ببالك غير هذه الحال . فان قلت له ولكن كيف اشتملت بلادكم على تلك المحاسن واهلهـا على هذه المساوىء الشوائن ، قال ان اهلها الاولين كانوا من الخيرين فحرثوها وزرعوها وعمروها وامرعوها ثم فسد الزمـان فجاءت خلفاؤهم فاسدة لكن بقيت تلك المحاسن فيها فائدة . ولكن ما معنى فسد الزمان وهو لم يكن صالحـاً قط منذ خلق الانسان والتواريخ على ذلك شاهـدة ونصوصها عليه متساندة متعاضدة ، ثم كيف فسدت الناس وانت بقيت من بينهم صالحاً

ترى كل من سواك طالحاً ، ولو كنت من الصالحين لما رأيت في غيرك خلقا يشين فانما ينظر في عيوب الناس من كان اسوأ منهم حالا (ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا) كذا قال الشاعر الحكيم فما انت في طعنك على جنسك الا مليم وان امرأ يحسب جميع اهل بلاده دونه لجدير بان يشيعوا مفتونه ويذيعوا جنونه ويتجنبوا محضره ويتنكبوا منظره . فيا للعجب ممن يمدح وطنه ايرجع المدح الى نفسه مع ذم قومه وجنسه وممن لا يعجبه شيء مما يقال الا اذا كان ذاته وصفاته محوراً المقال ومع ذلك فانه يقول حب الوطن من الايمان وهو لاهله شنآن وبذكر عيوبهم سكران وعن عيوب نفسه وسنان . هكذا حالة اكثر الناس في هذا الزمان وهذه محبتهم الاوطان ، وهي محبة كاذبة ودعوى عائبة . ومنهم من يغار على وطنه ويجتهد في نفع سكنه واذا ذكر من قصور اهل بلاد شيئاً فانما هو لتنبيههم لا لتشويههم ولحثهم على الوصول الى الكمال لا للتنديد بهم لدى الاجيال ولكي يحملهم على عظائم المساعي لا لان يقوم بالنعي على افعالهم مقام الناعب الناعي ، فتراه كلما سنحت فرصة لنفعهم انتهزها او لبانة لخيرهم تنجزها فمثله كمثل المربي الشفيق والمتعهد الرفيق الذي يحزن لحزن من يتعهده ويفرح لفرحه ولا يطيب له عيش الا اذا رآه مثله في غبطته وسرحه . لا جرم ان العيش لا يطيب الا اذا كان لكل واحد من رغده حظ ونصيب فاما اذا اختص الانسان بنعمة ورأى غيره في كرب وغمة فلن يهنئه ورود مشربها والتمتع بها . وقولنا الانسان المراد به من كملت انسانيته وصفت سريرته ونيته فهو يرى سعادة جاره داعية لبلوغ اوطاره وتشييد داره لا من كان ذا عينين ولسان يطعن بلسانه طعن السنان وينظر بعينيه معايب الاقران فشتان ما بينهما ثم شتان! فقد عرفت ان بعض الناس يمدح ولا غيرة له ، وبعضهم يغار ولا يمدح وان هذا لهو الاصلح . الا قل لمن يطرىء نفسه ويزكيها ان انت بهذه التزكية الا مذكيها وان ما خفي عليك من شينها اكثر مما ظهر لك من زينها وانك كما تدين تدان وكما تهين تهان فان كان قد استحوذ عليك الغفول لعلمك رفع الفاعل ونصب المفعول واستهواك الغرور لمعرفتك « بون جور » فاعلم انك ما علمت شيئاً الا ما علمت ، ولا فهمت معنى الا ما فهمت ، فبم تفتخر ومن الذي تحتقر ولم لا تعتبر فتزدجر وفيك يدخل الطاهر فيستحيل نجسا واست

ترى الا مفراحاً اشراً او جزعاً مبتئساً ، فاقن الحياء وليكن عرفانك بقدرك اول ما تعرفه من الاشياء ، ان الله عليك رقيب ولا يخفى عليه مغيب . — (من مقالته « جمل ادبية » نقلا عن « مجاني الدرر لكتاب القرن التاسع عشر » القسم الاول) .



رفاعة رافع الطهطاوي

١٢١٦ هـ – ١٢٩٠ هـ

حق الفرنساوية المنصوب لهم [1] : المادة الاولى : سائر الفرنساوية مستوون قدام الشريعة . المادة الثانية : يعطون من اموالهم ، بغير امتياز ، شيئاً معيناً لبيت المال ، كل انسان على حسب ثروته . المادة الثالثة : كل واحد منهم متأهل لاخذ اي منصب كان واية رتبة كانت . المادة الرابعة : ذات [2] كل واحد منهم يستقل بها ويضمن له حريتها فلا يتعرض له انسان الا ببعض حقوق مذكورة في الشريعة وبالصورة المعينة التي يطبق بها الحاكم . المادة الخامسة : كل انسان موجود في بلاد الفرنسيس يتبع دينه كما يحب ، لا يشاركه احد في ذلك بل يعان على ذلك ويمنع من يتعرض له في عبادته . المادة السادسة : يشترط ان تكون الدولة على الملة القاثوليقية الحوارية الرومانية . المادة السابعة : تعمير كنائس القاثوليقية وغيرهم من النصرانية يدفع لها شيء من مال النصرانية ولا يخرج منه شي لتعمير معابد غير هذا الدين . المادة الثامنة :

---

١) لما كانت « الشارت » التي اقرها لويس الثامن عشر تنطوي على كثير مما ورد في بيان حقوق الانسان كانت هذه القطعة من اول الاثار الدالة على « بيان حقوق الانسان » في اللغة العربية .

٢) يعني شخصية .

لا يمنع انسان في فرنسا ان يظهر رأيه وان يكتبه ويطبعه بشرط ان لا يضر ما في القانون فاذا اضر ازيل . المـادة التاسعة : سائر الاملاك والاراضي حرم فلا يتعدى احد على ملك آخر . المادة العاشرة : للدولة دون غيرها ان تكره انسانا على شراء عقاره لسبب عام النفع بشرط ان تدفع ثمن المثل قبل الاستيلاء . المادة الحادية عشرة : جميع ما مضى قبل هذا القانون من الآراء والفتن يجب نسيانه وكذلك مـا وقع من المحكمة واهل البلاد . المادة الثانية عشرة : اخذ العساكر قد يرتب وينقص عمـا كان عليه وقد يعين بقانون معلوم وضع عساكر في البر والبحر .

مفهوم الناس التي بمضمنها الديوان (البرلمان) : قوله في المادة الاولى : سائر الفرنسيس مستوون قدام الشريعة ، معناه سائر من يوجد في بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون في اجراء الاحكام المذكورة في القـانون حتى ان الدعوة الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره . فانظر الى هذه المادة الاولى فانها لهـا تسلط عظيم على اقامة العدل واسعاف المظلوم وارضاء خاطر الفقير بانه العظيم ، نظراً الى اجراء الاحكام . ولقـد كادت هذه القضية ان تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية وهي من الادلة الواضحة على وصول العدل عندهم الى درجة عالية وتقدمهم في الآداب الحضرية وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنـا العدل والانصاف وذلك لان معنى الحكم بـالحرية هو اقامة التساوي في الاحكام والقوانين بحيث لا يجور الحـاكم على انسان بل القوانين هي المحكمة والمعتبرة فهذه البلاد حرية بقول الشاعر :

وقد ملأ العدل اقطارها   وفيها توالى الصفا والوفـا

وبالجملة اذا وجد العدل في قطر من الاقطار فهو نسبي اضافي لا عدل كلي حقيقي فانه لا وجود له الآن في بلدة من البلدان فانه كالايمـان الكامل والحلال الصرف وامثال ذلك ونظائره فلا معنى لحصر المستحيل في الغول والعنقاء والخل الوفي كما هو مذكور في قوله :

لما رأيت بني الزمان وما بهم   خـل وفيّ للشدائد اصطفي
ايقنت ان المستحيل ثلاثـة   الغول والعنقـاء والخـل الوفي

مع ان ذلـك ممنوع في العنقاء فانها نوع من الطيور موجود الافراد ، يذكره ارباب علم الحشايش وذكر الثعلبي في قصص الانبياء قضية العنقاء مع سيدنا سليمان في تكذيبها بالقدر . نعم لا وجود للعنقاء بالمعنى المشهور عند العامة من العرب والافرنج من انها من اعلاها عقاب ومن اسفلها اسد ، وعلى كل حال فلها في الجملة وجود . واما المادة الثانية فانها محض سياسية ويمكن ان يقال ان الفِرَد [1] ونحوها لو كانت مرتبة في بلاد الاسلام كما هي في تلك البلاد لطابت النفس خصوصاً اذا كانت الزكوات والفيء والغنيمة لا تفي بحاجة بيت المال او كانت ممنوعة بالكلية وربما كان لهـا اصل في الشريعة على بعض اقوال مذهب الامام الاعظم [2] . ومن الحكم المقررة عنـد قدماء الحكماء : الخراج عمود الملك ، ومدة اقامتي بباريس لم اسمع احـدا يشكو من المكوس والفرد والجبايات ابداً ولا يتأثرون بحيث انها تؤخذ بكيفية لا تضر المعطي وتنفع بيت مالهم خصوصاً واصحاب الاموال في امان من الظلم والرشوة . واما المادة الثالثـة فلا ضرر فيها ابداً بل من مزاياها انها تحمل كل انسان على تعهد تعلمه حتى يقرب من منصب اعلى من منصبه وبهذا كثرت معارفهم ولم يقف تمدنهم على حـالة واحدة مثل اهل الصين والهند ممن يعتبر توارث الصنائع والحرف ويبقى للشخص دائما حرفة ابيه . وقد ذكر بعض المؤرخين ان مصر في سالف الزمان كانت على هـذا المنوال فان شريعة قدماء القبطة كانت تعين لكل انسان صنعته ثم يجعلونها متوارثة عنه لاولاده . قيل سبب ذلك ان جميع الصنائع والحرف كانت عنـدهم شريفة فكانت هذه العادة من مقتضيات الاحوال لانها تعين كثيرا على بلوغ درجة الكمال في الصنائع لان الابن يحسن عادة مـا رأى اباه يفعله عدة مرات بحضرته ولا يكون له طمع في غيره فهذه العادة كانت تقطع عرق الطمع وتجعـل كل انسان راضيا صنعته لا يتمنى اعلى منها ، بل لا يبحث الا عن اختراع امور جديدة نافعة لحرفته توصل الى كمالهـا

١) يستعملها بمعنى الضرائب اطلاقاً .
٢) يعني ابا حنيفة .

انتهى • ويرد عليه انه ليس في كل انسان قابلية لتعلم صنعة ابيه فقصره عليها ربما جعل الصغير خائباً في هذه الصنعة والحال انه لو اشتغل بغيرها لنجح حاله وبلغ آماله • واما المادة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة فانها نافعة لاهل البلاد والغرباء ، فلذلك كثر اهل هذه البلاد وعمرت بكثير من الغرباء • واما المادة الثامنة فانها تقوي كل انسان على ان يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله مما لا يضر غيره فيعلم الانسان سائر ما في نفس صاحبه خصوصا الورقات اليومية المسماة بالجرنالات والكازيطات، الاولى جمع جرنال والثانية جمع كازيطة ، فان الانسان يعرف منها سائر الاخبار المتجددة سواء كانت داخلية وخارجية اي داخل المملكة او خارجها ، وان كان قد يوجد فيها من الكذب ما لا يحصى الا انها قد تتضمن اخبارا تتشوف نفس الانسان الى العلم بها على انها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق او تنبيهات مفيدة او نصايح نافعة سواء كانت صادرة من الجليل او الحقير لانه قد يخطر ببال الحقير ما لا يخطر ببال العظيم كما قال بعضهم : لا تحتقر الرأي الجليل يأتيك به الرجل الحقير فان الدرة لا تستهان لهوان غواصها •

وقال الشاعر :

لما سمعت به سمعت بواحد ورأيته فاذا هو الثقلان
فوجدت كل الصيد في جوف الفرا ولقيت كل الناس في انسان

ومن فوائدها ان الانسان اذا فعل فعلا عظيما او رديئا وكان من الامور المهمة كتبه اهل الجرنال ليكون معلوما للخاص والعام لترغيب صاحب العمل الطيب ويرتدع صاحب الفعلة الخبيثة ، وكذلك اذا كان الانسان مظلوما من انسان كتب مظلمته في هذه الورقات فيطلع عليها الخاص والعام فيعرف قصة المظلوم والظالم من غير عدول عما وقع فيها ولا تبديل ، وتصل الى محل الحكم ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة فيكون مثل هذا الامر عبرة لمن يعتبر • واما المادة التاسعة فانها عين العدل والانصاف وهي واجبة لضبط جور الاقوياء على الضعفاء وتعقيبها بما في العاشرة من باب اللياقة الظاهرة • وفي المادة الخامسة عشر نكتة لطيفة وهي ان تدبير امر المعاملات لثلاثة مراتب : المرتبة الاولى الملك مع وزرائه ، والثانية مرتبة البيريه المحابية للملك ، والثالثة

مرتبة رسل العمالات الذين هم وكلاء الرعية والمحابون عنهم حتى لا تظلم من احد وحيثما كانت رسل العمالات قائمة مقام الرعية ومتكلمة على لسانها كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها ، وعلى كل حال فهي مانعة للظلم عن نفسها وهي آمنة منه بالكلية ولا يخفى عليك حكمة باقي المواد ٠

ثورة سنة ١٨٣٠ في ذكر التغييرات التي حصلت وما ترتب عليها من الفتنة :

قد سبق لنا من القوانين السالفة في الكلام على حقوق الفرنساوية في المادة الثامنة ، انه لا يمنع انسان في فرنسا من ان يظهر رأيه ويطبعه ، بشرط ان لا يضر ما في القوانين ، فان اضر به ازيل ٠ فما كانت سنة ١٨٣٠ ، واذا بالملك قد اظهر عدة اوامر منها النهي عن ان يظهر الانسان رأيه وان يكتبه او يطبعه بشروط معينة خصوصاً الكازيطات اليومية ، فانه لا بد في طبعها من ان يطلع عليها احد من طرف الدولة فلا يظهر منها الا ما يريد اظهاره مع ان ذلك ليس حق الملك وحده فكان لا يمكنه عمله الا بقانون ، والقانون لا يصنع الا باجتماع آراء ثلاثة : رأي الملك ورأي اهل ديواني المشورة يعني ديوان البيريه وديوان رسل العمالات ٠ فصنع وحده ما لا ينفذ الا اذا كان صنعه مع غيره ٠ وغير ايضاً في هذه الاوامر شيئاً في مجمع اختيار رسل العمالات يعني في الذين يختارون رسل العمالات ليبعثوها في باريس ، وفتح ديوان العمالات قبل ان يجتمع مع انه كان حقه ان لا يفتحه الا بعد اجتماعهم كما فعله في المرة السابقة ٠ وهذا كله على خلاف القوانين ٠ ثم ان الملك لما اظهر هذه الاوامر كأنه احس في نفسه بحصول مخالفة فاعطى المناصب العسكرية لعدة رؤساء مشهورين بانهم اعداء للحرية التي هي مقصد رعية الفرنساوية ٠ وقد ظهرت هذه الاوامر بغتة حتى ظهر ان الفرنساوية كانوا غير مستعدين لها ٠ وبمجرد حصول هذه الأوامر قال غالب العارفين بالسياسات انه يحصل في المدينة محنة عظيمة يترتب عليها ما يترتب كما قال الشاعر :

ارى بين الرماد وميض جمر ويوشك ان يكون له اضطرام

فان النار بالعيدان تذكو وان الحرب اولها الكلام

ففي مساء اليوم الذي ظهرت فيه هذه الاوامر في الكازيطات ، اخذ الناس في الحركة بقرب المحل المسمى باليروايال يعني السراية السلطانية التي سكنها عيلة اقارب الملك المسماة عيلة ارليان ، التي الملك الآن منها . وهذا الوقت ظهر الغم على وجوه الناس . وكان هذا اليوم السادس والعشرين في شهر يوليه ، وفي يوم السابع والعشرين لم يظهر غالب كازيطات الحرية لعدم رضائها بالشروط . فلذلك بلغت الاوامر جميع الناس وحصلت حركة عظيمة بعدم ظهور الكازيطات التي من عادتها انها لا تفتر عن الظهور الا لمهم عظيم . فاغلقت الورشات والمعامل والفبريقات والمدارس فظهر بعض كازيطات الحرية آمرة بعصيان الملك والخروج من طاعته ومعددة لمساويه ، وفرقت على الناس من غير مقابل . وبهذه الديار بل وفي غيرها قد يبلغ الكلام حيث تقصر السهام ، خصوصاً مادة الخطابات فأنها قوية ، وخصوصا بلاغة الانشاء فلها مدخلة عظيمة كما قيل : ان يتزل الوحي على قوم بعد الانبياء نزل على بلغاء الكتاب ، خصوصاً اذا كان ما يذكر في تلك اليوميات مقبولا عند العامة ومقصوداً عند الخاصة ، فان هذا هو عين البلاغة الصحيحة فأنها (اي البلاغة) ما فهمته العامة ورضيت به الخاصة . فلما سمع بذلك ولاة الحسبة [٣] حضروا في المحالّ العامة ومنعوا الناس من قراءة هذه الكازيطات وحاصروا مطابعها وهموا بكسر آلات الطباعة ، وكسروا بعضها ، وحبسوا من اتهموه من الطباعين وبهدلوا كثيراً ، مما اظهر شيئاً مخالفاً لترتيب الملك من الرعية . وهذا ايضا مما قوى غضب الفرنساوية فكتب ارباب هذه الكازيطات يعني رؤساء الفرنساوية الذين هم يكتبون فيها آراءهم ، ورقة انكار واشهروها وعددوا نسخها ولصقوها بجدران المدينة وامروا فيها الرعية بالحرب وعينوا محله . وكان الميعاد في درب سراية باليروايال ، فازدحم فيه كثير من الامم وفيما حوله من الحارات . فكانت العساكر السلطانية تحاول تفريق هذه الزحمات فعظم دوي الرعية وكثرت اصواتهم وظهر غضبهم في سائر الدروب والحارات فهجم العسكر على الرعية والتحم القتال بين الفريقين . فكانت الرعية تقاتل اولا بالاحجار والعساكر

---

٣) كلمة عربية للبوليس .

بالسيوف وآلات الحرب . فكثر القتال وعظمت المطاردة من الجانبين . ثم بحث الرعية عن آلات الحرب وظهر صوت البارود من الجانبين في مدينة باريس ، فكأنما لسان حال الفرنساوية الذي هو اصدق من لسان مقالهم جعل يقول : ان بني عمك فيهم رماح . فعظم القتال وكان اكثر المقتول من الرعية ، فاشتد غضبهم وعرضوا القتلى في المحال العامة لتحريض الناس على القتال واظهار عيوب العساكر . وقامت انفس الناس على ملكهم لاعتقادهم انه امر بالقتال . فما مررت بهذا الوقت بحارة الا وسمعت فيها : السلاح ! السلاح ! ادام الله الشرطة ، واهلك شدة الملك . فمن هذا الوقت كثر سفك الدماء واخذت الرعية الاسلحة من السيوفية بشراء او غصب واغلب العملة والصنائعية ، خصوصاً الطباعين هجموا على القرقولات وخانات العساكر واخذوا منها السلاح والبارود وقتلوا من فيها من العساكر . وخلع الناس صورة علامة الملك من الحوانيت والمحال العامة وعلامة ملك الفرنسيس هي صورة زهر الزنبق ، كما ان علامة ملك الاسلام صورة هلال ، وملك الموسقوبية صورة عقاب وكسروا قناديل الحارات وقلعوا بلاط المدينة وجمعوه في السكك المطروقة حتى يتعذر مشي الفرسان عليه ، ونهبوا جبخانات البارود السلطانية . فلما اشتد الامر وعلم الملك بذلك ، وهو خارج ، امر بجعل المدينة محاصرة حكما وجعل قائد العسكر اميرا من اعداء الفرنساوية مشهورا عندهم بالخيانة لمذهب الحرية . مع ان هذا خلاف الكياسة والسياسة والرياسة . فقد دلهم هذا على ان الملك ليس جليل الرأي ، فانه لو كان كذلك لاظهر امارات العفو والسماح ، فان عفو الملك ابقى للملك ، ولما ولى على عساكره الا جماعة عقلاء احبابا له وللرعية غير مبغوضين ولا اعداء . ولكن اراد هلاك رعاياه حيث نزلهم بمنزلة اعدائه ، مع ان استصلاح العدو احزم من استهلاكه ويحسن قول بعضهم :

عليك بالحلم وبالحباء ... والرفق بالمذنب والاغضاء
ان لم تقل عثرة من يقال ... يوشك ان تصيبك الجهال

فعاد عليه ما فعله بنقيض مراده ، وبنظير ما نواه لاضداده . فلو انعم في اعطاء الحرية لفرقة بهذه الصفة حرية ، لما وقع في مثل هذه الحيرة ونزل عن كرسيه في هذه المحنة الاخيرة ، سيما وقد عهد الفرنساوية بصفة الحرية والفوها واعتادوا عليها وصارت

عندهم من الصفات النفسية ، وما احسن قول الشاعر :

وللناس عادات وقد الفوا بها لهـا سنن يرعونهـا وفروض
فمن لم يعاشرهم على العرف بينهم فذاك ثقيـل عندهم وبغيض

وفي اليوم الثامن والعشرين اخذت الرعية من يد العساكر محلا يسمى دار المدينة الذي هو محل شيخ مدينة باريس . فعند ذلـك ظهر الخفر الجنسي (٤) يعني ورديان الرعية وهم عساكر كانت سابقا تخفر الاهالي ، كما كان للملك عساكر ورديان تخفره وقد كان عزلهم الملك شارل العاشر . فلما وقعت الفتنة ظهروا ليمانعوا عن الرعيـة فاشهروا اسلحتهم للقتال وطردوا سائر العساكر من محلهم. وحرقوا كثيرا منها . وفي هذه الاوقات ارتفعت المحاكم وصار الحاكم هو الرعية ولم يكن للدولة عمل شيء . فقد بذلت ما عندها من القوة لاخماد ذلك وتسكينه فلم تقدر عليه فكانت جميـع القواصة متحركة والطبجية معينة لاثني عشر الفا من الورديان السلطـاني وستة آلاف من عساكر الصف . فكانت جمـلة العساكر السلطانية ثمـانية عشر الف نفس غير الطبجية والقواصة . وكان من يحمل السلاح من الرعية اقل من هذا العدد ولكن من لا يحمل السلاح يحارب بالاحجار ويعين المتسلح . وبعد اخذ دار المدينة وسلب مدفع من العساكر الحربية ظهر انهزام سائر العساكر السلطانية بالبلدة ، ثم ذهبوا الى محل يقال له لوفر ، والى قصر التولري وهو سراية الملك ، ووقع الحرب فيما بين العساكر واهل البلد . وبينما هم في الحرابة بهـذا المحل ، اذ انتشر البيرق المثلث الالوان الذي هو علامة الحرية ، على الكنايس والهياكل العامة ودقت النواقيس الكبيرة لاعـلام سائر الناس داخل وخارج باريس من اهل المدينة او غيرها ، بطلب حمل السلاح منهم للاستعانة على العساكر . فلما رأت العساكر ان النصرة للرعية وان ضرب السـلاح على اهل بلادهم واقـاربهم عليهم امتنع اغلبهم وعزل كثير من رؤسائهم نفسه من منصبه . وفي اليوم التاسع والعشرين في الصباح ملكت اهل البلدة ثلاثة ارباع المدينة ووقع ايضاً في ايديهم قصر التولري واللوفر فملكوهما ونشروا عليهما بيرق الحرية . فلما سمع بذلك صاري عسكر المأمور بادخال اهل باريس في طاعة السلطان رجع ، فكان

La Garde Nationale (٤

هذا تمام نصرة اهل البلد . حتى ان العساكر دخلت تحت بيرق الرعية . ومن هذا الوقت نصب حكم وقتي وديوان موقت لنظم البلاد حتى ينحط الرأي على تولية حاكم دائم . وكان رئيس هذا الحكم الموقت صاري العسكر المسمى لفييته وهو الذي قاتل في الفتنة الاولى للحرية ايضاً . وهذا الرجل شهير بانه يحب الحرية ويحامي عنها ويعظم مثل الملوك بسبب اتصافه بهذا الوصف وكونه على حالة واحدة ومذهب واحد في البوليتيقية . وليس صاحب قريحة مستخرجاً للعلوم من حيز العدم كغالب رجالها الفرنساوية ومشاهيرهم ، خصوصا في العلوم العسكرية ، ولكن اعظم الناس مقاماً لا قريحة وفهماً ، وليس المراد القدح في معرفته بل في انتهاء الرياسة اليه . ومما يشاهد في سائر بلاد الدنيا ان التصدر ليس دائما على قدر المعرفة وان كانت المعرفة موجبة له بالشرع والطبع . ومن الغريب ان مثل هذا الامر يقع ايضا في البلاد الحسنة التمدن . واظن ان هذا كله مصداق الحديث الشريف الذي هو ذكاء المرء محسوب عليه من رزقه . وكما قال الشاعر :

اذا ابصرت ذا فضل فقيراً ... فلا تعجب لفقر في يديه
فقد قال النبي مقال صدق ... ذكاء المرء محسوب عليه

وما احسن قول الشاعر :

ولو ان السحاب همى بعقل ... لما اروى مع النخل القتادا
ولو اعطى على قدر المعالي ... سقى الهضبات واجتنب الوهادا

(من كتاب « تخليص الابريز الى تلخيص باريز »)

■

نوفل نعمة الله نوفل الطرابلسي

١٨١٢ - ١٨٨٧

من اعلام فرنسا في القرن الثامن عشر : خمسة اشخاص حازتهم فرانسا من مشاهير الكتبة بذلوا جهدهم في ايضاح طرق الفلسفة وتشييد مبانيها وهم فونتنيل الذي انسجمت مكاتيبه فيها ، وبوفون الذي كان مشتغلا بتأليف تواريخه الطبيعية في عصر الملك لويس الخامس عشر الذي مرّ ذكره ويوصف بانه كان مشفع افلاطون وبلين الذي كسا علم الفلسفة رقة التعبير في كتابه الذي خلد ذكره واعرب عن رقة طبعه ودماثة اخلاقه ، ومونتسكيو الذي صرف همته في كتب السياسة واباذت تصانيفه عن غاية براعته فيها ، قال بعضهم وكفى شاهداً على ذلك ما كتبه في سبب ارتفاع وانحطاط الدولة الرومانية وهو كتاب عجيب يحتوي على تعليقات صادقة وعبارات راشقة ، وكتابه الآخر المسمى روح الشرائع الذي بيّن فيه الحقوق الانسانية وقسمها الى ثلاثة اقسام :

اولها الحقوق المعتبرة بين الامم في خلطتها السياسية والمتجرية .

وثانيها حقوق الدولة على رعاياها وبالعكس .

وثالثها حقوق الاهالي فيما بينهم ثم قسم حال الدول الى ثلاثة اقسام ايضاً :

الاول الدول الوراثية خلفاً عن سلف ، المطلقة التصرف بلا قيد .

الثاني الدول الوراثية المقيدة بالقوانين .

الثالث الدول الجمهورية المقيدة بالقوانين ايضاً . (والجمهورية هي كناية عن انتخاب الامة رئيساً للدولة يتصرف في ادارتها بمقتضى القوانين مدة حياته او لمدة معلومة ثم ينتخب غيره) . وبيّن ما ينشأ عن هذه الاحوال الثلثة من الخير والشر وهو معدود عند اهل اوروبا قانونا صحيحاً في الاحكام . ومن تمثيلاته البديعة تشبيه المستبد في احكامه بمن يتوصل الى اجتناء الثمرة بقطع الشجرة من اصلها . وله غير ذلك عدة تآليف تلقاها الناس بالقبول من جملتها المراسلات الفارسية وهي اشبه بميزان يشنّع فيه

على عوائد الشرقيين والغربيين ليظهر مــذام كل منهم ومحامده . وكان ساح في بلاد اوروبا ليلاحظ في سياحته ما يلايم كل مملكة من الممالك ، فقال ان بلاد المانيا تليق للسياحة وبلاد ايطاليا للاقامة وبلاد فرانسا للمسرة وطيب العيش . ثم ان رابع هؤلاء الخمسة اشخاص الذين نحن بصدد الكلام عليهم هو دلمبير صاحب التأليف المحلى بقلائد القواعد ، الحاوي باوضح بيان ما كاد يأتي على سائر الفوائد . وخامسهم كندايك الذي بسط اشعة التحقيق على تأليف لوك الانكليزي في علم الفلسفة . ويلي هؤلاء الخمسة جان باتيست روسو صاحب الاشعار ذات المعاني الرائقة والمعلم ساج صاحب التأليف البــارع المعروف بجيل بلاس المحتوي على المقالة الفلسفية وهو احسن مما ألف في بابه .

ومن مشاهير هذا القرن ايضاً وولتير . قال بعض المؤلفين ان هذا الرجل هو ممن اخذ راية الكتابة باليمين وبالشمال واشتهر في فنونها شهرة بالغة ، ولو لم يحمله الخلال العقيدة على عدم احترام الشرائع والديانات لكانت شهرته اتم والنفع به اعم . وقال آخرون ان الشيء اذا تجاوز الحد رجع الى الضد ، وكما ان الجهل مضر فكذلك مقابله اذا صاحبته اساءة الغير . وذلك ان هذا العالم افضت به غزارة علمه الى القدح في الاديان وفي كثير من ملوك عصره فعوقب بالطرد عن وطنه وعن كل موضع أراد النزول به . مات في سنة ١٧٧٨ وله مؤلفات عديدة ترجم منها مؤلفان الى العربية وطبعا في مصر . الاول يسمى مطالع شموس السير في وقائع كرلوس الثاني عشر . وهذا الملك هو ملك اسوج المشهور بالمحاربات الشديدة بينه وبين بطرس الاكبر امبراطور روسيا والثــاني يسمى الروض الازهر في تاريخ بطرس الاكبر وهو الامبراطور المشار اليه . ولكن قل من يثق بتآليف هذا الرجل غير ان لسوء الحظ نجد كثيرين من الذين تعلموا اللغــات الاجنبية في بلادنا يرون بان ما من فائدة مما تعلموه الا ان يطالعوا كتبه وامثالها بلذة ويقتفوا خطواته برغبة لينالوا حق التصدر بين صفوف المتمدنين .

ومنهم جانجاك روسو وهو نظير وولتير المذكور في الشهرة . وله من حسن التعبير ما لا تستقر معه الاوهام . وهذا الرجل مع وولتير المذكور قبله هما اللذان انشأا الثورة التي اتت بالمصائب الآتي ذكرها الى فرانسا وهيأا اسبابها واستعجلا وقوعها . — (زبدة الصحائف في سياحة المعارف ، بيروت ١٨٧٩) .

فرنسيس فتح الله المرّاش

١٨٣٦ - ١٨٧٣

بحث في الحرية : بينما كان الفيلسوف مواصلا خطابه كان الملك والملكة شاخصين فيه بأعين يخامرها الذكاء والاصغاء، مستوعبين معانيه بكل اتضاع ودعة . وغب نهاية مقـالته جعلت الملكة تقول له هكذا : اننا قد عرفنا عـدم امكان وجود حرية للانسان بل ولا لسائر الانواع . وان جميع الاشياء لكونها مرتبطة بخدمة بعضها البعض فهي مقيدة ايضاً بعبودية بعضها البعض . ولكن عندما تكون هذه العبودية غريبة عن الفائدة او مضرة لصالح الامور فالاجتهاد بابطالهـا ضرب من اللزوم وقانون صوابي . وبناء على ذلك عندما نظرنا دولة الاستعباد تتداخل مـا بين شعوبنا تحت طرق مختلفة حيثما لا ينجم عن هذا التداخل سوى الاضرار بهم وفساد طبائعهم السليمة، نهضنا حالا ضدها وسطونا عليها سطوة اسكندر على داريوس وسجناهم كما علمت .

اما حصول الشخص على لذة الحياة معتوقة من كل حاكم وصافية من كل مكدر، فهو امر لا يمكنه البتة ولو تطبع على تتبع تلك النواميس التي ذكرتها والتي تصعب في الاجراء بمقدار سهولتها في التصور حسب كل الاعمال الفلسفية، لان التطبع لا ينقلب طبعا، وما كان هكذا فهو غير لذيذ عند الطبيعة وبعيـد عن السهولة . واذا امكن الانسان السلوك كما اشرت فـلا يكون ذلك الا لمن وسمته العناية بسمة الانفراد، وهذا شاذ وليس حكم الشاذ الا الحفظ وعدم القياس عليه .

وعلى كل حال ان الانسان اذا كان متعبداً لاحكام دولة التمدن والصلاح يكون داخلا في حقيقة الحرية التي تطلبها الواجبات الانسانية . على انه اذا كان ذلـك التعبد لازما فتلك الحرية ملزومة، لان اعتناق الانسان واجباته لا يدعى عبودية، ولكن اذا كان الشخص معتوقا من رق تلك الدولة فهو يكون بالضرورة داخلا في عبودية ضدها تبعا لمقتضى الحال .

ولكون الدخول في احكام دولة الخشونة والبربرية يفسد احوال البشر وينثر عظام

جميتهم نازعا عنهم كل الصفات الحميدة والسلوك السليم ، وذلك هو الامر الذي لا يوجد اضر منه لمملكة التمدن والصلاح ، وجب علينا دفعا لوقوع البلبال والوبال فيما بين رعايانا ان نثور على تلك الدولة الآبقة التي اذا لم نمح آثارهـا لم تقم حرية الانسان المطلوبة اصلا ، وهي الحرية التي لا يمكنك انكارها مهما رددت الهواجس والاوهام الفلسفية التي لا وجود لها الا في العقل الذي قد يخطر فيه ما لا حقيقة له في الظاهر .

فاردف الفيلسوف كلامه قائلا : انا لم امنع امكان الحرية الادبية بل الطبيعية . ولا شك انَّا اذا اطلقنا انظارنا الى عالم الآداب وتبصرنا بشرائع الحكمة نعاين اقواما احرارا وآخرين عبيداً حسبما تقتضي احوالهم وكيفياتهم . وعلى كل حال ان الاجتهاد في عتق العبيد وهدم مباني العبودية هو امر ضروري وواجب .

فطرح الملك انظاره على الفيلسوف وقال :

— اذن مشروعنا في محاربة مملكة العبودية واستنقاذ شعوبنا من قيودها لا يستحق الملام .

— كلا . بل هو حسن وواجب يا ايها الملك المعظم ، لان الاستعباد مكروه عقلا وطبعا ، وقد نهض العالم باسره ضد هذه العادة المستهجنة وما سواها فحاربوا من ظلم واعتدى واعدوا له سلاسل واغلالا .

حالة الصالح العام : ان اهم دواعي السياسة واعظم بواعثها هو النظر الدائم الى الصالح العام وتواصل السهر عليه ، بحيث مهما اتقنت السياسة نظامها واحكمته ولم تلتفت الى هذا الصالح او تغافلت عنه فـلا تعتبر الا كمساعد على نثر عقد الهيئة الاجتماعية الذي لا يمكن دوامه منظوما ما لم تكن الملاحظة السياسية عاصمة له ، اذ ان اهمال ما يسبب العمار هو تسبيب لوقوع الخراب ، وهذه الملاحظة تنحصر جميعا في توقيع ما يؤول نفعه الى العامة اجمالا وافرادا ودفع ما يفضي الى الضرر .

وذلك يستريح على خمسة اركان ، وهي تمهيـد سبل العلوم وتسهيل طرائق التجارة وتقوية وسائط الصنائع والاشغـال ومساعدة الزراعة والفلاحة وقطع اسباب التعدي .

اما الركن الاول الذي يناط بتمهيد سبل العلوم ، فهو يتضمن المساعدة عــلى تشييد المدارس وتسهيل الدخول فيها لاجــل كل من يرغب ، وترقية الناجحين بالدراسة على قدر الاستحقاق .

واما الركن الثاني الذي يلاحظ تسهيل طرائق التجارة ، فهو يتوقف اولا : على تقريب ابعاد الاسفار بواسطة اصلاح الطرقات . ثانيا : على ازالة مخاوف ومعاثر الطريق وايقاع الامان والسهولة . ثالثا : على وضع حدود ونظامات تجري على كل ارباب هذه الحرفة بحيث لا يمكن احداً تجاوزها . رابعا ، وهو الاخير : على منع كل الصعوبات التي يمكنها صدم تقدم التجارة وابطال كل عائق لسيرها .

والركن الثالث الذي يخص تقوية وسائط الصنائع والاشغال فهو يتأسس اولا : على اثارة همم ذوي الاختراعات بتعظيم جوائزهم ورفع شأنهم وتثبيت ما به يمكنهم اقتطاف ثمرات اتعابهم . ثانيا : على توسيع دوائر الادوات الصنـاعية وتضييق مساحة التلف والمصاريف . ثالثا : على رفع كل ما يوقف الخطوات عن الهجوم الى معاناة الاشغال . اخيراً على المساعدة في تكثير المعامل وتسهيل مجراها .

واما الركن الرابع الذي يتعلق بمساعدة الزراعة والفلاحة فهو يقوم برفع الجور عن الفلاح وفتح الطريق للزارع ، وتعجيــل خطوات الحصاد ومنع حشر العشـار واحتشاد الخزان ، وبملاشاة كل موانع البذار وتسديد جميع مطاليب الارض .

واما الركن الخامس الذي يشمل رفع اسباب التعدي ، فهو يستوي على ثلاث قضايا فقط وهي حماية المتاع وصيانة الاعمار ووقاية الارواح .

مائدة الاستواء : ان اعظم المقومات لصحـة السياسة واقامة الحق هو مجرى شرائعها متساوية على كل ابنائهـا بدون ادنى امتياز بين الاشخـاص او تفريق بين الاحوال . فلا يجب الاخـذ بيد الكبير ودفع الصغير . ولا الالتفـات الى الغني والاعراض عن الفقير . ولا مؤازرة القوي ومواراة الضعيف . بل يجب معـاملة الجميع على حد سواء كيلا يقع خلل في نظام الحق لان كل فئة من الناس لهـا منزلة في طريق السياسة تستدعي النظر اليهـا . فكما ان العظماء والاغنيـاء هم القوة الواصلة

كذلك الصغار والفقراء هم الآلة الموصلة . فلولا يد الصغير لم يطل ساعد الكبير . ولولا تعب ذوي الفاقة لم تسهل متاجر ارباب الغنى ولم تحرس اموالهم ولم تقم قصورهم العالية وسرادقهم المشيدة . لعل ذلك الغني عندما يأتي من محل ملاهيه ومراسحه الى مسكنه الوسيع ، ويضّجع على فراشه المصنوع من ريش النعام وينظر الى رقوش حجرته ونقوشها لا يفكر في ذاك المسكين ، الذي بعد ان يكد ويكدح طول النهار مقاسياً حر صيفه ومتكبداً برد شتائه لاجل تشييد ذاك المسكن وتنميق تلك الحجرة ، يذهب الى كوخه الحقير ويأكل خبزته اليابسة مع اولاده المراة الجائعين ثم يضّجع على طراحته المتخرقة تحت لحاف الاعياء والوصب . فهل كل هذا التباين لا يكفيه حتى يرغب ايقاعه ايضاً في موقف الحق الذي يستوي عنده الجميع ؟ وهل يسوغ لارباب السياسة ان يقبلوا وقوع هذا التباين ويجحفوا بذلك المسكين الذي بدونه لا تصل قوتهم الى مواقعها فلا يخافون من وثوب التسعة والتسعين وفرط عقد الجمعية ؟ ولماذا يوجد حق لاصوات الاغنياء فقرن في قاعات السياسة ، ولا يوجد هذا الحق لاصوات بقية الشعب الذين هم الجانب الاكبر والأهم والذين بواسطتهم تقوم سطوة الممالك وقوات الملوك وعليهم يتوقف مدار السياسات ؟ فلا شك ان لسان السياسة نفسه ينادي بوجوب حالة الاستواء ويصرخ ضد الضد .

تثقيف العقل : انه اذا فحص الجوهر الانساني من حيث فطرته الاولى واصله الطبيعي انما يشاهد لامعاً بكل الصفات الساذجة والخصال البسيطة حسبما يتبين ذلك من كل انسان يتربى منفرداً عن ازدحامات عالم المخالطة . ولما كان عظم لطافة هذا الجوهر وشدة احتياجه الى وقاية نفسه سبباً فعالاً لقبوله التأثر بكل صورة تلوح له ، والتخلق بكل سمة يحافظ بها على ذاته ، كان انضمامه في سلك الجمعية اذ ذاك موجباً لانطباع صور الحوادث الاجتماعية والوقائع الادبية على ستائر قلبه وتطبعه باخلاق وطباع بها يمكنه ان يعارك ويزاحم امواج العالم البشري ويعيش تحت لواء حوادثه .

غير ان كثرة تقلبات الاحوال والاجيال تأدّت به الى ان يفقد كل اطوار تلك الفطرة الاولى ويصير من أشر المخلوقات وأوحشها . ومن ثم لم يعد الانسان قادراً على

الدخول في دائرة التمدن الذي يطلب سذاجة الصفات وسلامة الطباع الا اذا كان متزيناً بتثقيف العقل الذي يعتبر كآلة عظيمة بها يمكن لكل من البشر ان يسترجع الى طبيعته ما افقدها التوحش .

ولا يتم هذا التثقيف الا بالتروض في العلوم والفنون ودراسة المعارف الطبيعية والادبية . ومن المعلوم ان العلم يخلق في الانسان قلبا نقيا وروحا مستقيمة ويجعله ظافراً بكل الصفات الصافية ونافراً عن كل ما يشين الجوهر الانساني ، ولا يترك له سبيلا الى التفكر في الامور الدنية والاميال المنحرفة ، وهو الامر الذي تشتق منه كل افعال الشر وعليه تبنى كل دعائم التوحش . فكيف يفكر الانسان مثلا في دناءة السلوك عندما يكون الفلك طائراً به الى اعالي الاجرام السماوية حيثما يرى الوف الوف وربوات ربوات من النجوم التي هي شموس هائلة الحجم وكل منها جالس على عرش الفضاء ثابت في مركزه وتدور حوله كواكب سيارة مختلفة الابعاد والاشكال ، وجميع ذلك له من السمو والعظمة ما يخبر بعظم اعمال الله . وكيف يأخذ بذهنه الهتك بالقريب بينما تكون الطبيعة هاتكة له اسرارها ، ومبدية لديه غوامضها . فاذا نظر الى الارض يراها تدعوه الى تمييز تراكيب طبقاتها وتعديد مفردات عناصرها ومعرفة نسبة كل من موادها الى غيره . واذا تأمل في الحيوان يراه باسطا انواعه لدى حكمه وطالبا منه فصل كل عن الآخر . واذا لحظ النباتات يراها كأنها تدعوه الى معاينة عجائب نموها وماهية جوهرها وكيفية تغذيتها وعملية انتاجها وتأثير خاصياتها وكأنها تكلفه احصاء كل من انواعها وتحديده تكليفا فوق وسعه .

وكيف يرتضي بعمل المنكرات حينما تكون الكيمياء مقدمة له مشكلاتها وطارحة عليه مسائل غوامضها ، فما ينتهي من معرفة صفات عنصر منها وادراك نسبة اتحاده بغيره وكيفية قوامه الا ويبرز لديه عنصر آخر ويدعوه الى تفنيده ، فيذهب خابطا في عباب المشكلات حيثما يقابله مولد الحوامض بايقاده وانارته ويطارحه مولد الماء برشاقته ولهيبه ويناقشه حامل الانوار بلمعانه واضاءته ويدهشه الذهب بثباته وثقله وتذهله الفضة بوضاءتها ونقاوتها ويلطمه الحديد بكثافته وصدإه ويحيره الزئبق بفراره ونفاره .

وكيف يسمح لاميّاله ان تسرح في عالم الشرور والمعاصي حينما تكون الجغرافية سارحة به على ظهر هذه الكرة الارضية المملوءة من عجائب الخليقة وغرائب الحوادث، فتارة تطير به الى قمم الجبال العالية فيرى ما بها من الاودية العميقة والسلاسل المستطيلة والينابيع الجارية فيفكر فيما سبب المرتفعات وما احدث المنخفضات وما جمع المياه . واحياناً تمر به على السهول الواسعة والبحار الشاسعة والانهار المتدفقة، فيقف متفكراً فيما جمد اليابسة وجمع السوائل الى مكان واحد . واوناتاً تسبح به في الاقاليم والاقطار فيستغرقه اختلاف العرض والطول في ميدان التأمل لتباين المناخات والاهوية . وطوراً تترحل به الى بلاد لا عدد لها واماكن لا تحصى وجميعها تختلف باختلاف المواقع والوقائع فيقف متحيراً بما تحويه الارض من الامم والقبائل المختلفة بالمذاهب والمشارب والهيئات، ومندهشا لما يراه من احوال البلدان والسياسات والشرائع، وممعناً فيما يعانيه من الصنائع المتنوعة الاشكال والتجارات المتشكلة الاحوال، وهكذا يطوف به هذا العلم الى اقاصي العالم بدون ان يترك له سبيلا للجولان في عالم المآثم وهو جالس على وسادته. غير مبارح صديقاً ولا مفارق حبيباً .

وكيف لا يبدل الاعمال الرديئة بالصالحة عندما يكشف له التاريخ حجب الاجيال الغابرة ويطلعه على كثيرين من البشر الذين كانت اعمالهم سبباً لاحوالهم ان رديئة فرديئة او صالحة فصالحة ؟ ويظهر له كثير من الناس الذين بواسطة سمو افعالهم قد بلغوا اسمى المراتب واعلى المنازل . وكم وكم من الناس الذين بواسطة دناءة افعالهم قد هبطوا الى الحضيض، لا بل يظهر له ان كثيراً من الممالك العظيمة القوة والراسخة الاركان قد افضت بها قبائح السلوك الى الاضمحلال والملاشاة، وكثيراً من الولايات الصغيرة قد آلت بها قوة الاطوار الحميدة الى الاتساع والامتداد ورفعتها الى سماء المجد والكرامة . وخاصة يظهر له ان افعال الخشونة والتوحش ليس كانت تبدد الممالك وتستأصل الملوك فقط، بل كانت ايضاً تشتت العباد وتهدم البلاد مهما كانت حصينة وغنية . أفلا يشعر بحركة غامضة في اعماق قلبه تدعوه الى احتقار العظمات الانسانية والفخفخات الكاذبة الخالية وتجذبه الى الاتصاف بالصفات السليمة والتخلق بالاخلاق

الحميدة وذلك حينما تمتطي تأملاته السرية خيول التاريخ وتجري في برية سوريا ، مثلا حيثما يشاهد ان عظمة ذلك الاقليم القديم المهد والكريم التربة والاصل ، قد استحالت بفعل الاجيال الخشنة الى دمار مهول حيث لا يرى سوى خرابات تلقي الكآبة على الابصار وعدد قليل من الشعوب المفتقرة ، بدل تلك العظمات السابقة والمجد الزاهر والغنى الوافر. أفلا يطرق تأسفاً اذ يرى صور مدينة الفينيقيين التي كانت مركز تجارة العالم ومحط رحال الآمال وقد صارت نسياً منسياً ولم يبقَ فيها سوى شبك الصيادين ؟ أفلا يرتعد لدى سطوة الحدثان حينما يرى اورشليم مدينة داود ومحل عظمة سليمان قد اصبحت قرية لا يذكر منها سوى المحلات التي لم تحفظها سوى يد القداسة ؟ أفلا يضطرب مخافة من بوائق الزمان عندما يرى انطاكيه مدينة الله العظمى ذات الاسوار العالية والحصون المنيعة قد اضحت رمة مضّجعة في قبر الوبال ؟ أفلا يرتجف لدى هيبة الايام اذ يرى مدينة تدمر التي هي مبنية بالصفّاح والعمد قد صارت اطلالاً دارسة ورسوماً بالية حتى لا يشاهد فيها سوى عواميد هابطة وعضايد ساقطة وهياكل مهدومة ؟ أفلا يهجس كرباً اذ يعاين ان منبج ذات الصيت الرنان قد غدت كالسمك الذي لا صوت له ؟ أفلا يقف متحيراً عندما يصعد على رأس سمعان ويرى ان جميع ما كان يحويه من المدن العظيمة والقرى الخصبة والمزارع الناضرة والاديرة العامرة والكنائس الرحبة ، قد صار خراباً تاماً ودماراً لا مزيد عليه بحيث لم يبق سوى بعض رسوم واشكال ؟ وبعد هذا أفلا تسحقه صواعق الاشمئزاز عندما يتأكد ان جميع هذا الخراب هو نتيجة الجهل والتوحش ؟ فبالاجمال نقول : ان العلم هو الفاعل الاعظم لتثقيف العقل ، والمروض الاكبر لجماح الطبائع والسبب الاهم لتشييد التمدن والعمار ، اذ هو يرفع افكار الانسان الى الحقائق السامية فلا تعود دائرة على مستحقرات الاشياء ويرسم في مرآة ذهنه صور الكائنات الدقيقة فلا يعود هاذياً بخزعبلات الامور فتنطفي من قلبه توقدات الحسد بنظره الى زوال المحسودات ، ويطرد من صدره ضواغط الطمع بادراكه حقيقة المطموعات ، وتتلاشى من روحه بقية الاطوار المنتنة الرجسة الخراب كالقساوة التي غرقت مراكب مصر ، والالتطاخ الذي هدم قصور آثور ، والتغفل الذي كسف شمس فارس ، والطمع الذي كسر صولجان

مكدونية ، والضغينة التي مزقت احشاء فلسطين ، والكبرياء التي ثلت عرش الروم ، والخيانة التي قلبت ممالك الرومانيين ، والبغض الذي شتت شمل لبنـان وزعزع اركان دمشق . ثم تنمو به الصفات الداعية الى جلالة العيار كالشجاعة والنباهة والمحبة والاتضاع والدعة والاحسان والوفاء والامنية ، اذ يعود خبيراً بغوائل تلك الاطوار الطالحة ، وعليماً بنتائج هذه الصفات الصالحة .

فبدون تثقيف العقل اذن لا يعدّ الانسان الا مع البهائم التي لا عقل لها ، ولا يمكن ان يدعى متمدنا قط .

اطلقوا الاموال من عقالها : لا يوجد ما يستحق نهوض العالم ضده نظير البخل ، لانه يجتهد على الدوام ان يحتشد ارزاق البشر ويحشر قوت العباد احتشاداً وحشراً يوجبان خلل النظام العام واستعباد الانام .

وهاك قائد البخل منتصباً لدينا تجاه الكرم وهو قابض بيديه على ساعد دولاب المعاملات ومساعد قيام الحياة ، فلنوجه خطابنا اليه قائلين :

ها قد نهضت المسكونة عليك يا ايها الروح الخبيث قائد البخل والشح ، وها جميع الناس يقذفونك باللعنات والمسبات ، فانت مستوجب ان يحكم عليك بالخـذل والرذل بدون تردد لانك تود ان ينغلق كل باب لتقدم الخلائق وتنفتح كل سبل التقهقر . فتخزن الاموال ولا تدع لها منفذاً . اما تعلم ان العطاء ينهج طرق الخير ويسند اخاك الجائع ؟ وتكنز الدنانير والدراهم في اعماق الصناديق حـذراً من ان يلامسها الهواء ويمسها الضياء . اما تدري ان الدراهم قـد صارت الآن محوراً لمدار عالم المعاطاة ، وان حجزها يضيق دائرة العلاقات البشرية ويعيق تبادل المعـاملات ؟ وتطرد كل سائل ومحتاج ولو على فلس ، وتميل عن كل عمل كريم او سمـة تقتضي بذل الورق . اما تعرف ان العضد الاعظم لترتيب حياتك يؤخـذ من مثل السائلين والمحتاجين ؟ فهم يبنون دارك وحانوتك . وهم ينسجون ثوبك ورداءك . وهم يجهزون كل ادوات طعامك وشرابك . وهم يتسارعون اليك من كل الجهات ليخرسوك من وثبات المختلس وهجمات العدو . وهم يمدون ايديهم ليرفعوك لئلا تعثر رجلك بحجر . واذا انتشبت

حريقة في منزلك القوا ارواحهم لينقذوك واولادك ويحموا امتعتك . فلماذا تدوس في اعناقهم اذا انطرحوا تحت قدميك يطلبون اسعافاً ؟ ولماذا تعرض عنهم وتشتمهم اذا مدوا ايديهم اليك ليطلبوا سداد رمقهم ، حتى اذا امكن للالحاح ان يقتلع من فولاذ يدك بارة واحدة استشعرت بالم اقتلاع الضرس . ولماذا تعصي الامر باشباع الجائع وستر العريان ؟ اما تخشى وقوعك في ثورتي الدنيا والآخرة ؟ وكم تهجس على مضجعك في امر التوفير وتتصل به الى حسابات وكميات تفوق طور الادراك مرتقياً في سلسلة التضعيف والضرب حيث تقول في ضميرك : انني من الغد سأشرع في تنقيص كمية اللحم والبقول والزيوت وفي اجهاد الاولاد في تتميم الاعمال الخدمية استغناء بهم عن الخدم ، ولم ازل انقص مقدار الطعام واعوّد الاولاد على الخدمة حتى نصير اخيراً قابلين ان نعيش على النزر من الخبز والقليل من الجبن والزعتر وقادرين على قضاء كل الاعمال الشاقة . وبهذا العمل يمكنني ان اجمع كل مال العالم ، لان درهماً ودرهماً درهمان . ودرهمان ودرهمان اربعة دراهم . واربعة دراهم في اربعة دراهم ستة عشر درهماً . و ١٦ × ١٦ = ٢٥٦ . و ٢٥٦ × ٢٥٦ = ٦٥٥٣٦ . وهكذا ترتقي من المضروب الى المضروب فيه الى ان تبلغ الحاصل الاعلى حيثما لا يوجد رقم ولا يجري قلم . وحينئذ تأخذ نفساً وتقول : ها انا مزمع ان املك العالم باسره واوقف كل دواليب الاشغال واجعل الناس عبيداً لي . ثم ستفعل هكذا يا هذا البخيل ولكن بعد الوف من السنين اذا لم تمت بداء التكميل . فليعش رأسك الكريم ولينجح مقصدك العظيم . ولا عتب عليك اذا فكرت في نفسك هكذا لانك ترافق القمر في مشروعه ، فكما ان هذا الجرم يخال انه سيوقف دوران الارض بعد عدد من الوف من السنين لا يحصى ، وذلك بتأخير جاذبيته لحركتها ست ثوان في كل جيل ، هكذا تخال انت ايضاً انك ستوقف حركة الاشغال بجذبك كل الاموال من ايدي الناس ، وتعود منفرداً بالسطوة والغنى بعد العمر الطويل .

فلا عتب على العالم اذا اثار عليك الفتن يا قائد البخل ، وارتفعت اصواته ضدك ، وتبادرت قواته الى الفتك بك ، لانك انت العدو المبين له ولكل صوالحه ، وانت المصر على هتك ستار هيئته واستعباد قلوب ابنائه بجشرك اهم ادوات مداره ، ومع كل

هذا فلا بأس من ترك ظفر لك في جسد التمدن لتكون مانعاً لهجوم التبذير الكثير النصر ، ولكن يجب ان تكون ملحوقاً باوامر الكرم لكي تحصل الرتبة المطلوبة ما بين التبذير والبخل . — (عن كتاب « غابة الحق ») .

■

جمال الدين الافغاني

١٨٣٩ - ١٨٩٧

جمال الدين الافغاني وتوفيق باشا خديو مصر : قال الخديوي توفيق باشا لجمال الدين ما معناه : « انني احب كل خير للمصريين ، ويسرني ان ارى بلادي وابناءها في اعلى درجات الرقي والفلاح ، ولكن مع الاسف ان اكثر الشعب خامل جاهل ، لا يصلح ان يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والاقوال المهيجة ، فيلقون انفسهم والبلاد في تهلكة . »

قال جمال الدين مجاوبا : « ليسمح لي سمو امير البلاد ان اقول بحرية واخلاص ان الشعب المصري كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين افراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذي تنظرون به الى الشعب المصري وافراده ، ينظرون به لسموكم . وان قبلتم نصح هذا المخلص واسرعتم في اشراك الامة في حكم البلاد على طريق الشورى ، فتأمرون باجراء انتخاب نواب عن الامة تسن القوانين وتنفذ باسمكم وبارادتكم ، يكون ذلك اثبت لعرشكم وادوم لسلطانكم . » هذا اهم ما جرى في هذه المقابلة التي كان فيها سمو الخديوي غير راض واسرّ في نفسه البطش بجمال الدين ولكن لم يظهر له شيئاً من ذلك .

جمال الدين وفكرة مجلس نيابي تشكله الحكومة : « ان القوة النيابية لاي امة كانت لا يمكن ان تحوز المعنى الحقيقي الا اذا كانت من نفس الامة ، واي

مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك او امير او قوة اجنبية محركة لها ، فاعلموا ان حيـاة تلك القوة ، النيابية الموهومة ، موقوفة على ارادة من احدثها ٠

« فعزة الملك ينغصها نهضة الشعب المملوك ، خصوصا اذا هو صادم ارادة مالكه او اميره ، والتاريخ لم ينقل لنا ان ملكا او اميرا او دخيلا بقوته على شعب ، يرضى عن طيب خـاطر ان يبقى مالكا اسما ، وامته هي المالكة فعلا ، لادارة شؤونها وزمام امورها على مطلق المعنى ٠ واعظم امـاني الشعوب المملوكة التخلص من ربقة الاجنبي وتحكمه ٠

« سترون عما قريب اذا تشكل المجلس النيابي المصري (أنه) سيكون ولا شك بهيكله الظاهري مشابها للمجالس النيابية الاوروبية ، بمعنى ان اقل ما سيوجد فيه من الاحزاب حزب للشمال وحزب لليمـين ، ولسوف ترون اذا تشكل مجلسكم ان حزب الشمال لا اثر له في ذلك المجلس لان اقل مبادئه ان يكون معارضاً للحكومة ، وحزب اليمين ان يكون من اعوانها ٠

« تستغربون قولي هذا اليوم ، لان ما نبحث فيه هو امر تصوري لم يخرج لحـيز العمل بعد ، ولكن متى رأيتم المجلس النيابي الموهوم تشكل ، ورأيتم كل عضو يفر من ان يكون في حزب الشمال (الناهض والمعارض للحكومة) فراره من الاسد الى حزب اليمين ، اذ ذاك تقولون صدق جمال الدين ٠

« نعم ، اكون صدقت ، ولكن ليس لي في هذه الفراسة ، وفي صدق التصور التصديقي ادنى فضيلة ، اذا رجعتم وعلمتم ان المقدمات الصحيحة هي التي تنتج النتائج الصادقة ٠

« فمقدمات مجلس نيابي قوته المحدثة له خارجة عن محيط الامـة ، والمحـدث له قوة خارجة عن الامة ومجلسها ، يعارضها منافع متضادة ، وهدفان مختلفان ، فمثل هذا المجلس لا قيمة له ، وكما انه لا يعيش طويلا كذلك لا يغني عن الامة فتيلا ٠

« سترون ان الذي سيكون نائباً عن شعب لا اعدد مصائبه ، ولا انواع رزاياه ، لفقدان حريته بكل معناها ، هو الذي كان آلة صماء بيـد تلك القوة التي عملت على وصول وطنه ومواطنيه ، الى ما وصلوا اليه ٠

« تعرفونه اذا شئتم ان تتفكروا قليـلا ، وان شئتم وصفه فانا اقول لكم : نائبكم سيكون على مقتضى ما مر من بهيئات مصركم في زمانكم هو ذلك الوجيه الذي امتص مال الفلاح بكل مساعيه ، ذلك الجبان البعيد عن مناهضة الحكام الذين هم اسقط منه همة ، ذلك الرجل الذي لا يعرف لايراد الحجـة تجاه الحاكم الظالم معنى ولو كانت من الحجج الساطعة ، ذلك الرجل الذي يرى في ارادة القوة الجـائرة كل « خير وحكمة » ، ويرى في كل دفاع عن وطنه ، ومناقشة للحساب ، « قلة ادب » ، و « سوء تدبير » !! و « عدم حنكة » !! و « تهور » !! وبالتالي يرى ان كل صفات العزة النفسية والمقومات الاهلية القومية ، مآلها الويل والثبور .

« وكل ما يدعو الى الذل ، واحتقار القومية وسحق ما تنمو به حرية الامة ، هو من مجالي حكمته العصرية !!

« هذا مع الاسف الذي اراه سيتكون منه مجلسكم النيابي الموهوم — اذا صحت الاحلام — والذي سيخالف قاعدة كلية ، لقواعد فلسفية أقرت على ان الوجود خير من العدم ، فعدم مثل هذا المجلس خير من وجوده . »

جمال الدين وقيصر روسيا : سأل القيصر جمال الدين عن سبب اختلافه مع الشاه ، فذكر له رأيه في الحكومة الشورية ، وضرورة اتباعها ، وان الشاه ينفر من ذلك ، ولا يحب ان يقر به .

قال القيصر : « اني أرى الحق في جـانب الشاه ، اذ كيف يرضى ملك من الملوك ان يحكم به فلاحو مملكته ؟ »

فاجاب جمال الدين بجرأة وفصاحة : اعتقد يا جلالة القيصر ان عرش الملك ، اذا كانت الملايين من الرعيـة اصدقاء له ، خير من ان تكون اعداء يترقبون الفرص ، ويكمنون في الصدور سموم الحقد ونيران الانتقام . فعلت عند ذلك وجـه القيصر علامة غضب ، فقطب حاجبيه ولم يطل الحديث بعد ذلك مع جمال الدين ، بل قـام من مجلسه ، وودع جمال الدين بغير الشكل الذي استقبله به ، اذ كان وداعاً بارداً . ثم اوعز القيصر الى اكبر رجال بلاطه ، ان يسرعوا متلطفين باخراجه من روسيا .

جمال الدين وشاه ايران : صادف وجود جمال الدين متجولا في اوروبا فتح معرض باريز سنة ١٨٨٩ م فشخص اليهـا ، والتقى بالشاه في (منيخ) عاصمـة (باواريا) عائداً من باريز . فاستزاره ، واعتذر له عما فرط ، وعتب عليه بعدم عودته الى طهران . وأخيراً دعاه الى مرافقته . فاجاب جمال الدين الدعوة وسار مع الشـاه الى بلاد فارس ، فلم يصل الى طهران حتى عاد الناس ، وفي مقدمتهم الامراء والعلماء ، الى الاجتماع به ، والانتفاع بعلمه ، والشاه لا يرتاب من امره . واول ما كلفه به ، ان يسن ما يراه موافقـاً لروح العصر من القوانين ، (ربما كان ذلك من الشاه بتأثير سياحته في اوروبا) فعمل جمال الدين بهمته المعهودة فسن القانون الاساسي لمملكة فارس ، لتكون حكومة ملكية شوروية ، فما اتم قواعد الدستور الكلية ، ومواده ، واطلع عليه الشاه ناصر الدين إلا وأعظم الامر ، اذ رأى ان حكمه سيكون مقيداً ، وان اهل فارس سيكونون اوسع سلطة من الشاه بمجلسهم النيابي .

فقال لجمال الدين :

— أيصح ان اكون يا حضرة السيد ، وانا ملك ملوك الفرس « شهنشاه » ، كأحد افراد الفلاحين ؟

— اعلم يا حضرة الشاه ان تاجك وعظمة سلطانـك وقوائم عرشك سيكونون بالحكم الدستوري اعظم وانفذ واثبت ممـا هم الآن .

« والفلاح ، والعامل ، والصانع في المملكة يا حضرة الشاه انفع من عظمتك ، ومن امرائك ، واسمح لاخلاصي ان اؤديه ، صريحاً قبل فوات وقته .

« لا شك يا عظمة الشاه انك رأيت ، وقرأت عن امة استطاعت ان تعيش بدون ان يكون على رأسها ملك ، ولكن هل رأيت ملكـاً عاش بدون امة ورعية ؟ »

هذا الحديث الصريح من جمال الدين للشاه ناصر الدين جاء مصداً لمـا وشى به الصدر الاعظم ، وخوف الشاه منه بقوله : « ان ما يسنه جمال الدين من القوانين لا يفيد البلاد شيئا ، ولكنه ينزع سلطان الشاه منه ، ويعطيه الى السوقة . » ونفر نفوراً بيناً من جمال الدين ، واعرض عنه فأحس بهذا التغيير والنفور ، فاستأذن بالذهاب الى

بلدة شاه عبد العظيم على بعد عشرين كيلومتراً من طهران ، فاذن له فسار اليها وتبعه جم غفير من العظماء والعلماء والوجهاء ، الذين كان يخطب فيهم ، ويستحثهم على اصلاح حكومتهم ، وما منهم الا وقد انفعل بخطب جمال الدين الحماسية ، وقبلت نفوسهم نزعة الاستقلال ، وسرت تلك الروح في البلاد طولا وعرضاً وذاع فيها عزم جمال الدين على اصلاح ايران . فخاف ناصر الدين الشاه عاقبة ذلك ، فانفذ الى بلدة شاه عبد العظيم خمسماية فارس ، قبضوا على جمال الدين وكان مريضاً فحملوه من فراشه على برذون ، بصورة فظيعة وعليه دور من الحمى ، درجة حرارتها اربعون ، ولم يسمحوا له باستراحة دقائق حتى اوصلوه الى حدود المملكة العثمانية في ولاية البصرة .

جمال الدين والسلطان عبد الحميد : خرج جمال الدين على عادته ، من حضرة السلطان الى حجرة رئيس القرناء ، فقال له بلطف : يا حضرة السيد ، ان اجلال السلطان لحضرتك لم يسبق له مثيل ، واليوم رأيناك تخاطبه بلهجة غريبة ، وانت تلعب في السبحة في حضرته .

فقال جمال الدين : « سبحان الله ، ان جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الامة على هواه ، وليس من يعترضه منهم . أفلا يكون لجمال الدين حق ان يلعب في سبحته كيف يشاء ؟ » اما رئيس القرناء فترك حجرته مهرولا خائفا ، يترقب من هذا الكلام بهذه اللهجة ، ان يوشى به الى السلطان .

رأس بلا تاج او تاج بلا رأس : « لا يسلم ، على الغالب ، الشكل الدستوري الصحيح مع ملك ذاق لذة التفرد بالسلطان ، ويعظم عليه الامر كلما صادمه مجلس الامة بارادته ، أو غلبه على هواه .

« لذلك قلت : اذا اتاح الله رجلا قوياً عادلاً لمصر وللشرق ، يحكمه بأهله ، ذلك الرجل اما ان يكون موجوداً او تأتي به الامة ، فتملكه على شرط الامانة والخضوع لقانونها الاساسي وتتوّجه على هذا القَسَم ، وتعلنه أنه يبقى التاج على رأسه ، ما بقي هو محافظاً اميناً على صون الدستور ، وانه اذا حنث بقسمه وخان دستور الامة ، اما ان يبقى رأسه بلا تاج ، او تاجه بلا رأس .

« هذا ما يحسن بالامة فعله اذا هي خشيت من امرائها وملوكها عدم الاخلاص لقانونها ، او عدم قابليتهم لقبول الشكل الدستوري قلباً وقالباً . »

الايمان بقدرة الانسان : « نعم، ان الانسان من اكبر اسرار هذا الكون، ولسوف يستجلي بعقله ما غمض وخفي من اسرار الطبيعة، وسوف يصل بالعلم وباطلاق سراح العقل الى تصديق تصوراته فيرى ما كان من التصورات مستحيلا قد صار ممكناً، وما صوره جموده وتوقف عقله عنده بانه خيال قد اصبح حقيقة . »

شكل الحكم مسألة اساسية : « وانظروا اذ ذاك الى نهضة الشرق ، خصوصاً متى تغير شكل الحكم في اهله ، فترو الشرق قد عاد مشرقا بالعلماء ، زاهراً بحقائق العلوم مثبتاً ، مقررا لكل ما هو نافع ويصلح ان يبقى اثراً . »

الاستعمار ككل شيء له عمر ينتهي عنده : « ولما كان لحياة الامم والدول ادوار وآجال ، ولحدوثها وتكونها ، وتعاليها ثم توقفها ، وانحطاطها اسباب وعوامل ، هكذا وجب ان يكون الاستعمار خاضعا لتلك النواميس الكونية ، بمعنى انه يصل الى حد محدود واجل معلوم . وانقضاء اجل الاستعمار انما يتم بزوال الاسباب التي مكنت اهله من التسلط ، واكرهت الشعوب على الخضوع لهم . – (عن كتاب « خاطرات جمال الدين الافغاني » للمخزومي).

الدكتور شاكر الخوري
١٨٤٧ – ١٩١١

الحرية السياسية التي نلناها هي : خلاصنا من الجاسوسية والمراقبة . فالاولى تخربنا وتجعلنا محتالين غشاشين قاتلين ، وتجعل حياتنا بيد مفسد دنيء يبيعنا حسب شهواته ، والثانية تجعلنا في جهل وتأخر بحيث نرى انفسنا ادنى من الحيوانات . فالمراقبة هي

التي جعلت صاحب مطبعة كتابي أن يقول طبع في مصر ، مع انه طبعه في بيروت . والذي علّمه الكذب هي (؟) المراقبة ، فلا ظلم امرّ من الجاسوسية ، ولا ضعف اذل من المراقبة التي تفتكر ان بمجرد كتاب ، او حرف في كلمة ، او كلمة في جملة تخرب المملكة وتتغير افكار الرعايا ، فاي كتاب لحد الآن عمل هذا العمل ؟

والسبب لانتشار مبدأ هو جعل الناس مستعدة لقبوله . فالظلم السابق يجعل الانسان يتغير بسهولة ، وينتقل الى مبدأ ضده . فهذه هي الاسباب التي تغير الافكار . فالدستور الذي هو الكتاب السياسي المقدس للمملكة العثمانية لا يمكن حفظه ما لم تحفظه الجندية وتحام عنه . فيلزم ، عند دخول الجندي في العسكرية ، ان يحلف يميناً بالمحافظة عليه . وكذلك كل مستخدم . والامل من (المبعوثان) تعديله ولا يكون اجتماعهم كبرج بابل تتبلبل فيه اللغات لكثرتها ، ويتقلدون الخطباء الاقدمين بخطاباتهم ويخرجون عن موضوع الاصلاح الحالي ، وان يسن لكل ولاية بعض قوانين مخصوصة حسب عوائدها ، ومناخها ، وعلمها وجهلها ، ليكون الاتحاد اعظم ... لان مملكتنا مكونة من ولايات فيها اعظم تمدن ، ومن اخرى متوحشة جداً ، فلا يمكن تكلم الاثنين بلغة واحدة ، فحكمة (المبعوثان) ترتب ذلك ...



عبد الله نديم

١٢٦١ هـ – ١٣١٤ هـ

فصل الشورى : نحن معاشر الشرقيين في حاجة الى نقد الافكار وتفتيش الآراء حتى فيما يصدر منا في الشؤون الاهلية ، لنبذ الضار والاخذ بالنافع . فقد يصدر الرأي من انسان عن الاخلاص ويكون قد تلوّت عليه المطالب ، فيخرج الرأي خطيراً يضرنا الاخذ به وان كان صاحبه لم يقصد الضرر . ولا ينبغي الاعتماد على

ذوي المظاهر العلمية والادارية قبل ان نعرض افكارهم على المبادىء والخواتيم ، فان الحائز لثقة الناس به كثيراً ما تدعوه العجلة للسقوط في وهدة الارتباك فيقول من غير تروٍ ويعمل بغير تدبير املاء بانه لا يُعارَض قوله ولا يقبّح عمله . وقد درست الامم الغربية هذه المقدمات وعلمت ما وراء الاقتداء بالنزلاء واهل الشهرة من الانحطاط ، فاعتمدت على مجالس شوراها لتستخلص من تضارب الافكار واختلاف الاحزاب قواعد لا تنقضها الحوادث وقوانين تلائم التابع والمتبوع وتبقى بها دعائم الدولة قائمة على اساس متين . ولم تتوصل لهذا المقصد الحسن الا باعتمادها على من يخوض لجج المنايا في حفظ وطنه من طامع في امتلاكه او عادٍ على اهله ، وبهذا التمحيص نجحت اعمالهم وقويت شوكتهم ونفذت سلطتهم وتخطت سطوتهم اوطانهم الى غيرها فتحاً واستعماراً .

وقد توالت الاعوام والجرائد تنقل لنا ، معاشر الشرقيين ، اخبار اولئك الفائزين وتشرح لنا من اعمالهم التي حيرت الافكار وادهشت العقول ما ساعدهم عليه تمحيص الرأي وتوحيد الكلمة وتمحيص المتشاورين . ونحن قعود على قارعة الكسل والتهاون نكتفي بالتفرج على الامم العاملة ونفرح بما نراه من فوزها ونغضب اذا تأخر فريق منها . وقد انصرفنا عن مصالح اوطاننا وعمينا عن طريق تقدمنا وحيل بيننا وبين مجاراة هؤلاء العقلاء بسور الانفة من استشارة الفقراء ومفاوضة الضعفاء ، وان كانوا قد امتلأوا علماً وكسبوا نباهة ، فاذا عوّلنا على التشاور يوماً جمعنا ارباب الاموال واهل الوجاهة من غير تخير العقلاء منهم ولا تمييز الاغبياء من الاذكياء وحشرنا هذا الشتيت في قاعة حبس لا يراهم فاضل ولا يسمعهم خبير ، فيحيصون حيصة تنجلي عن نكبات تُجلَب في صور مضار تدفع او منافع تصنع ، وليس وراء هذا التقصير غير التدمير . ولئن قيل ان التجارب دلتنا على ان الشورى لا تنجح في الشرق ، او ان الشرقيين غير عقلاء كما يزعم محبو الاثرة والانفراد بالتسلط ، قلنا : ان اتحاد الشرقي مع الغربي في الخلق يرد هذه الدعوى الباطلة ، وانما ثابر الغربيون على العمل بالشورى واخذوا يصححون الاغاليط ويراجعون الخطأ ويتبادلون الجدل عن عزائم صادقة حتى تربت الملكات وتصورت المطالب امامهم بصور الواقعيات ، وما اوصلهم لهذه الغاية الا

اعتمادهم على الفضلاء والاذكياء منهم ، حتى اضطر الاغنياء والوجهاء لدراسة العلوم والفنون السياسية التي بها ترشحوا للدخول في اندية الشورى . ومـا زالوا يزاولون ويبحثون في الامم والدول حتى قبضوا على ازمة الملك بعصبية قوية ووقفوا امام ملوكهم حصوناً تقيهم الفتن الداخلية والغوائل الخارجية . فماذا على الشرقيين لو جاروهم في هذه الطريق وهي سهلة لا حزن فيها ولا وعورة ، ولا يلزم للدخول فيها اكثر من انتخاب العقلاء والفضلاء وانسلاخ اهل الذاتيات لنخرج من مضيق هذه المصيبة التي اصيب بها بعض نبهاء الشرق من خدمة الاجنبي ولو ببيع الوطن اليه ، وما وضعهم في هذه النقطة الذميمة الا التربية الاجنبية من جهة وتغافل الملوك عنهم من جهة اخرى .

وهم (الملوك) قادرون على تربيـة ابناء بلادهم على حب الوطن والملة والدولة وتدريبهم على الاعمال الادارية والحربية والصناعية وترقيتهم بقـدر استحقاقهم ، وسد باب الاجنبي امامهم باعطائهم الحقوق الوطنية والملكية وتسليمهم الاعمال العاليـة التي ترشحوا لها واستعدوا للقيام باعبائها ، فانهم ان فعلوا ذلك ملأوا صدور الامم محبة لهم واستمالوهم اليهم ، فكانوا اسهل انقياداً اليهم من رجال الاستعباد . فان المستعبَد يقاد اضطراراً ، وهذا يخدم اختياراً ، وشتان بين الحالتين . وسنعود لهـذا الموضوع ان شاء الله تعالى معتمدين على الشواهد القرآنية والاعمال النبوية مؤيدين ذلك بما كان ايام الخلفاء الراشدين ليتحقق الشرقي ان السلامة والنجاح في الشورى واخـذ آراء المحنكين العارفين بالامم واحوالها . — (من مقال له) .

■

عبد الرحمن الكواكبي

١٨٤٩ ـ ١٩٠٢

تعريف الاستبداد : الاستبداد لغة هو اقتصار المرء على رأي نفسه فيما تنبغي الاستشارة فيه ، وبعبارة اخرى الاستبداد ان يحكم الحاكم بامره حسب هواه وامياله .

يراد بالاستبداد عند اطلاقه استبداد الحكومات خاصة لانها هي اقوى العوامل التي جعلت الانسان اشقى ذوي الحياة ولو انصفت لجعلته اسعد الخلائق . واما تحكم رؤساء بعض الاديان وبعض العائلات وبعض الاصناف فيوصف بالاستبداد مجازاً او مع الاضافة لان ضرره يقتصر على البعض دون الكل .

والاستبداد في اصطلاح السياسيين هو تصرف افراد او جمع في حقوق قوم بلا خوف تبعة او احترام شريعة آلهية او قانون بشري .

وقد تطرق مزيدات على هذا المعنى فيستعملون في مقام كلمة « استبداد » كلمات استعباد واعتساف وتسلط وتحكم . في مقابلتها كلمات شرع مصون ، وحقوق محترمة ، وحس مشترك ، وحياة طيبة .

ويستعملون في مقام صفة « مستبد » كلمات حاكم بامره . وحاكم مطلق . وظالم . وجبار . يقابلها حاكم بالشورى . وحاكم مقيد بقوانين . وعادل . ووديع . وفي مقابلة حكومات مستبدة كلمات عادلة . ومسئولة . ومقيدة . ودستورية .

ويستعملون في مقام صفة « مستبَد عليهم » كلمات اسرى . واذلاء . ومستصغَرين . ومستنبتين . وفي مقابلتها محتسبون . واباة . واحرار . واحياء .

هذا تعريف الاستبداد باسلوب ذكر المرادفات والمقابلات . واما تعريفه بالوصف فهو ان الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين .

ومنشأ الاستبداد انما هو من كون الحكومة غير مكلفة بتطبيق تصرفها على شريعة او على امثلة او على ارادة الامة ، وهذه حالة الحكومات المطلقة التي تخلصت من قيود القوانين بجهل رعاياها ، واما من كونها مقيدة بنوع من ذلك ولكنها تملك بنفوذها إبطال قوة القيد بما تهوى ، وهذه حالة اكثر الحكومات التي تسمي نفسها بالمقيدة . والصحيح ان الانسان لم يتوفق حتى الآن لايجاد حكومة دستورية تحكم بمشورة الامة بمعنى الشورى الحقيقي .

واشكال الحكومة المستبدة كثيرة ليس هذا البحث محل تفصيلها . ويكفي هنا الاشارة الى ان صفة الاستبداد كما تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم

بالغلبة او الوراثة ، تشمل ايضاً الحاكم الفرد المقيد الوارث ، او المنتخب متى كان غير محاسب . وكذلك تشمل حكومة الجمع ولو منتخباً لان الاشتراك في الرأي لا يدفع الاستبداد وانما قد يعدله نوعاً وقد يكون احكم واضر من استبداد الفرد . ويشمل ايضاً الحكومة الدستورية المفرقة فيها قوة التشريع عن قوة التنفيذ لان ذلك ايضاً لا يرفع الاستبداد ولا يخففه ما لم يكن المنفذون مسئولين لدى المشرعين وهؤلاء مسئولون لدى الامة التي تعرف ان تراقب وان تتقاضى الحساب ، وهذه افضل الحكومات لو وجدت [1].

وخلاصة ما تقدم ان الحكومة من اي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها كما جرى في صدر الاسلام فيما نقم على عثمان بن عفان رضي الله عنه يوم خص بحكمه ذوي قرباه دون المسلمين ، وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة في فرنسا في مسائل النياشين وبناما ودريفوس .

ومن الامور المقررة انه ما من حكومة عادلة تأمن المسئولية والمؤاخذة بسبب من اسباب غفلة الامة او اغفالها لها ، الا وتسارع الى التلبس بصفة الاستبداد ، وبعد ان تتمكن فيه لا تتركه وفي خدمتها شيء من القوتين الهائلتين المهولتين : جهالة الامة والجنود المنظمة .

الاستبداد والعلم : ما اشبه المستبد في نسبته الى رعيته بالوصي الخائن القوي على ايتام اغنياء يتصرف في اموالهم وانفسهم كما يهوى ما داموا قاصرين . فكما انه ليس من صالح الوصي ان يبلغ الايتام رشدهم ، كذلك ليس من غرض المستبد ان تتنور الرعية بالعلم .

لا يخفى على المستبد ان لا استعباد ولا اعتساف ما لم تكن الرعية حمقاء تخبط في ظلامة جهل وتيه عماء . فلو كان المستبد طيراً لكان خفاشاً يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل . ولو كان وحشاً لكان ابن آوى يتلقف دواجن الحواضر في غشاء الليل .

---

[1]) سبق لنا ان نبهنا الى مقابلة هذا الرأي برأي مونتسكيو في فصل السلطات واستقلال بعضها عن بعض .

العلم قبسة من نور الله وقد خلق الله النور كشافاً مبصراً ولاّداً للحرارة والقوة ، وجعل العلم مثله وضاحاً للخير فضاحاً للشر يولد في النفوس حرارة وفي الرؤوس شهامة ·

المستبد لا يخشى علوم اللغة المقومة للسان اذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماسة تعقد الالوية او سحر بيان يحل الجيوش · لانه يعرف ان الزمان ضنين بان تلد الامهات كثيراً من امثال الكميت وحسان او مونتسكيو وشيلار ·

وكذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد لاعتقاده انها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة وانما يتلهى بها المتهوسون للعلم · فاذا نبغ فيهم البعض ونالوا شهرة بين العوام لا يعدم وسيلة لاستخدامهم في تأييد امره بنحو سدّ افواههم بلقيمات من فتات مائدة الاستبداد ·

ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الامم وسياسة المدنية والتاريخ المفصل والخطابة الادبية وغيرها من العلوم الممزقة للغيوم المبشقة الشموس المحرقة الرؤوس ·

ويقال بالاجمال ان المستبد لا يخاف من العلوم كلها بل من التي توسع العقول وتعرف الانسان ما هو الانسان وما هي حقوقه وهل هو مغبون ، وكيف الطلب وكيف النوال وكيف الحفظ · المستبد عاشق للخيانة والعلماء عواذله · المستبد سارق ومخادع والعلماء منبهون محذرون ، وللمستبد اعمال وصوالح لا يفسدها عليه الا العلماء ·

المستبد كما يبغض العلم لنتائجه يبغضه لذاته ، لان للعلم سلطاناً اقوى من كل سلطان ، فلا بد للمستبد من ان يحتقر نفسه كلما وقعت عينه على من هو ارقى منه علماً · ولذلك لا يحب المستبد ان يرى وجه عالم ذكي ، فاذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس يختار المتصاغر المتملق · وعلى هذه القاعدة بنى ابن خلدون قوله : فاز المتملقون ، بل هذه طبيعة في كل المتكبرين وعليها مبنى ثنائهم على كل من يكون مسكيناً خاملاً لا يرجى لخير ولا لشرّ ·

وينتج مما تقدم ان بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة وطراداً مستمراً : يسعى العلماء في نشر العلم ويجتهد المستبد في اطفاء نوره · والطرفان يتجاذبان العوام · ومن هم العوام ؟ هم اولئك الذين اذا جهلوا خافوا واذا خافوا استسلموا · وهم الذين متى

علموا قالوا ومتى قالوا فعلوا .

العوام هم قوت المستبد وقوّته ، بهم عليهم يصول وبهم على غيرهم يطول . يأسرهم فيتهللون لشوكته ، ويغصب اموالهم فيحمدونه على ابقاء الحياة ، ويهينهم فيثنون على رفعته ، ويغري بعضهم على بعض فيفتخرون بسياسته ، واذا اسرف باموالهم يقولون عنه انه كريم ، واذا قتل ولم يمثل يعتبرونه رحيما ، ويسوقهم الى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب ، وان نقم عليه منهم بعض الاباة قاتلوهم كأنهم بغاة .

والحاصل ان العوام يذبحون انفسهم بايديهم بسبب الخوف الناشيء عن الجهل ، فاذا ارتفع الجهل زال الخوف وانقلب الوضع ، اي : انقلب المستبد رغم طبعه الى وكيل امين يهاب الحساب ورئيس عادل يخشى الانتقام واب حليم يتلذذ بالتحابب .

وحينئذ تنال الامة حياة رضية هنية . حياة رخاء وغناء . حياة عز وسعادة . ويكون حظ الرئيس من ذلك رأس الحظوظ بعد ان كان في دور الاستبداد اشقى العباد لانه كان على الدوام محاطاً بالاعداء ملحوظاً بالبغضاء غير امين على حياته طرفة عين .

ولا شك ان خوف المستبد من نقمة رعيته اكثر من خوفهم بأسه ، لان خوفه ينشأ عن علم وخوفهم ناشيء عن جهل ، وخوفه من انتقام بحق وخوفهم عن توهم التخاذل ، وخوفه على فقد حياته وسلطانه وخوفهم على لقيمات من النبات وعلى وطن يألفون غيره في ايام .

وكلما زاد المستبد ظلماً واعتسافاً زاد خوفه من رعيته ومن حاشيته وحتى من هواجسه وخيالاته . وكثيراً ما تختم حياة المستبدين الضعيفي القلوب منهم بالجنون .

ومن قواعد المؤرخين المدققين ان احدهم اذا اراد الموازنة بين مستبدين كنيرون وتيمور مثلا يكتفي ان يوازن درجة ما كانا عليه من التحذر والتحفظ . واذا اراد المفاضلة بين عادلين كأنوشروان وصلاح الدين يوازن مرتبتي امنهما في قومهما .

لما كانت اكثر الديانات القديمة مؤسسة على مبدئي الخير والشر كالنور والظلام والشمس وزحل والعقل والشيطان رأت بعض الامم الغابرة ان اضر شيء على الانسان هو الجهل واضر آثار الجهل هو الخوف فعملت هيكلا مخصصا للخوف يعبد اتقاء لشره .

قال احد المحررين السياسيين : اني ارى قصر المستبد في كل زمان هو هيكل الخوف عينه ، فالملك الجبار هو المعبود واعوانه هم الكهنة ومكتبته هي المذبح المقدس والاقلام هي السكاكين وعبارات التعظيم هي الصلوات والناس هم الاسرى الذين يقدمون القرابين ·

ويقول اهل النظر في احوال البشر : ان خير ما يستدل به على صفة السياسة في الامم شنآن الملوك وفخامة القصور وعظمة الحفلات ومراسم التشريف ·

يقولون انه كذلك يستدل على عراقة الامة في الاستبداد او الحرية باستنطاق لغتها هل هي كثيرة الفاظ التعظيم غنية في عبارات الخضوع كالفارسية مثلا ام فقيرة في هذا الباب كالعربية ·

والخلاصة ان الاستبداد والعلم ضدان متغالبان ، فكل ادارة مستبدة تسعى جهدها في اطفاء نور العلم وحصر الرعية في حالك الجهل · وكذلك بعض العلماء الذين ينبتون في مضايق صخور الاستبداد يسعون جهدهم في تنوير افكار الناس · والغالب ان رجال الاستبداد يطاردون رجال العلم وينكلون بهم ، فالسعيد منهم من يتمكن من مهاجرة دياره · وهذا سبب ان كل الانبياء العظام عليهم الصلاة والسلام واكثر العلماء الاعلام والادباء النبلاء تقلبوا في البلاد وماتوا غرباء ·

قال المدققون : ان اخوف ما يخافه المستبدون الغربيون من العلم ان يعرف الناس حقيقة ان الحرية افضل من الحياة · وان يعرفوا النفس وعزها والشرف وعظمته والحقوق وكيف تحفظ والظلم وكيف يرفع والانسانية وما هي وظائفها والرحمة وما هي لذاتها ·

اما المستبدون الشرقيون وخوفهم من العلم فافئدتهم هواء ترتجف من صولة العلم وكأن اجسامهم من بارود والعلم نار · نعم يخافون من العلم حتى من علم الناس معنى كلمة « لا اله الا الله » ، ولماذا كانت افضل الذكر ولماذا بني عليها الاسلام ؟ بني الاسلام بل وكافة الاديان على : لا اله الا الله ، ومعنى ذلك انه لا يعبد حقاً سواه اي سوى الصانع الاعظم ، ومعنى العبادة التذلل والخضوع · فيكون معنى لا اله الا الله : لا يستحق التذلل والخضوع شيء غير الله · فهل والحالة هذه يناسب المستبدين ان

يعلم عبيدهم ذلك ويعملوا بمقتضاه ؟ كلا ثم كلا .

حتى ان هذا العلم لا يناسب صغار المستبدين كخدمة الاديان الاقوياء او الاغبياء والآباء الجهلاء والازواج الحمقاء ورؤساء كل الجمعيات الضعيفة . ولهذا ما انتشر نور التوحيد في امة قط الا وتكسرت فيها قيود الاسر ، ولكن قتل الانسان ما اكفره بنعم مولاه وما اظلمه لنفسه وجنسه !

الاستبداد والاخلاق : تفعل العدالة في اخلاق البشر ما تفعله العناية في انشاء الشجر . فالاقوام كالآجام ان تركت مهملة تزاحمت اشجارها وسقم اكثرها وتغلب قويها على ضعيفها فأهلكه وهذا مثل القبائل المتوحشة . وان صادفت بستانياً يهمه بقاؤها وزهوها فدبرها حسبما تطلبه طباعها ، قويت واينعت وحسنت ثمارها وهذا مثل الحكومة العادلة . واذا بليت بحطاب لا يعنيه الا عاجل الاكتساب افسدها وخربها وهذا مثل الحكومة المستبدة . ومتى كان البستاني او الحطاب غريباً لم يخلق من تراب تلك الديار وليس له فيها فخار ولا يلحقه منها عار انما همه الحصول على الفائدة العاجلة ولو باقتلاع الاصول فهناك الطامة وهناك البوار . فبناء على هذا المثال يكون مقام الاستبداد بازاء الاخلاق مقام ذلك الحطاب الذي لا يرجى منه غير الافساد .

لا تكون الاخلاق اخلاقا ما لم تكن مطردة على قانون وهذا ما يسمى عند الناس بالناموس . ومن اين لاسير الاستبداد ان يكون صاحب ناموس وهو كالحيوان المملوك العنان يقاد حيث يراد ويعيش كالريش يهب حيث تهب الريح لا نظام ولا ارادة . وما هي الارادة ؟ هي ام ناموس الاخلاق . هي ما قيل فيها تعظيماً لشأنها : لو جازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الارادة . هي تلك الصفة التي تفصل الحيوان عن النبات في تعريفه بانه متحرك بالارادة . فاسير الاستبداد الفاقد الارادة هو مسلوب حق الحيوانية فضلا عن الانسانية لانه يعمل بامر غيره لا بارادته . ولهذا قال الفقهاء : لا نية للرقيق في كثير من احواله انما هو تابع لنية مولاه .

اسير الاستبداد لا نظام في حياته قد يصبح غنياً فيضحي شجاعاً كريماً ويمسي فقيراً فيبيت جباناً خسيساً ، وهكذا كل شؤونه تشبه الفوضى لا ترتيب فيها فهو يتبعها

بلا وجهة . فالاسير لا يبعي على الاسير فيزجر او لا يزجر ويبغى عليه فينصر او لا ينصر . ويجوع يوماً فيضوى . ويخصب يوماً فيتخم . يريد اشياء فيمنع ويأبى شيئاً فيرغم . ومن كانت هذه حاله كيف يكون له خلاق وان وجد ابتداء فكيف لا يفسد ؟

اقل ما يؤثر الاستبداد في اخلاق الناس انه يرغم الاخيار منهم على الفة الرياء والنفاق ولبئس السيئتان، ويعين الاشرار على اجراء غي نفوسهم آمنين حتى من الانتقاد والفضيحة لان اكثر اعمالهم تبقى مستورة يلقي عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعة الشهادة وعقبى ذكر الفاجر بما فيه .

اقوى ضابط للاخلاق النهي عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ وهو في عهد الاستبداد غير مقدور عليه لغير ذوي المنعة مع الغيرة وقليل ما هم ، وقليلا ما يفعلون وقليلا ما يفيد نهيهم لانه لا يمكنهم توجيهه لغير المستضعفين الذين لا يملكون ضراً ولا نفعاً بل ولا يملكون من انفسهم شيئاً ، وينحصر موضوع نهيهم وانتقادهم في الرذائل النفسية الشخصية فقط مما لا يخفى على احد . اما المتصدرون في عهد الاستبداد للوعظ والارشاد فيكونون مطلقا ولا اقول غالبا من المتملقين المرائين . وما ابعد هؤلاء عن التأثير لان النصح الذي لا اخلاص فيه هو بذر ميت . اما النهي عن المنكرات في الادارة الحرة فيمكن كل غيور ان يقوم به بامان واخلاص ويوجهه الى الضعفاء والاقوياء سواء ويفوّق سهام قوارصه على ذوي الشوكة والزعماء ويخوض في مواضيع تخفيف الظلم وتسديد النظام ، وهذا هو النصح الذي يغدي ويجدي .

ولما كان ضبط اخلاق الطبقات العليا من الناس من اهم الامور ، اطلقت الامم الحرة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات مستثنية القذف فقط . ورأت ان تحمل مضرة الفوضى في ذلك خير من التحديد لانه لا ضامن للحكام ان يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد يخنقون بها عدوتهم الطبيعية اي الحرية . وقد حمى القرآن قاعدة الاطلاق بوضعه قاعدة : ولا يضارّ كاتب ولا شهيد .

وهذه الامم الموفقة خصصت منها جماعات باسم مجالس نواب وظيفتها السيطرة والاحتساب على الادارة العمومية السياسية . وذلك منطبق تماماً على ما امر به القرآن

الكريم في آية : « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ، وفي كمالة هذه الآية وهي : « واولئك هم المفلحون » من التبجيل ما يحمل نفوس الابرار على تحمل مضض القيام بهذه الوظيفة الشريفة في ذاتها ، الممقوتة طبعاً عند المستبد واعوانه . - (نقلا عن كتاب «طبائع الاستبداد ») .



شبلي الشميل

١٨٥٣ - ١٩١٧

دفاع عن حرية القلم : ان الآلات التي يخترعها الانسان (ومنها القلم) ليست سوى اعضاء اضافية متممة لاعضائه الطبيعية ، فلا يجوز ان تعامل معاملة استثنائية تخالف معاملة الاعضاء الطبيعية نفسها ، فكما انه لا يشترط على الانسان لاستعمال رجليه خوفاً من ان يسعى بهما الى الشر ، او يديه خوفاً من ان يجني بهما ، لا يجوز ان يشترط عليه كذلك لاستعمال اعضائه الاضافية . فاذا جنى بها فالقانون الذي يتكفل بمعاقبة جنايات الاعضاء الطبيعية ، وهو القانون العام ، يجب ان يتكفل بمعاقبة جنايات الاعضاء الاضافية ايضاً .

المستقبل لسيادة الامم : ومن يوم خطت اوروبا خطاها في سبيل العلم الحقيقي ، واخذ ظل الاوهام يتقلص من العقول ، صار الامل كبيراً بسرعة هذا الارتقاء (ارتقاء نواميس الاجتماع) . ولا نريد بهذا القول انها (اي اوروبا) على وشك بلوغ الغاية القصوى فيه ، وانما هي اليوم على فجر النهضة الحقيقية . ولا ريب في انها ستكون الاولى في الاستفادة ، وسيكون شأنها شأن المنارة التي يستضيء العمران بها في العالم اجمع ، لسهولة ارتباط بعضه ببعض وسيطرة بعضه على بعض اليوم بفضل مكتشفات العلم ومخترعات الصناعة . واول خطاها في هذا السبيل ستكون تأييد سيادة الامم

سيادة حقيقية وسقوط سيادة الملوك ٠

نظام الحكم وعامله الاساسي في رقي الامم وانحطاطها : ان حكومات الشرق هي التي ساعدت على فساد الاخلاق الى هذا الحد ٠ فقد تقدم ان الفرق من عهد ابقراط الى اليوم بين حكومات المغرب وحكومات المشرق ان تلك تحكمها شرائعها وهذه تحكمها ملوك ٠ وان تعدلت الاحكام في بعض ممالك الشرق اليوم فما تعديلها الا صورة لا معنى ٠ فان ملوك الشرق ما زالوا فوق شرائعهم ، فأماتت حكوماتهم من الامة عواطف الشهامة والاقدام بما ثقلت على كواهلهم من الاذلال وسائر ما يجر اليه الاستبداد وقوّت فيه كل الصفات الدنيئة الهادمة لصروح الاجتماع بما اخمدت من قوى العقل باطفائها نور العلم ٠

الحكومة والامة : الحكومات مظهر من مظاهر الامة ، وهي تختلف باختلاف الامم ٠ فكلما ارتقت امة في العمارة ارتقت حكومتها كذلك ، وهو معنى قوله « وكما تكونون يولى عليكم » فلا ينتظر ان تكون الحكومة اصلح من الامة التي نشأت فيها بل لا تلام الحكومة اذا داست باخمصها رقاب الرعية ، وهل تداس رقاب تأبى ان تداس ؟ وان من ينتظر الاصلاح عفواً من اية حكومة كانت يجهل ولا شك تاريخ نشوء الامم والعمران ٠ وها ان التاريخ امامنا يعلمنا ان الحكومات في كل زمان ومكان هي آخر من يذعن للاصلاح اذا لم تقم العقبات في سبيله ٠ وهل بلغت امم اوروبا مبلغها من التمدن اليوم بفضل حكوماتها ؟ لا لعمري ٠ انما بلغته ولا تزال مجدة فيه بفضل تألبها واتحاد كلمتها ورفع الرؤوس المطأطأة وتقويم الظهور المقوّسة ، والمشي على الاقدام ، لا الزحف على الركب ، وربط حكوماتها كما تربط القرناء واتلالها كما تتل السائمة وجرها ووراءها قوة واقتداراً ٠ والامم التي لم تستطع ذلك لعدم توفر اسباب القوة فيها عفّاها الدهر واستغرقها التنازع ولم يبق لها الا آثاراً ، او لم يبق لها اثراً وتركها خبراً مسطوراً ٠ — (سنة ١٨٩٨) ٠

اديب اسحاق

١٨٥٦ - ١٨٨٥

أديب اسحق يربط الانتفاضات الشرقية بثورة فرنسا :

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك ان يكون لها ضرام

بل هي شعلة اصلاح كانت في كمون الدهر في عالم الضياء والنور ، فساقتها يد الحكمة بعدات الحركة الى عالم الظهور ، وسرت في اوروبا من جانب الغرب الاقصى ، وكمنت في ما وراء المانش اياماً واعواماً متنقلة من صورة الى صورة ومن كيفية الى كيفية ، حتى اعدت لها طريق البروز ، فظهر ضرامها بعد الخفاء وانبعثت منها جراثيم الضياء ، فغيرت هيئة الارض وحالة الناس ، وطهرت ذلك الجانب من الارجاس : تلك ثورة الفرنسيس ا برزت الى عالم الفعل عام ١٧٨٩ وصدمت قوة الاستبداد فزلزلتها ودفعت سطوة التقليد فضعضعتها ورفعت عن العيون نقابها وعن النفوس حجابها فآنست من جانبها الحرية وخلعت جلابيب الرق والعبودية واجتمعت على ولائها وتألبت تحت لوائها لتدفع عنها من رام اطفاء نورها وافساد امورها فتصدى لها اعوان الرق وانصار العبودية ، وما آلوا في قتالها جهداً فلقيتهم وهي ترى الموت في الحرية حياة ، والحياة في الرق موتاً ، فلم يبلغوا منها قصداً ورسخت في عالم الوجود قدمها وكثر الملأ من حولها ، وادهشت الدنيا بشدة حولها . ثم جرت عليها الشهور والاحوال وتقلبت الامور والاحوال ورأى العدو منها غفلة فدهم ، واغتنم من الزمان فرصة فهجم ، وغلب امره وتأيد واستقام ملكه وتوطد الى ان ساقته يد القدرة الى التهور في ما جر اليه واليها البلاء الاليم [١] ، فتسنى لها ان تدفع عنها شره ورب شر يجيء بالخير العظيم ، ثم عادت الى سابق عزها والعود احمد فانفتحت في بلادها ، نعني فرنسا ، كنوز الثروة وتوفرت اسباب القوة والسطوة وصفت موارد السعادة والهناء ، وانتفت اسباب المتاعب والشقاء ، وهي الآن على ما نرى من العز والمناعة والتقدم في الزراعة والتجارة

١) يشير الى نابليون الثالث وحرب السبعين مع الالمان .

والصناعة ·

ثم ذكرت تلك الشعلة وطنها القديم ، فحنت اليه ، ولا غرو ان يحن الغريب الى وطنه ، نعني الشرق ، مقر جراثيم الحركات الدينيـة والسياسية التي غيرت هيئـة الارض ، واحوال الانسان ، فسرت اليه تنبه غافله ، وتفقه جاهله ، وظهرت في بلاد « اخورا مازدا » بين ابناء « زرادشت » تحت سماء التقاليد ، نريد بـلاد الفرس · فان مذهب البابيين نسبة الى السيد علي محمد الملقب « باب المهدي » قد ظهر في تلك البلاد منذ نحو من ثلاثين سنة ، وعلق بقلوب النـاس فتمذهب به جمع كثير منهم واثاروا الفتنة على الحكومة وابرزوا من الجسارة والاقدام ما لم يسمع بمثله · وبعـد مقتل امامهم رمى بعضهم الشاه بالرصاص ، ولم يصب · وقد كان من اعمالهم الاخيرة ان جماعة منهم تشبهوا بالجند وقصدوا الشاه وهو سائر الى مدفن شاه زاده عبد العظيم للزيارة ، ثالث افريل (نيسان) سنة ٧٨ ، وقالوا له انا من جندك وقد طال علينا زمن الخدمة ولزوم الانصراف الى منازلنا ، فوعدهم ان ينظر في امرهم بعـد الرجوع الى القصر · ثم انهم هجموا على عربته ورموه بالحجارة الكبيرة وجرحوا جمـاعة من رجال حرسه · وكان على مقربة من مكان الحادثة طائفة من الجند ، فطير الشاه اليهم الخبر ، فجاؤوا مسرعين وقبضوا على جماعة من اهل الفتنة وعلم الشاه انهم من البابيين ·

وما افضنا في الكلام على آثار تلك الحركات الفكرية التي سرت في اوروبا من جانب غربها الاقصى ، الا لاننا نحسب الحركة التي ظهرت اخيراً في الاستانة ، حلقة من سلسلتها وهي الحركة التي ظهر اثرها الاول في عزل محمود نديم باشا اثر فتنة البلغار ، وخلع السلطان عبد العزيز وتنصيب السلطـان مراد [٢] ، وقد كثر عـدد الداعين اليها في الاستانة واجتهدت الدولة في خفض منارها واخماد نارها بابعاد زعمائها ، ونفي رؤسائها مع كثرة الشواغل وتواتر النوازل · وقـد جاءنا بالتلغراف وارداً من الاستانة بتاريخ ٢١ مايو سنة ٧٨ ، ان جماعة من العـامة قـد هجموا عـلى سراي جراغان [٣] مقر حضرة السلطان السابق ، فحاول رجال الحرس صدهم واعياهم ذلـك

٢) تعرف هذه الحركة في التاريخ العثماني بحركة الدستور الاول ، ابرز اعلامها مدحت باشا .

٣) تعرف هذه بحركة السعاوي ، وهو تركي هاجر امدا الى اوروبا فرارا من الظلم ،

فاطلقوا عليهم الرصاص ، وقتلوا منهم نفراً ، وجرحوا طائفة فاوجسنا من ذلك الخبر شراً وخفنا ان يكون نتيجة ما سبق من المقدمات في عهد ساكن الجنة عبد العزيز . ثم جاءنا في غد ذلك اليوم بيان ازال ذلك الخوف وابعد الايجاس . وهو ان الذين هجموا على السراي كانوا من المهاجرين . فترددنا بين تصديق الاول والثاني ، ورجحنا جانب الثاني بدليل ما جاء بعده من ان جماعة من اولئك المهاجرين قد ساروا الى الباب العالي يطلبون الاعانة وحملنا فتنتهم على الحاجة والفاقة . ثم ما لبثنا ان جاءنا بالتلغراف ما افسد الظن واعاد الايجاس من ان علي سعاوي افندي احد زعماء تركيا الجديدة كان في مقدمة الهاجمين على السراي ، وان رجال الحرس قد قتلوه فايقنّا ان هذه الفتنة هي من آثار تلك الحركة المتعلقة بسلسلة الحركات الفكرية التي ستغيّر لا شك عاجلا او آجلا هيئة الكرة الارضية ، ونظام الجمعية الانسانية .

الامم : الامة والجيل من كل حي ومن الرجل قومه وفي عرف اهل السياسة الجماعة المتجنسة جنساً واحداً الخاضعة لقانون واحد . وليس المراد بوحدة الجنس التوفيق بين الانساب لتعذر ذلك فيها ، ولما طرأ على انساب الناس ولا سيما الحضر من المفاسد الكثيرة ناشئة عن تخالط اقوام مختلفة انسابهم ، وتوالي الحروب والغارات ، وتوطن بعض الفاتحين فتوحهم ، وتزوجهم في اهلها ، الى غير ذلك مما جهلت به الانساب وخفيت به الاحساب الا ما حفظ بمناعة اهله عن ان يدانيهم فاتح غريب وهو قليل لا يقاس عليه . وانما المراد بوحدة الجنس اتفاق الجماعة على الاعتزاء الى جنس واحد يتوالدون فيه ، ويتسمون به ، كالجنس الاميركاني لسكان الولايات المتحدة الاميركية سواء كانوا انكليزاً او فرنسويين او اسبانيين او اميركانيين اصلا ، والعثماني لسكان البلاد العثمانية في اوروبا وآسيا سواء كانوا تركاً او عرباً او تتراً اصلا ، والاوستري لسكان سلطنة اوستريا سواء كانوا المانا او صقالبة او ايطاليين اصلا ، وهلم جرا .

وقد زعم بعض الناس ان من لوازم وحدة الامة وحدة لغتها وهو وهم لانه اما

ثم عاد الى وطنه وسلكت ثوريته مسلكا مشاغباً ، ولكنه كان من الممهدين لانقلاب سنة ١٩٠٨ .

ان يراد بذلك الاستدلال باللغة على الجنس اولا ، فان كان الاول فهو فاسد ، لانه قد يولد الانسان بين قوم وينبت فيهم فيتكلم بلغتهم ، وهو بعيد عنهم نسباً . ولان ما ذكرنا من تخالط الاقوام ، واغتراب الفاتحين ، قد احدث في لغات كثير من جماعات الناس فساداً ، بحيث صارت مزيجاً يعجز ابرع الكيماويين عن تحليله ، كما في لغة اهل مالطة مثلاً . فامتنع بذلك الاستدلال باللغة على الجنس . وان كان الثاني فهو من قبيل ايجاب ما ليس بواجب ، ولو اقتصر اهل هذا الرأي على استحسان وحدة اللغة في الامة لأحسنوا [٤] .

فقد ثبت بما ذكر ان الامة هي الجماعة من الناس تتجنس جنساً واحداً ، اي تتسم بسمة واحدة على اختلاف اصولها ولغاتها ، وتتعارف باسم تنتسب اليه وتتدافع عنه .

حد الوطن : اما الوطن فهو المسكن يقيم به الانسان ، وفي عرفهم البلاد يتوطنها سواد الامة الاعظم ، ويتوالدون فيها ، ولا يشترط فيه مساحة بدرجات معينة ، واقليم واحد بتخوم معروفة ، وانما تعريفه ما ذكر من توطد معظم الامة به . وقد يضاف الى الوطن بلاد لم تكن منه ، وهي اما ان تكون فتوحاً ضمت اليه عنوة ، واما ان تنضم اليه برضى اهلها . فان كان الاول فاما ان يكون ضمها قديم العهد ، وتكون معاملة حكومة الوطن لها معاملتها لسائر اهله فتثبت الملكية ، واما ان لا تكون هذا ولا ذاك ، فلا تثبت ، وان كان فلا مشاحة في صحة الانضمام .

... لا بد لذوي الحياة السياسية من وحدة يرجعون اليها ، ويجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجراً صلداً ، وان الوطن انما هو خير وجوه الوحدة لامتناع الخلاف والنزاع فيه ...

الوطن في اللغة محل الانسان مطلقاً ، فهو السكن بمعنى ان تقول : استوطن القوم

---

٤) سبق لنا ان ذكرنا ان اديب اسحق كان يكتب ايام الامبراطورية العثمانية ، ولذلك وقف هذا الموقف من وحدة اللغة في الامة ، والصحيح ان لا امة بلا لغة واحدة .

هذه الارض وتوطنوها اي : اتخذوها سكناً . وهو عند اهل السياسة مكانك الذي تنسب اليه ويحفظ حقك فيه ويعلم حقه عليك . وتأمن فيه على نفسك وآلك ومالك. ومن اقوالهم فيه : لا وطن الا مع الحرية . وقال لابروييير الحكيم الفرنسوي : لا وطن في حالة الاستبداد . وكان حد الوطن عند قدماء الرومانيين : المكان الذي فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية .

وهذا الحد الروماني الاخير لا ينقض قولهم : لا وطن الا مع الحرية ، بل هما سيان . فان الحرية انما هي حق القيام بالواجب المعلوم ، فان لم توجد فلا وطن لعدم الحقوق والواجبات السياسية ، وان وجدت فلا بد معها من الواجب والحق ، وهما شعار الاوطان التي تفتدى بالاموال والابدان ، وتقدم على الاهل والخلان ، ويبلغ حبها في النفوس الزكية بمقام الوجد والهيام .

اما السكن الذي لا حق فيه للساكن ولا هو آمن على المال والروح فغاية القول في تعريفه انه مأوى العاجز ، ومستقر من لا يجد الى غيره سبيلا .

الوطنية : وقد اختلف في سبب حب الوطن ، فقيل ان السبب فيه الالفة ، فان الانسان اذا الف شيئا احبه . واجيب بانه يخرج الانسان من وطنه صغيراً فينبت في آخر ، ولا ينسى مع ذلك حب وطنه . وقيل ان حب السكان يورث حب المكان ، كما قيل :

وما حب الديار يهيج وجدي ولكن حب من سكن الديارا

واجيب بانه قد ينتقل الانسان عن وطنه ، بمعظم اهله واصدقائه ، ولا ينفك مؤثراً وطنه بالحب . وعندنا ان ياء الاضافة في قولي وطني هي السبب في حبي لوطني ، كما ان ياء النسبة في قولنا فرنسوي هي السبب في حب الفرنسوي لأمته فتأمله . فلله من ياءين ياء نسبة وياء اضافة تدعوان الى فضيلتين حب الامة وحب الوطن .

ولقائل انك قد جعلت مصدر حب الوطن والامة ، الانانية (حب الذات) وهي نقيصة ، فكيف صح في قياسك صدور الفضيلة عن نقيضها ؟ وجوابه ان الفضيلة هي الدرجة الرفيعة في الفضل ، والفضل ضد النقص . اما الانانية فهي نسبة لضمير المتكلم

على غير قياس ، وهي في عرفهم ايثار الانسان نفسه بما يراه خيراً سواء جنى بذلك على غيره خيراً أم شراً ، وليس في حب الوطن او الامة شيء من ذلك كما ترى .

اما وجه كونهما فضيلة ، اي : درجة رفيعة في الفضل ، فهو لانهما يقضيـان على صاحبهما بخدمة الارض التي يغتذي بخيراتها ، والانسانية التي جعلته في جماعة من نوعه يعينونه على استحصال حاجاته ، ويدفعون عنـه اذى سائر الانواع . ولعلك لا ترضى بهذا تعليلا فتقول : ان خدمة الانسانية والارض لا ينبغي ان تنحصر في جمـاعة من الانسان ، او في جهة من الارض ، وانما يجب ان تكون عامة فيهما . والجواب انه لما رأى الانسان من نفسه عجزاً عن القيـام بجميـع حاجاته الطبيعية ، ودفع اذى سائر الحيوان ، تألف جماعة تفرقت فيها تلك الحاجات ، فصار هذا زارعاً ، وهذا حاصداً ، وذاك طاحناً ، وذاك عاجناً ، والآخر خابزاً ، وكل منهم في شأنه ساع . فلما كبرت هذه الجماعة عن ان يسعها قسم واحد من الارض تفرقت فيهـا فصارت جماعات منفصل بعضها عن بعض حسباً ، مع تواصلها بالنوعية . واقبلت كل جماعة منهـا على العمل في الارض التي اختارتها مقاماً استحصالا لحاجاتها واخذ كل من اهلها يعمل في ما ارتضاه لنفسه من الصناعات ، ليعين بمصنوعه رفيقه مستعيناً بما يصنعه ذلك الرفيق ، ولو حاول الانسان الاهتمام في جميع الارضين بجميـع المهن والمشاغل لفني عمره ولم يأت بفـائدة تامة بخلاف ما اذا اقتصر على العمل بمهنته ، في جماعته ، اذ تتيسر له اسباب الاعانة والاستعانة ، فتحصل الفائدة التامة في الجماعة وينتهي ذلك الى حصولها في النوع لما بين الجماعات من علاقات الانسانية . وهذا وجه الفضيلة في حب الامـة ، وحب الوطن ، فليرسمن اسمهما على صفحات كل قلب وليلهجن بذكرهما لسان كل انسان ، فانما المرء باصغريه القلب واللسان .

... ان النسبة للوطن تصل بينه وبين الساكن صلة منوطة باهداب الشرف الذاتي ، فهو يغار عليه ويذود عنه كما يذود عن والده الذي ينتمي اليـه ، وان كان سيء الخلق شديداً عليه . ولذلك قيل في هذا المقام ان ياء النسبـة في قولنا مصري وانكليزي وفرنسوي هي من موجبـات غـيرة المصري على مصر والفرنسوي على فرنسـا

والانكليزي على انكلترا ، فانكر ذلك بعض الناس وكان الامر لا شك سوء فهم او سوء افهام .

وجملة القول ان في الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه ان تكون حدوداً : الاول انه السكن الذي فيه الغذاء والوقاء والاهل والولد ، والثاني انه مكان الحقوق والواجبات التي هي مدار الحياة السياسية وهما حسيان ظاهريان ، والثالث انه موضع النسبة التي يعلو بها الانسان ويعز او يسفل ويذل ، وهو معنوي محضاً . — (عن كتاب « الدرر ») .

الثورة : قد رأيتهم شهداء طاعة عمياء ينحرهم خبثاء النفوس على مذابح الجور ، تزلفاً لطواغيت الفجور . فوقفت بربع العدل منادياً باهل الانسانية : يا لثارات الضعفاء !

فاجابني هاتف العصور ، من اغوار القبور : لقد انتجعت بوراً واتبعت غروراً ، فاننا ملأنا من قبلك الارض نداء وزفيراً ، فلم نجد من الناس نصيراً فعلمنا انهم لا يسخون بالنجدة لمن ضن بنفسه وتوكل على بني جنسه فاقتحمنا الاوجال في طلب الآمال ، فلم تكن الا جولة ولت الحرب اولادها ، وصولة سلبت السيوف اغمادها ، حتى سقينا غروس الاماني بالدم المهراق ، فنمت باسقة الفروع مخضرة العود يانعة الثمار ، فقلنا في ظلالها آمنين تحسبنا امواتاً وتخالنا رفاتاً ، ونحن في نعيم جنتها خالدون ، فاقتدوا بنا ان رمتم النجاح ، وانشطوا للسعي بالغدو والرواح .

فانما رجل الدنيا وواحدها من لا يعوّل في الدنيا على رجل

فعدت الى بقايا الضحايا احرك في عروقهم دم الغيرة ، وابث في صدورهم روح العزم ، وانشر من همتهم ما طوت الايام في قبور الاوهام ، بما اذكر من اخبار الامم وما اظهر من آثار ذوي الهمم لعلهم يستنجزون موعود الحق براغمة اعدائه الذين تمردوا وسعوا في الارض مفسدين ، ولعلهم يفلحون .

ولقد جعلت خبر الثورة ثورة الفرنسيس تمهيداً للخطاب وتمييناً للقدوة فاظهرت كيف تسنى لهؤلاء القوم ان يخرجوا من مضائق الظلم ، ومآزق العبودية ، اذ انفصل نوابهم عن المعتسفين من النبلاء واهل الكهنوت وجهروا بما كان يخفيه السكوت ،

حتى انقطع الجور بجبله المبتوت ، وكيف توافقوا على الاتحاد في خدمة الحق ليفوزوا فيشكروا او يبيدوا فيذكروا واقسموا : اذاً لا نفترق وفينا رمق حتى نؤيد في بلادنا امر الحرية . فاغلق الملك باب مجلسهم فاجتمعوا في ملعب القرية متوازرين متألفة قلوبهم يرومون القسم بالسوية والعدل في الرعية ويدعون الى الحق والى طريق مستقيم [٥] .

فكبر ذلك على عبيد الطمع وحلفاء الجزع [٦] فاغروا الامير بفض مجلس النواب فاصدر الامر بذلك في الثالث والعشرين من شهر حزيران سنة تسع وثمانين ، فتلقاه النبلاء ورؤساء الكهنوت بالطاعة والقبول . اما وكلاء الامة فقالوا : لا نطيع الامراء بما نعصي به الحق والعدل وانما

نطيعهم ما اصبح العدل فيهم ولا طاعة للمرء والمرء ظالم

فاتاهم وزير الملك يذكرهم امره ويدعوهم لطاعته ويحذرهم عاقبة الفتنة ، فاجابه خطيبهم ميرابو : عد الى مولاك وقل انا مجتمعون في هذا المقام بامر الامة ، فلا نتفرق الا بقوة النصال !

فعاد الوزير بالخيبة والفشل يغالب عامل الغيظ ، ويقاوم فاعل الوجل . فعظم هذا الامر على رجال القصر وصنائع النبلاء ، وانصار الامتياز ، فحملوا الامير على مقاومة النواب ، واخذهم بالعنف ، فعزل من كان مستوزراً من وسط الناس أي من غير الشرفاء ، وبث الجند في ارجاء العاصمة فاهتز لذلك اهلها اضطراباً ، وخرجوا على الدولة ثائرين يرومون وقاية النواب ، ويلتمسون الحرية والمساواة ، واندفعوا كالسيل على قلعة المدينة فاقتلعوها من ايدي الجند منشدين :

الا هيا بني الاوطان هيا فوقت فخاركم لكم تهيا
اقيموا الراية العليا سويا وشنوا غارة الهيجا مليا

---

٥) ، ٦) في هذين السطرين كلمات من خطبة لابي حمزة الخارجي القاها في المدينة . نقل اديب اسحق هذه الكلمات ولم ينبه اليها .

عليكم بالصوارم يا اهـالي ونظم صفوفكم مثل اللآلي
فاما مات كهـل في النزال فان الارض تنبتـه صبيـا

منيتم بالمقيم مـن العنـاء فكان وجودكم عين الفنـاء
فموتوا ان طمعتم في البقـاء فمن اودى شهيد اعاد حيا [٧]

فانخلع بذلك قلب الامير جزعاً ، ورام الفرار التماس النجاة فقبض عليـه في فارين واعيد الى العاصمة اسيراً . ثم كان من امر محاكمته واهدار دمه ما يخرج بيانه عن حد مطلبنا ، فاننا لم نجعله تاريخاً لثورة الفرنسيس وانما اتينا بذكرها مثلا وعبرة لقوم يذكرون . وليعلم الصابرون علـى العنف ، الطامعون في النجـاة من الخسف ، كيف ادرك الناس من قبلهم هذه الغاية ، فانتقلوا من الضعف الى القوة ، ومن الذل الى العز ، ومن الرق الى الحرية ، فـارتفعت رؤوسهم وانبسطت نفوسهم وصارت اوطانهم بغية المرتجي وعقوة الملتجي لا يخاف نزيلها ضيماً ، ولا يخشى دركاً اذ الشرقيون عمومـاً ، والمصريون خصوصاً بين انياب الطامعين ومخالب الظالمين .

واني لا اطمع الآن للمصريين في مثل هذه الحال وان خاضوا لها غمار الاخطـار واقتحموا اليها الاهوال فان الطفرة محال . ولا احثهم على الفتنة وان كانوا كما تصور المتنبي حيث قال :

كفى بك داء ان ترى الموت شافياً وحسب المنـايا ان يكنَّ امانيـا

وانما ابين لهم ان النعمة لا تُملك من غير تعب ، وان الغاية لا تدرك من غـير طلب ، وان النجاة وقف على سبيل الهمة ، وان النجاح بارادة الامـة لتظهر عليهم علائم القصد فتكون طليعة لجيوش العزم ، فيعلم المستخفون بهم انهم لا يزالون احياء ،

---

٧) ظاهر ان هذه الابيات تعريب لبعض مقاطع من المارسيلياز ، النشيد الوطني الفرنسي . وواضح من سياق الكلام ان اديب اسحق يضع هذا النشيد في افواه الهاجـين على الباستيل ، وهو غير صحيح . فالمارسيلياز انشدها اول مرة في باريس ، المارسيليون القادمون لنجدة محاصري قصر التويلري ، وذلك بعد هرب الملك والقبض عليه في فارين .

وان كانوا من ظلهم في ظلمات القبور ، فيتبضون عنهم ايـدي الظلم ، ولا يطمعون في بيع اولادهم من الاجنبي عبيداً يحفرون المعدن ويفلحون الارض ويطوون الشراع ، ولا يطعمون كراعاً ولا يطمعون في باع .

اقول قولي هذا واسأل الله ان يرفع من شأن اوطاننا ما وضع السفهاء ، وان يحفظ من حقوق اهلها ما ضيع الخائنون . — (عن كتاب « الدرر » وهي خاتمة رسائله الاربع التي وجهها من باريس الى الشرق بعنوان « نفثة مصدور ») .



حُسَين بَاشَا

مسألة الرقيق والعتاقة [1] : الى مسيو اموس بيري قنصل جنرال العصبة الاميريكانية بحاضرة تونس .

اما بعد فانه شرفني مكتوبكم الذي مضمونه انكم حيث كنتم بارض كانت الحرية والعبودية بها متجاورتين ونابتتين منذ مدة مديدة وصارتا الآن مشتبكتين في حرب شديدة الغاية قهر احداهما الاخرى ووجدتم في تاريخ تونس حوادث مهمة متعلقة بهذين المبدأين المتضادين ، اردتم ان تعرفوا تأثير العبودية في بلادنا وهل اعقبت تأسفاً من الاهلين على فقدها او انشراحاً بذلك فطلبتم منا شرح ذلك وبيان ما اثبتت التجربة اصلحيته هل هو الخدمة الجبرية ، اي خدمة العبيد بدون اجر ، ام الخدمة الاختيارية باجر معلوم وايهما اوفق بنظام الجماعة عند الدولة التونسية ؟ اما الجواب عما وجدتم في تاريخ بلادنا من تحرير العبيد ومنعنا لملك الآدمي في المستقبل بعد ان كان مباحاً فسبب

---

١) كتب المستر اموس بيري قنصل الولايات المتحـدة الى حسين باشا ناظر المعـارف التونسية يسأله عن اثر الغاء الرقيق في تونس ، وذلك ابان الحرب الاهلية الاميركية بين ولايات الشمال والجنوب لاعتاق العبيد ، في جمادى الاولى سنة ١٢٨١هـ ، فاجابه بالرسالة المنشورة اعلاه .

ذلك هو : ان دولتنا كسائر الدول الاسلامية كما تسمونها دولة تيوكراتيك في المعنى، اي : احكامها جامعة بين الديانة والسياسة . والشريعة الاسلامية وان اقرت الملكية (وقلنا اقرت لان ملك الآدمي متقدم على الشرائع الثلاث فقد كان حكم السارق في شرع يعقوب اسرائيل الله ان يسترق سنة بدل القطع في الشريعة المحمدية) انما اباحتها بعد حصول سبب الملك بشروط وواجبات يعسر القيام بها ، فان منها عدم الاضرار بالمملوك حتى جعل الشارع الاضرار موجباً للعتق كما قال : اي مملوك مثل به فهو حر . ومع ذلك فلم تزل الشريعة تؤكد الوصاية بالعبيد حتى كان آخر كلام نبينا صلى الله عليه وسلم : الصلاة وما ملكت ايمانكم . وكان يقول : اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت ايديكم فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا يكلفه فوق طاقته . وكان عمر بن الخطاب الخليفة الثاني يذهب كل يوم الى الموالي فكل عبد وجده في عمل لا يطيقه وضع عنه منه ، وكذلك كان يخرج كل يوم سبت يتفقد الدواب فاذا وجد دابة في عمل شاق خفف عنها . ثم ان من القواعد الشرعية تشوف الشارع الى الحرية حتى ان من اعتق جزء عبد لزمه عتق باقيه . وكان من مصارف الزكاة المحصورة في الاصناف الثمانية بنص القرآن فك الرقاب قالوا بان يشترى من مال الزكاة عبيد فيعتقون كما ان من لزمته كفارة يمين او قتل او فطر او اظهار فله التكفير بعتق رقبة . فلولا ان تحرير العبيد من المصالح المهمة لما ضيقت الشريعة به على الفقراء والمساكين . ومن آثار التشوف المذكورة كثرة ترغيب الشارع في العتق كقوله : ايما امرىء مسلم اعتق امرأ مسلماً استنقذ الله بكل عضو منه عضواً منه من النار . وتلك الشروط والواجبات حيث كان القيام بها عسيراً في زمن عنفوان شباب الدين فما ظنك به في زمن هرمه لاسيما مع صنف السودان المباينين للبيض في الطبيعة الغريزية ، فكثيراً ما يقع بين العبيد ومواليهم المشاجرة التي لا منشأ لها الا التنافر الطبيعي وذلك مما يفضي الى مزيد الاضرار بالعبيد وتجاوز الحدود الشرعية في حقهم . ولم يزل ذلك الامر يتزايد حتى اقتضى نظر الدولة تحجير الاسترقاق من اصله لانه لما تعذر الرفق بهم والاحسان اليهم على الوجه المطلوب شرعاً لم يبق الا الامر ببيعها او بعتقها ، والاول لا يحصل به الغرض المقصود لما فيه من التسلسل وعود الضرر مع المشترى فتعين الوجه

الثاني ومن ذلك الوقت بطلت ملكية العبيد عندنا دفعة وذلك في شهر المحرم سنة ١٢٦٣ في مدة المرحوم المشير احمد باشا باي . واول ما خاطب به المجلس الشرعي في هذا الشأن قوله : اما بعد فقد ثبت عندنا ثبوتاً لا ريب فيه ان غالب اهل ايالتنا في هذا العصر لا يحسن ملكية هؤلاء المماليك السودان ، ولذلك اقتضى نظرنا والحالة هذه رفقاً باولئك المساكين ان نمنع الناس من هذا المباح وعندنا في ذلك مصالح سياسية الخ . والمصالح المشار لها هنا يمكن شرحها بامور كثيرة منها ما يقوله اهل الاقتصاد السياسي في ايامنا ان البلدان التي فيها عموم الحرية وعدم الملكية اعمر من غيرها بالاستقراء وقد رأيت خطبة لبعض الافاضل من اهل القلم بمملكتنا كتبها في ذلك الوقت يحث بها اهل المملكة على اجابة رئيس الدولة بالقلب والقالب يقول فيها : « فيا للنفوس الزكية والقلوب التي بالشفقة حرية شرعكم منشوف للحرية ورق الآدمي بلية والرب يقدر على عكس القضية . »

واما الجواب عن تأثير العبودية وما اعقب فقدها في الاهلين فهو ان ملك الآدمي لما لم يكن من الامور الضرورية ولا الحاجية في المعيشة لم يصعب العدول عنه ولم تجزع لفقده نفوس اهل مملكتنا . وكيف يتأسف المعتني بشؤون الترف والكمال في الاحوال والعوائد على تحرير عبده وهو قادر على استرقاق الاحرار بالدرهم والدينار مع اعتقادهم الديني انهم ينالون بعتق عبيدهم ثواباً من الله في الدار الآخرة ؟ على ان ذلك وان صعب في اول الامر على بعض من الناس لرؤيتهم استخدام العبيد بدون اجر ايسر لهم واربح من استخدام غيرهم باجر او لشح نفوسهم بالعتق ايثاراً للعاجل على الآجل . الا ان هؤلاء تسلوا من قريب لما اثبتت لهم التجربة اصلحية الخدمة الاختيارية دون الجبرية كما اثبتها العقل ايضاً ، ورأى من عجز عن استخدام الحر بالاجر ممن كانوا يستخدمون العبيد رجوعه الى الامر الطبيعي والسيرة المستحسنة وهو ان يباشر الانسان قضاء اوطاره اللازمة بنفسه ويقلل احتياجه الى ابناء جنسه ، فان النفس اذا تعودت باستخدام الغير قد يفضي بها ذلك الى العجز عن ادنى الضروريات . والانسان ابن عوائده ومألوفاته لا ابن طبيعته ومزاجه وبذلك التعود تكثر شروط

استمرار حياته وما كثرت شروطه عز وجوده · وبالجملة فالناس في باب الخدمة على اربعة اصناف : انسان يخدم نفسه بنفسه ولا شك ان هذا يعمل ما يستطيعه في يومه ويجهد نفسه ، والثاني يؤاجر نفسه لغيره طوعاً وهذا دون الاول في نتيجة العمل حيث لا يجهد نفسه ، والثالث يعمل لغيره بلا اجر وهو مجبور فذلك هو العبد المملوك ولا غرو ان تكون نتيجة عمله دون الثاني بمراحل ، والرابع الذي لا يعمل لنفسه ولا لغيره وهو العبد البطال الذي يبغضه الله تعالى ، ومن هذا الصنف الاخير الناس الذين يترفعون عن خدمة انفسهم وقضاء اوطارهم استنكافاً عن مزاحمة العبيد في اشغالهم ، وقد ينفع في هذا القسم العلاج اذا رأوا من كان ارفع منهم يتعاطى تلك الاشغال التي انكروا مباشرتها ، وايضاً ربما نفع هذا التعاضد الكمالي اذا رأوا مع ذلك التفاتاً وترغيباً وترهيباً من رعاتهم اذ لا يجدون محيصاً عن المسير اقتداء بمن سار · والانسان اقرب الى خلال الخير منه الى خلال الشر باصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة لان الشر انما جاءه من قبل القوة الحيوانية المركبة فيه واما من حيث هو انسان فهو الى الخير وخلاله اقرب ، فاذا وجد طبيباً ماهراً وداوى ما طرأ عليه من المرض فانه يرجعه الى احسن تقويم وتجتمع الايدي ويكثر التعاون وتتوفر بذلك اسباب العمران · ومن هذا يتبين لكم السر في كون البلدان التي فيها عموم الحرية وعدم الملكية اعمر من غيرها كما أشرنا الى ذلك آنفا ، ولا سبب لذلك الا كون نتيجة فعل الانسان المختار اربح وابرك من نتيجة فعل العبد المجبور · وعندي ان عموم الحرية وانتفاء الملكية كما يؤثر في نمو العمران يؤثر ايضاً في تهذيب خلق الانسان · اما تأثيره في نمو العمران فظاهر اذ لا عمران الا بعدل والحرية نتيجة العدل فاذا انعدمت جاء الظلم المؤذن بخراب العمران ونقصه بنقصها · واما تأثيره في تهذيب الانسان فان تعميم الحرية يبعده عن الاخلاق الردية من الشراسة والتكبر والتجبر ونحوها التي لا تنفك في الغالب عمن يملك العبيد لما تعوّدوا به من الامرة والترفع وربما رأيتهم ينظرون الناس بالعين التي ينظرون بها عبيدهم لا سيما اذا رأوا انساناً اسود فلا يرونه الا كسائر الحيوانات العجم · وكنت حضرت مرة في ايام الكرنفال سنة ١٨٥٦ بالاوبره الكبيرة بباريس ومعي غلام اسود فما راعني الا ان رأيت رجلا اميريكانيا

وثب عليه وثوب القطة على الفأرة واراد ان يأخذ بثيابه قائلاً ولسانه يتلجلج من سطوة النشوتين : ما يفعل هذا العبد السوداني بصالون ؟ اي بيت نحن فيه ومتى مكن العبيد من مجالسة السادات ؟ فاخذت الفتى السوداني البهتة اذ لم يكن يدري ما يقول ولا علم لماذا يجول ذلك الرجل ويصول ، فدنوت منهما وقلت للرجل : يا حبيبي هوّن على نفسك فاننا نحن بباريس ولسنا بريشموند . وبينا هما كذلك اذ وافاهما احد حفظة المحل وعرّفه بان لا فرق في حكمهم بين الجلود الا بالجودة واتقان الدبغ . فالحاصل ان ذلك الاسود المسكين لم تخلصه من اظفار ذلك الرجل محرمته البيضاء ولا فوانتواته الصفراء (اشار بالمحرمة والفوانتوات الى ما اعتادته الافرنج من التزين بذلك عند الذهاب الى المحافل) وانما خلصه بياض الحق وعدل الحرية . وبالجملة فالاوفق بنظام الجماعة عند الدولة التونسية هو عدم المملكية ، ولا التفات لما عسى ان يستند اليه المخالف من ان بعض العبيد ندموا على خروجهم من بيوت سادتهم وطلبوا الرجوع اليها على شروط العبودية اذ

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

على ان ذلك انما كان في اول الامر حين خرجوا جافلين كما تخرج الدواب اذا انفلتت من مرابطها قبل الاستعداد الى لوازم المعيشة والحرية . اما الآن بعد الاستعداد فهل ترى لهم ادنى ميل الى العبودية ؟ ندع هذا الاعتراض الساقط ونرجع الى ما هو اهم منه فنقول : انتم ايتها الامة الامريكانية اخوان الامة التي قال فيها عمرو بن العاص صاحب نبينا صلى الله عليه وسلم انهم لأحلم الناس عند فتنة وأسرعهم افاقة بعد مصيبة واوشكهم كرة بعد فرة وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف وخامسة حسنة جميلة وامنعهم من ظلم الملوك . ولعمري لأنتم كما قال امنع الناس من ظلم الملوك حيث انعم الله عليكم بتمام الحرية في انفسكم وجعل سائر امورکم السياسية والمدنية بايديكم والبعض من غيركم يقنع بالحقوق المدنية لحماية النفس والعرض والمال فلا يجدها فما ضركم لو تفضلتم على عبيدكم بما لا يؤثر وهناً في شوكتكم شكراً لربكم على ما خولكم من تلك النعم الجليلة ، ثم انتم من التمدن والحضارة بمراحل عن ان تقتدوا بمن يدورون وعيونهم مكنبلة على دائرة انّا وجدنا آباءنا على امة . واعلموا ان الشفقة والحنانة البشرية

تدعوكم لان تنبذوا من حربكم الزيادات التي تسوؤها وتكدرها وتلقوا بؤسا البشر على شفاه اولئك العبيد المساكين . والله يحب من عباده الرحماء. فارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء . هذا وارجوكم ايها القنصل الجنرال ان تعتقدوا غاية تكدرنا من حروبكم هذه الواقعة بينكم توجعاً على النوع الانساني وغاية شفقتنا على اولئك العبيد المساكين كما ارجوكم ان تعتقدوا خلوص مودتي لكم .

كتبه بيده الفانية الفقير الى ربه تعالى حسين رئيس المجلس البلدي ، تحريراً في اواخر جمادى الاولى سنة ١٢٨١ هجرية ، الموافق لاواخر اكتوبر سنة ١٨٦٣ مسيحية ... — (عن كنز الرغائب في منتخبات الجوائب ، الجزء السادس) .

■

روحي الخالدي

١٨٦٤ — ؟[١]

فيكتور هوغو : نبغ فيكتور هوغو في عصر الانقلاب والتجدد وطال عمره وكثر عمله . وكان لقومه الحظ الاوفر من التقلبات السياسية والتبدلات الاجتماعية واستوقفوا نحوهم انظار العالم المتمدن باسره . فكان هذا الشاعر لسان حال الامة وترجمانها في كل انقلاب حدث فيها وتبدل طرأ عليها وغيّر حكومتها من ملكية مطلقة الى جمهورية مفرطة ، الى امبراطورية ديمقراطية ، الى ملكية مقيدة بقليل او بكثير من القيود ، الى جمهورية ثانية ، الى امبراطورية ثانية ، ثم الى جمهورية ثالثة . فهذه التقلبات هيجت الافكار العمومية وكثرت الاحزاب السياسية ودعت الى استماع قول الشاعر الحكيم والتمثل باشعاره في نوادي السمر الادبية والسياسية على اختلاف الآراء وتبدل المشارب . ومتى تحدث اهل العاصمة بامر سارت الركبان بحديثهم الى الولايات

١) لما طبع كتابه الطبعة الثانية سنة ١٩١٢ كان لا يزال حياً .

واطراف المملكة ثم فشا في الممالك المجاورة وجسده البعد في المخيلات فاصبح صداه في الخارج اشد من صوته في الداخل • وبعد ان استبد نابوليون الثالث بالحكم مال لابهة الملك وعظمة السلطنة وتفاخر بالصيت والشهرة واشتد حرصه على السمعة في البلاد الاجنبية • وانتشرت اللغة الفرنساوية على عهده في اكثر الممالك المتمدنة وصارت اللسان الرسمي المتداول بين الدول في المناسبات الدبلوماتية وفي الاجتماعات السياسية والادبية وفي قصور الملوك والامراء وفي حفلاتهم وسهراتهم ومراقصهم وعلى موائد ضيافاتهم وفي تحرير المراسلات والمعاهدات كما اصبحت اللسان الرسمي في نظارة الخارجية العثمانية وفي كثير من دوائر الدولة العلية ومعاملاتها ولم تزل الى يومنا هذا •

فلما اقترن اسم فيكتور هوغو باسم نابوليون بسبب مدحه نابوليون الاول وهجوه نابوليون الثالث زاد شوق الناس للاطلاع على اشعاره وقصصه في داخل فرنسا وخارجها وراجت بضاعته في الادب فلم يدع باباً من ابواب الشعر الا طرقه ولا مسألة الا بحث فيها • ثم ساعدته الظروف بالانتصار على نابوليون الثالث بعد حرب السبعين الالمانية وتشكل الجمهورية الثالثة فزاد ذلك في اهمية الشاعر وفي انتشار شعره وبالغ رجال الجمهورية في الاحتفاء به والاحتفال له كاحتفال الامبراطورية بشخص الامبراطور •

اما السبب الثاني لشهرته فهو سهولة اشعاره ووضوحها وتصويرها المسائل العظيمة والافكار الدقيقة • فاظهر بشعره فرحه وسروره بنعمة الحياة وابتهاجه بالمخلوقات • ورأى في امنا الدنيا بقرة حلوباً تدر على ابنائها بلبن سائغ للشاربين وتكلم على افراح العائلة وزينة البيوت بالاولاد ولذة اجتماع الاهل على المائدة ومحبة الوالدين وحنوهما • وحضّ على الاحسان للفقراء والمساكين والشفقة عليهم وبيّن اعتقاده بالله الغفور الرحيم ورجاءه بتقدم نوع الانسان في الحضارة وبتحسن الحياة البشرية والمعيشة الانسانية بسبب انتشار الافكار الجديدة وتغلب الحق رويداً رويداً على القوة والنور على الظلمة حتى تتساوى الناس في الحقوق ويرتفع عنهم الضغط والاستبداد ويزول من بينهم الظلم والاستعباد وينشر العدل ويزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً ••• فجميع ذلك مما يرغّب الجمهور في تلاوة اشعاره وتعليمها للاولاد ونشرها في البيوت بين النساء والبنات • بخلاف اشعار المعري التي لا يذكر فيها الا بخل ام دفر على بنيها بالحقوق

ومبادرتهم لها بالعقوق • ولا يرى بقرة فيكتور هوغو تجود الا بسم قطيب اي ممزوج بحلاوة • ومع غنى المعري وثروته لم يلتذ بالمال والبنين ولا بشيء من زينة الحياة الدنيا وزهد في اكل اللحوم وشرب المكيفات وعمي بصره عن مشاهدة المناظر الطبيعية والرياض النضرة • وحيث كان لفيكتور هوغو اعتقاد ثابت في الله ورجاء كبير في حسن المستقبل وارتقاء الانسان الى دار السعادة عرف وظيفة الشاعر وبيّن ما يترتب عليه وعلى كل عاقل مفكر في الامر من نشر الحقائق بين قومه وابناء لسانه وزعم ان الشاعر ينبغي ان يكون رسولا للامة ونوراً يسعى بين يديها ليهديها الصراط المستقيم •

وفيكتور هوغو موحد اعترف في كثير من اشعاره باعتقاده بالله وحسن رجائه باليوم الآخر واهتدى للتوحيد بنظره في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار كما اهتدى ابرهيم جد الانبياء عليه وعليهم السلام : « واذ قال ابرهيم لأبيه آزرَ أتتخذ أصناماً آلهة اني أراك وقومك في ضلال مبين • وكذلك نري ابرهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين • فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفلَ قال لا احبّ الآفلين • فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لاكوننّ من القوم الضالين • فلما رأى الشمس بازغة قال هــذا ربي هذا اكبر فلما افلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون • اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما انا من المشركين • »

وهكذا قال فيكتور هوغو لقومه اني بريء مما تعبدون • فلم يكن مشركاً بالله ولا كان منكراً جاحداً انكار الشاعر فولتير وجحوده [1] بل ربما كان حنيفاً • والحنيف هو الذي يؤمن بالله ولا يتخذ شكلا مخصوصاً للعبادة وكان منهم اناس في جزيرة العرب قبل الاسلام مثل ورقة بن نوفل وغيره • فاذا أمعنا النظر في كلام فيكتور هوغو نراه من الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض • ونراه ايضاً كثير البغض في الجبابرة المستبدين ويدعو النــاس الى

---

١) رأينا انه لا يصح نعت فولتير بالجاحد . ومن الغريب ان يجمع على هذا الاعتقاد كثيرون من الكتاب العرب في مطلع النهضة ، حتى لقد ألف الدكتور ميخائيل مشاقه كتاباً في الرد على الفولتيريين الجاحدين .

عدم اتخاذ ارباب من دون الله .

قال الحكيم الفيلسوف ارنيست رينــان عن فيكتور هوغو وعن فولتير بانهما سارا من قطبين متخالفين ولم يتلاقيا الا على محبة العدل والانسانية .

والباعث الثالث على شهرة فيكتور هوغو هو كثرة عمله وغزارة معارفه ، عدا معرفته بدقائق اللغة الفرنساوية ، وبعلم القوافي والعروض والموسيقى ، وما يلزم للشعر ، وكان حكيما فيلسوفاً يضع كل شيء في موضعه وكل معنى في قالبه ولم يغب عن علمه شيء من التاريـخ والجغرافيا واسماء البلدان وله اطلاع على العلوم الرياضية وجميـع المسائل الاجتماعية وكليات القوانين البشرية والسياسية ، وله اقتدار عجيب في التخيلات والتصورات والاختلاقات . واذا نظر في شيء تمكن من رؤيته بعين لم يتيسر لغيره من الشعراء الرؤية بها . فوقف على كنه الاشياء وحقيقتها وعلى جميـع ما يعرض لها من الصور والاشكال والالوان وبقية الخواص الظاهرة والباطنة . واذا ذكر اسبانيا مثلًا لم يترك فيها مدينة الا وصفها بالوصف اللائق بها سواء كان وصفاً جغرافيــاً او طبيعياً او تاريخياً بالنظر لمن اشتهر فيها او لمـا ينبت في ارضها او لمرآهــا الطبيعي ومنظرها الخارجي ، وذكر كذلك كثيراً من مدن فرنسا وايطاليا .

... وكان له ولع بالامور العظيمة والمقامات العالية والمناظر الواسعة والمعاني الدقيقة فعرف لج البحر الذي لا يرى ساحله وبُعد الفضاء الذي لا تدرك نهايته وقلد اصوات الاشياء ووصف الجمادات وصفاً يخال منه للقارىء انها حيـة تنطق . ولذا قالوا ان فيكتور هوغو انطق الجماد ونفخ فيه باساليبه الشعرية روح الحياة . وله ابتكارات بديعة وتشابيه ظريفة وتعبيرات لطيفة . ونجد لما ورد في كلامه من التشبيه والتخيل والبديع امثالا كثيرة في الشعر العربي والاندلسي تكلم عليها الباقلاني في اعجاز القرآن والجرجاني في اسرار البلاغة المطبوع في جريدة المنار ومن سلك مسلكهما من علمـاء اللغة والبلاغة . ولكن فيكتور هوغو يفوق بسعة الاطلاع والاحاطة بالمسائل . واكثر شعراء العرب انحصرت اقوالهم في الدائرة الذين (?) هم فيها فلم يخرجوا منها ولا تعدوا الاساليب التي وضعها شعراء الجـاهلية . والذين خرجوا عن تلك الاساليب واتسعت مداركهم قليلون مثل المتنبي والمعري الذي تكلم على كثير من المسائل الاجتماعيـة

والسياسية ونادى بالحرية والمساواة بين افراد البشر وبيّن ماهيـة الحق والعدل وشرح كثيراً من المسائل الفلسفيـة واظهر شعوره واحساسه بالوسط الذي القينـا فيه فكان سجناً لنا لا خلاص منه الا بالموت · فهو متحير في هـذه العقدة التي اضلت الادباء في حلها ·

ثم ان اهل النقد الادبي من ابناء الافرنج يقولون : نعم ان فيكتور هوغو انطق الجماد وتوصل بأساليبه الشعرية الى وصف المناظر الطبيعية وتصوير العصور الخالية والهيئة الاجتماعية باحسن تصوير وابدع وصف · فهذا لا ينكر ولكنه لم يتوصل الى معرفة باطن القلب الانساني ولا لايجاد اوصاف تامة ولا حياة طبيعية للاشخاص الذين اختلقهم على مرسح التمثيل · ولذا لم يكن اوحد الادبـاء في تأليف روايات الدرام · فهو وان انطق الجماد لكنه اخرس البليغ ·

نعم ان شارلكين في رواية ارناني Hernanie هو بيت القصيـد وهو من ملوك الكلام ولا ننكر فصاحته وبلاغته وانما عينه عندنا هو عدم وجود الروح فيه · فهذه النفس الناطقة التي ارانا اياهـا الشاعر على مرسح اللعب والتشخيص هي نفس المؤلف اي نفس فيكتور هوغو وليست نفس المشبه به وهو شارلكين ، فالحماسة التي اظهرها المؤلف في شعره ليست بطبيعية ولا هي حقيقية بل هي عندية اي من عنـد الشاعر ولم تبن على الحجج والبراهين الادبية التي اشترطها اصحاب الطريقة الحقيقية وسماهـا اميل زولا « دوكيان » · فاصحاب هذه الطريقة الجديـدة يلومون فيكتور هوغو على تعظيمه الامور ويشبهون قريحته بمرآة مكبرة تكبر الشيء المعكوس فيها وتجسمه تجسيما خارجاً عن الحقيقة وعن العرف والعادة · ومن عـادة فيكتور هوغو ارخاؤه العنان للقوة الواهمة والخيالية ولذا نجد في مؤلفاته مثل كازيودو ومثل الرجل الضاحك من الاشخاص الموهومة التي لا توجد الا في كتاب الف ليلة وليلة ومـا كان على نسقه ··

ومما انتُقد فيه على فيكتور هوغو من جهة الاخلاق تبدل رأيه السياسي وتقلبـه فيه ذات اليمين الى ذات الشمال ومن حزب الملكية الى حزب الجمهورية · ورأينـا جوابه على هذا الاعتراض بقوله : ان مدحنا الرجل بالثبات على رأي واحد في السياسة

مدة طويلة ليس بمدح مستحسن وانما هو كمدحنا الماء الراكد وتفضيلنا اياه على الماء الجاري . والجواب الصحيح على هذا الاعتراض ان فيكتور هوغو مع ظهور معجزاته في المعاني ما هو الا بشر غير معصوم تميل نفسه الى شهواتها التي منها التقرب من الملوك واولي الامر ، ولكننا نجده محافظاً على الاعتدال في أمر الشهوات النفسية صبوراً متجلداً عند الحاجة . وبينما نرى امثاله واقرانه من أدباء باريس لا يقنع احدهم بعشر نسوة نجده اقتصر هو على اثنتين أم اولاده ، والممثلة البارعة جوليت . ومن غريب أمر هذا الشاعر انه خالف القاعدة المطردة في عظماء الرجال . فكان في شبابه من حزب الملكيين المحافظين على بقاء الحال على ما كانت عليه فانقلب من ذلك رويداً رويداً حتى صار في شيخوخته من حزب المفرطين في محبة الحرية المائلين للانقلاب والارتقاء شديد العداوة للاستبداد والمستبدين . وهذا خلاف المطرد في اخلاق الرجال فانهم كلما تقدموا في السن عدلوا عن حب التجدد و لانقلاب والحرية ومالوا للبقاء على حالتهم الراهنة . – (عن كتاب تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب) .



المطران يوسف الدبس

١٨٣٣ – ١٩٠٧

من حوادث سوريا ايام السلطان عبد الحميد الاول : ان السلطان مصطفى الثالث توفي سنة ١٧٧٤ وخلفه اخوه السلطان عبد الحميد الاول . ومما كان في ايامه بسوريا انه لما كان الجزار قد نصب والياً على صيدا سنة ١٧٧٦ ، خاف الامير يوسف حاكم لبنان لما كان بينهما من العداوة ، واسرّ بالامر لحسنْ باشا المكلف باصلاح شؤون سوريا فاجابه : كن آمنا فاذا رجعت الى الاستانة عزلته . وطلب منه ان يدفع له مائة الف قرش كانت باقية عليه من المال الاميري . فوضع الامير يوسف

يده على ربع عقارات تخص الحكومة كانت بيد اقربائه ، فثار الامراء عليه ونهضوا الى البقاع . فحشد الامير رجالا سار بهم ففروا من وجهه . واسترضاه الامير اسماعيل حاكم حاصبيا عنهم وبقي اخواه الاميران ، سيد احمد ، وافندي [1] يحزّبان عليه . فاضطر الامير ان يرد عليهما اقطاعهما .

وسافر حسن باشا الى الاستانة ، ونهض الجزار بعسكر من صيدا الى بيروت فاستحوذ عليها وضبط املاك الشهابيين بها ، وشدد على الامير يوسف بطلب الاموال عن ثلاث سنين ماضية . فكتب الامير الى حسن باشا وكان قد بلغ الى قبرص ، فعاد واخرج الجزار من بيروت وطيب قلب الامير . وبينما كان فرسان الجزار راجعين الى صيدا اكمن لهم المشايخ النكدية في السعديات بقرب الدامور ، فاندفع الفرسان عليهم وقتلوا منهم كثيرين واسروا شيخين منهم . وكتب الامير يوسف الى الجزار معتذراً بان ذلك لم يكن بعلمه والتمس اطلاق الشيخين وجعل له فدية عن ذلك مائة الف قرش . فاجابه الجزار الى ذلك . ووزع الامير المبلغ على البلاد فابى الامراء اللمعيون دفع ما نابهم منه ، فالتمس الامير من الجزار ارغامهم على الدفع فارسل عسكراً على المتن فاحرق المكلس والدكواني والجديدة وقتل جماعة . ثم دهم الشويفات فصده رجالها ، فقفل الى بيروت ، ثم سار الى صيدا وخرج منها بعسكر الى البقاع وضبط كل ما بها للبنانيين من الغلات . فاتفق حينئذ الامير يوسف مع الامراء اللمعيين وجمع منهم عسكراً زحف بهم الى المغيثة وكان بين الفريقين وقعات كان النصر فيها لعساكر الجزار ...

وفي سنة ١٧٨٢ احدث الامير يوسف [2] ضريبة على التوت سموها البزرية . فاثار اخواه [3] الجنبلاطية عليه وجمعوا حشداً وساروا به الى قرب دير القمر قاصدين طرده وقتل مدبره سعد الخوري . فوعد الامير بابطال الضريبة ، فانفض الحشد ، واستمر

---

١) افندي هنا اسم علم .

٢) هو سلف الامير بشير في امارة لبنان . وكانت بينه وبين الامير بشير مناوشة وتناوب على كرسي الامارة ، مثل فيها الجزار والي عكا دورا عظيماً .

٣) هما سيد احمد وافندي .

الاميران والجنبلاطية على عزمهم • وفي سنة ١٧٨٣ اجتمعوا في دار الامير افندي ليلاً ليمضوا الى كنيسة التلة ليقسموا على اتفاقهم على طرد الامير وقتل مدبره • وعرف الامير ذلك فاكمن لهم المغاربـة في طريقهم فقبضوا على الامير افندي وفر الامير سيد احمد • ولمـا رأى الامير يوسف اخاه (افندي) حملته سورة غضب فقتل اخاه بيده •

واما الامير سيد احمد فاتفق مع الشيخ حسن جنبلاط والشيخ عبـد السلام العماد على خلع الامير يوسف ، فخاف الامير يوسف واسرع الى الجزار ووعده بثلاثماية الف قرش ، فولاه وارسل معه عسكراً قام به الى اقليم الخروب ، وحشد الامير سيـد احمد عسكراً وارسله مع ابن اخيه الامير قعدان ، والتقى الجيشان بعانوت فانكسر عسكر الامير قعدان وهو نجا منهزماً • وارتاع الامير سيد احمد ففر ومعـه الشيخ قاسم جنبلاط الى صليما عند الامير اسماعيل اللمعي • فضبط الامير يوسف املاكهم وهدم مساكنهم • والتجأ الامير سيد احمد الى محمد باشا العظم والي دمشق فولاه على وادي التيم والبقاع واصحبه بعسكر ، واتى معه الجنبلاطية الى قب الياس • والتقاهم الامير فكانت الحرب بينهم ثلاثة ايام • فانهزم الامير سيد احمد والجنبـلاطية الى الزبداني وعاد الامير يوسف الى دير القمر واخذ يصادر محازبي اخيه ، ثم تدخل الامير اسماعيل خال الامير يوسف بالصلح بينهم وبين ابن اخيه ، فرضي الامير يوسف عنهم بشرط ان يدفعوا ماية وخمسين الف قرش فدفعوها • وعادوا الى وطنهم واخر الامير يوسف الامير سيد احمد ان يسكن بالشويفات فاطاعه •

الثورة على الامير بشير والجزار سنة ١٧٩٠ — ١٧٩١ : توفي السلطـان عبد الحميد الاول سنة ١٧٨٩ وخلفه السلطان سليم الثالث •

ومما كان في ايامه بسوريا ان الامير يوسف كتب الى الجزار يستأذنه بالحضور الى عكا ، فاذنه ، فدخل عليه وفي عنقه منديل الخضوع فأمّنه واكرمه واقام عنده خمسة اشهر • وفي سنة ١٧٩٠ خلع عليه خلع الولاية على لبنان بعد ان تعهد له بدفع ستماية الف قرش ، ورهن عنده على ذلك ابنـه الامير حسيناً ومدبره الشيخ غنـدور

الخوري [٤] واتخذ فارس الشدياق مدبراً عوضاً عن غندور . فقام الامير بشير [٥] الى نيحا ثم الى عكا وتعهد للجزار بدفع زيادة على ما دفع الامير يوسف ، فانعم عليه بخلعة الولاية على لبنان وامر أن يلقى الامير يوسف بالسجن ومعه عشرة من خدمه من بيت الدحداح وسمعان البيطار وفارس الشدياق . وامر الامير بشير ان يسرع الى دير القمر ويأخذ معه الامير حسيناً ابن الامير يوسف . ولما وصل الى دير القمر قبض على كل من وجده من محازبي الامير يوسف واودعهم السجن ووجه جباة يجمعون المال فاجتمع الامراء اللمعيون ووجوه المتن في مأتم الامير محمد اللمعي وائتمروا على الامير بشير واختاروا مكانه الاميرين حيدر ملحم وابن اخيه قعدان وبثوا الى وجوه البلاد ما عزموا عليه ، وطردوا جباة المال . فجمع الامير بشير رجاله وسار الى عين داره واجتمع المتنية في حمانا وسار الامير حيدر ملحم الى عبيه واتفق مع ابن اخيه الامير قعدان وضوى اليهما بعض المشايخ النكدية والعمادية ، وخاف الامير بشير ان يسبقاه الى دير القمر فاسرع اليها وارسل الجزار الفاً من الارناؤوط الى حرش بيروت . فخاف الامير حيدر ملحم وقام الى العبادية واتفق مع المتنية وارسل الامير بشير رجالا لمساعدة عسكر الجزار فكانت بينهم وبين المتنيين وقعات انهزم بها المتنيون وقتل منهم خلق كثير ، وكتب الامير بشير الى الجزار يخبره وينسب هذه الثورة الى الامير يوسف . وكان الجزار في طريق الحج فغضب وكتب الى نائبه في عكا ان يشنق الامير يوسف ومدبره غندور الخوري . ثم خمد غضبه وكتب الى نائبه ان يتوقف عن شنقهما . وبلغ الامر الثاني قبل الاول فاخفاه النائب باشارة ابن السكروج لانه كان عدواً للشيخ غندور واخذهما الى المشنقة ، فشنق الامير يوسف واما الشيخ غندور فمات خوفاً وقيل شنقاً .

ان قتل الامير يوسف والشيخ غندور لم يخمد الثورة التي ابتدأت في المتن على الامير بشير . وعند رجوع الجزار من الحج اسف على قتل الامير يوسف وامر بقتل

---

٤) كان مدبر الامير يوسف الشيخ سعد الخوري ، ثم اصبح غندور الخوري ، ثم اصبح فارس الشدياق .

٥) كان الجزار قد ولى الامير بشيرا امارة لبنان مكان الامير يوسف ، ثم راح يجعل الامارة مزايدة بين المتزاحمين .

ابن السكروج والتمس الامير بشير منه اطلاق المسجونين من أتباع الامير يوسف وكفلهم ، فاطلقوا . وكتب الجزار الى والي دمشق ان يرسل عسكراً لمساعدة الامير بشير وارسل هو عسكراً الى البقاع وامر الارناؤوط الذين كانوا في حرش بيروت ان يحضروا الى صيدا . ولما شعر النكدية بمرورهم التقوهم بالسعديات وقتلوا منهم نحو مايتي رجل . فكتب الجزار الى قائدي عسكريه في صيدا والبقاع ان ينهضا بالعساكر الى المتن . وسار الامير بشير بعسكر من صيدا واظهر حينئذ العصيان اهل الغرب والشحار والجرد واهل دير القمر ايضاً وتجمعوا واكمنوا للامير عند صحراء الشويفات . لكنهم اندحروا وقتل منهم نحو عشرين رجلا .

وكانت بعد ذلك اي سنة ١٧٩٠ وسنة ١٧٩١ سلسلة حروب متصلة في ساحل بيروت والبقاع وحاصبيا واقليم الخروب والشوف ، وكانت النهاية ان الجزار لما رأى أن عساكره لا تستطيع ان تكره اللبنانيين على طاعته كتب للامير بشير ان يرجع بالعساكر الى عكا فرجعوا وامر الامير ان يقيم بصيدا وجعل له نفقة كافية ، وكان الاميران حيدر ملحم وقعدان اقاما في دير القمر حاكمين فصرفا اهل البلاد كلاً الى محله لكنهم بطروا وتمردوا وسطا بعضهم على اهل الساحل وبيروت فاقفل المسلمون ابواب المدينة على من كان فيها من الجبل وقتلوا ستين رجلا فرفع اعيان البلاد عريضة للجزار التمسوا فيها الصفح وان يولي عليهم الاميرين حيدر وقعدان وتعهدوا بدفع الاموال مع زيادة اربعة آلاف كيس عليها ، وبعد التوثق على ذلك ارسل اليهما الخلع وأمر بحجز الامير بشير بصيدا واخاه الامير حسناً ببيروت .

الثورة على اولاد الامير يوسف سنة ١٨٠٠ : كان ابنا الامير يوسف قد عجزا عن جمع المال المطلوب للجزار فانفذ الف فارس لجباية المال من البقاع والح بطلب المال كاملا مع مطالب اخرى فارسل الاميران محصلين لجمعها فهاج اهل البلاد وطرد المتنيون المحصلين وارسل الجزار الارناؤوط اليهم فاستعدوا لقتالهم واجمعوا على اعادة الامير بشير الى الولاية ووافقهم اكثر اعيان البلاد فارسلوا ثلاثماية رجل الى الحصن يستدعون الامير بشير فعاد معهم الى لبنان . فاضطرب الاميران واسرع جرجس باز

الى الجزار فجهز الفي مقاتل من الارناؤوط ووعده بارسال عسكر من الفرسان . وقام الامير بشير الى حمانا فالتقاه الجميع بالسرور واتحد معه اكثر الامراء اللمعيين فنهض الى الباروك ثم كفرنبرخ ، ووصل جرجس باز بالارناؤوط الى دير القمر وقلّ اصحاب اولاد الامير يوسف فاقنع بعضهم جرجس باز بعقد الصلح على ان يتولى الاميران بلاد جبيل ويتولى الامير بشير باقي البلاد ، فرضي بذلك وقام الامير حسين بعسكر الجزار الى ساحل بيروت ودخل الامير بشير دير القمر .

على ان جرجس باز عدل عن الصلح وجرت وقعات كان النصر في آخرها للامير ، فاذعن جرجس باز وعقد الصلح بشروطه المار ذكرها . ولما علم الجزار بما كان تزلق غيظاً ، وكان ذلك سنة ١٨٠٠ .

عامية انطلياس سنة ١٨٢٠ : وفي سنة ١٨٢٠ طلب الوزير [٦] مبلغاً لم يتيسر للامير دفعه للحال . ووجه المعلم بطرس كرامة يعتذر له . فحنق الوزير وامر بتوجيه عسكر الى حدود ولاية الامير وامر متسلمي صيدا وبيروت ان يقبضا على من يجدانه من اللبنانيين . فقبض متسلم بيروت على مائة وثلاثين لبنانياً ، ومتسلم صيدا على اربعين منهم . فارسل الامير يعتذر للباشا ويستعطفه . فامر بان يتعهد الامير بالفي كيس يدفعها بعد مضي شهرين . فتعهد بذلك وامر الوزير باطلاق اللبنانيين ، وارسل الى الامير خلع الولاية .

وارسل الامير جباة لجمع المال فهاج اهل المتن وابوا دفع المطلوب وكاتبوا اهل كسروان ان يحذوا حذوهم فاجابوهم الى ذلك . واجتمع الفريقان بانطلياس واقسموا ان لا يدفعوا الا بحسب العادة . واتاهم الشيخ فضل الخازن فجعلوه شيخاً للعامية المعروفة بعامية انطلياس . وكتبوا الى عبد الله باشا ان ظلم الامير بشير انما هو الذي اوجد الهياج في البلاد ، فاجابهم ان لا يدفعوا الا بحسب عادتهم . وارسل الامير يحذرهم وينذرهم فلم يرعوا . فكتب الى الوزير : اني عجزت عن الولاية وتركت بلادي

---

٦) هو عبد الله باشا الوالي العثماني الذي خلف سليمان باشا على عكا ، وسليمان باشا هو الذي خلف الجزار المتوفى سنة ١٨٠٤ .

منتظراً ان يصفو خاطركم عليّ . فوجه الوزير بعض مشايخ الدروز واصحبهم بسبع مائة مقاتل وارسل معهم خلعة الولاية الى الامير حسن علي والامير سلمان سيد احمد الشهابيين .

فنهض الامير بشير باولاده وخدمه الى حمانا فاقسم له الامراء اللمعيون انهم لا يقبلون والياً غيره . ثم نهض الى قب الياس ثم الى وادي التيم . وسار الامير سلمان بالعسكر الى وادي التيم مصحوباً بامر من عبدالله باشا الى امراء حاصبيا وراشيا ان لا يقبلوا الامير بشير . فنهض الامير الى حوران وضبط الامير سلمان املاك الامير بشير واصحابه . فكتب الامير بشير الى عبدالله باشا يستعطفه فاجابه : لو لم تترك الولاية لما وليت غيرك ، فاسرع الآن الى عكا . فاجابه الامير : ارجو ان تأذن لي بالاقامة ببلاد جبيل ، وكنت اود ان اتشرف الآن بحاباك ولكن لم اتمكن من ترك أتباعي ولا من احضارهم معي . فاذن له بالاقامة ببلاد جبيل وطلبه ان يحضر الى عكا بنفسه . وكان الاميران حسن وسلمان قد تعهدا لعبد الله باشا بدفع الفين ومايتي كيس .

ولما وصل الامير بشير الى شفا عمرو استأذن الوزير ان يحضر لديه ، فاجابه ان حضوره الى عكا وقتئذ يؤخر دفع ما تعهد به الاميران وخيّره بمكان اقامته . فاختار جزين وحضر اليها . فالتقاه الناس بالتجلة وارسل الاميران يجبيان المال الذي تعهدا به فطرد الجباة من المتن وكسروان وبلاد جبيل ، وتقاطر مشايخ البلاد واعيانها الى الامير بشير . فطلب الاميران من مشايخ العقل ان يتوسطوا للصلح بينهم وبين الامير بشير فتم الاتفاق ان الاميرين يتنازلان عن الولاية وان الامير بشير يأخذها . فعهد الوزير اليه بها مدة حياته فتليت الاوامر بها بكل احتفاء .

عامية لحفد سنة ١٨٢١ : ان الاميرين حسن وسلمان رفعا عريضة الى عبد الله باشا يبديان خوفهما من الامير ، فامر بشنق رسولهما ثم سار الامير بشير الى بلاد جبيل وطلب الامير سلمان ان يكون بخدمته ، فابى .

فكتب الامير حسن الى الامير سلمان واستغواه ان عائلتا الجبيليين الثائرين على

الامير بشير . فانقاد لرأيه ، وقام الامير الى غرفين احدى قرى جبيل . وكان اهل تلك الجهة مجتمعين بشامات . فبقي الامير سائراً الى لحفد .

فاجتمع في حاقل اهل بلاد جبيل والبترون وبعض من كسروان واتى رجال جبة بشري الى اهمج وجمهر المتاولة في رام مشمش وارسلوا يقولون للامير انهم لا يدفعون الا مالا واحداً وجزية واحدة . وكان الاميران حسن وسلمان يحسرانهم . فارسل يقول لهم : ارتضي بمال واحد ، وهم يجمعون المال ويردونه له . وقبل عود الرسول ظهر نحو الفي رجل من جهة ميفوق وظهر امامهم من الجنوب جماعة من المتاولة واخذوا يطلقون الرصاص ، والامير لا يسمح بالقتال الى ان اصيب احد رجاله ، فثار بعض العسكر واقتحموا اولئك الرجال وتبعهم الفرسان واطبقوا عليهم وأعملوا فيهم السلاح وقتلوا منهم نحو ثمانين رجلاً فانهزموا ... والقى بعضهم انفسهم من شاهق الى اسفل ، واسر منهم كثيرون . فعفا الامير عنهم وقُتل من عسكر الامير تسعة رجال .

وقام هو في اليوم التالي الى عمشيت فتعرضوا له في غرفين فارسل اليهم عشرين فارساً يناوشونهم القتال وانكسروا امامهم ليلحقوهم ، فلم يجسروا ان يلحقوهم ، فسار الامير الى عمشيت ثم جبيل ... — (عن كتاب موجز تاريخ سوريا ، الجزء الثاني) .

■

ولي الدين يكن

١٨٧٣ — ١٩٣١

البلبل « بطل الحرية » : وفيما دكران يفكر ، اذا صوت تسامى اليه في سكون الليل متنقلاً على اثناء الظلم ، احسن ايقاع باشجى ترجيع . فكان البلبل . البلبل والربيع ، كالمغني والمهرجان . وانما يشتد تلازمهما في ءآلف لا يتعديانها الى

غيرها . وأحب تلك المآلف اليها هي فروق .

اذا تراءت الربى في مجاسد الخصب وبدت انماطها وحواشيها مطرزة ومعلمة ، منمنمة بمحاسن الزهر في اختلاف أشكاله والوانـه وارتفعت التلاع في منخفض الوهـاد كالمضارب ، وصفت قبالتها طوائف السرح والسرو كالحواشي والجنود ، اقبلت التحتشد عند ملك عظيم ، وانسلت الانهـار في الاودية كالزئبق وسرت النسائم بين الصدور والارجاء بزفير او اريج ، انطلق البلبل من عشه ، وملأ الفضاء تطريباً .

بالعشيات او بالبكور . في الروضة الغناء او الوادي الممرع . على الاثلات او تحت الشبابك . عند اعتلاق الانداء بالفضاء بين السماء والثرى .

جناحاه في خفوق وسكون . وريشه في تجعد واستواء . يتنقـل بين الاوراق الخضر والاغصان الهيف راقصاً معربداً . كلما طرب لنغمة جاوبها مجاراة وكلما استنكر صوتاً صمت عنه مداراة . وهو مع كل حالاته شاعر الطبيعة . بديهاته طوعه وخواطره معه . لا يتصنع ولا يتكلف . يقيم الاوزان ويسدد القوافي بغير كد وبغير تعنت . يترفع عن تمليق الملوك والزلفة عند الكرام . ينسب ويتشبب . ويبكي ويستبكي . غناؤه انين وشعره روح .

ربيب الجمال وتبيعه . يروى بماء المزن ويثمل بشذا مـا تنشر الخمائل . شجي معنى . تهيجه الذكريات وتميته الحسرات . حليف الوجد وهو ابعد المخلوقات عن حمله . يريك لساناً كريشة الكاتب . يقطر لوعـة . ويتحرك حزنـاً . وعينين مروعتين بحوادث الليالي تلمعان على احسن رأس ركب على احسن عنق الى جثمان كالقلب بل هو اصغر واوهن .

ليت شعري ما تضمنت تلك الضلوع الضعاف . وما يهيج تلك الروح المروعة .

أكلف بالحرية ؟ أجل كلف بالحرية . هو مجنونها ومعذبها ومدللها بل هو على ضعفه وصغره بطلها . ما اودع قفصاً الا ومات فيه غماً او انتحر يأساً . يرنو الى ملك الله في سعته ويتملى من محاسنه . بعيداً عنها ، محجوزاً دون الجولان بينها ، فيفنيه ذلك أسى ولا يستشفي عنه بصبر ولا جلد . آه من البلبل وآه على البلبل .

فرح انطون

١٨٧٤ – ١٩٢٢

من مذكرات مفكر عن ايام عبد الحميد : علمت في زمن الصبى وانا في سوريا بان اسكندر دياس الاكبر كتب رواية في الثورة الفرنسوية ، فاهتديت اليها . وما شرعت في مطالعتها حتى سباني موضوعها واسلوبها لا لامر ما سوى شيء من المشاركة بين بعض حوادثها وحوادث السياسة في البلاد العثمانية في ذلك الزمن . وكانت سكينة كسكينة المقابر تخيم يومئذ على البلاد والعباد ، والجرائد السورية لا تنشر شيئاً (يخدش الاذهان) لان المراقبة كانت لها بالمرصاد والصحافة المصرية على قلتها يومئذ قليلة الانتشار في سوريا . فقلما كان للمطلع مصادر يستقي منها غير المصادر التي يختارها ويسعى اليها . ففي وسط هدوء كذلك الهدوء ، وخمول كذلك الخمول ، احسست بان عبارات دياس في روايته هذه كانت كبروق تسطع وتشق جو الفكر ، او اسواط تقرع الاذان وتنبه العزائم والاذهان . وقد يكون اليوم لعبارات كتلك العبارات تأثير كذلك التأثير في نفوس الرجال الذين اشتدت سواعدهم وقويت الواحهم حتى بعد زوال الضغط القديم ومشاهدتهم حوادث يومية كحوادث تلك الرواية ، فكيف بتأثيرها في فتى صغير السن قليل الخبرة والاطلاع .

ولذلك اولعت بهذه الرواية ولعاً شديداً دون سائر روايات دياس . ولا اتذكر انني قرأت رواية له غيرها قراءة جدية . وكم من مرة قضيت في مطالعتها الليل حتى الساعة الثالثة او الرابعة صباحا ثم انحدرت بها من فراشي الى حفرة في الحديقة كنت ادفن فيها صندوقاً صغيراً يحتوي الكتب والاوراق التي اخشى عليها من عمال الحكومة خوفاً من التفتيش الفجائي الذي كان شائعاً . فكنت اضعها في الصندوق بين تلك الكتب والاوراق واعيد التراب على الصندوق ثم انام مطمئناً .

وقد تكون هذه التفاصيل تافهة في ذاتها ولكني لم اذكرها الا لسبب سترد الاشارة اليه . على ان ولوع المرء بكتاب او رواية سبب كاف في حمله على اشراك

قرائه في مسا احبه منها ، حينما يتخذ الكتابة صناعة له ، وهذا ما جعلني افكر في تعريب هذه الرواية والحاقها بـ « الجامعة »[1] حين رأيت الحاقها برواية . وهنالك ايضاً سببان آخران ، الاول : تلذذي يومئذ (بمضايقة) مراقبي الجرائد والمجلات في البلاد العثمانية جزاء لهم على ما عانيته بسببهم من الحذر والاتقاء والاحتراس في اثناء مطالعاتي الاولى . والثاني ، وهو السبب الوجيه : رغبتي في ايقاد تصورات ابناء الشرق بهـذه الرواية ، كما اتقدت تصوراتي بها في صباي . وقد خيل اليّ انني بتعريبها في اثنـاء ذلك السكون التام والخمول الشامل افتح ، في ذلك البناء القديم ، نوافذ مطلة على سماء الحرية ليرد منها النور والهواء ، وانصب امام قرائها مثالا يحتذونه ، قمته تحيط بهـا زرقة السماء وقاعدته مغموسة في الدماء . وقد يكون هنالك سبب اوجـه من جميع تلك الاسباب التي تقدمت وهو الداء الذي يقع فيه كثيرون من الصحافيين والكتّاب ، واعني به الرغبة في اجتذاب القراء بالمواضيع الجذابة . ولكن ليس من مصلحة الكاتب ان يعترف مثل هذا الاعتراف ويسجل هذا الكلام على نفسه لان صناعـة الكاتب كصناعة الكهنوت فيها كثير من الاسرار .

وقد شرفت الحكومة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد هذه الرواية حين الشروع في نشرها في « الجامعة » ببضع تلغرافات كانت تبعث بها الى الولايات السورية كلما صدر جزء من الجامعة وفيه جزء من الرواية . ولما كانت اجزاء الجامعة يبعث بهـا (مضمونة) في البريد الفرنسوي فقد كان البريد الفرنسوي يعيد الى ادارة الجامعة الاجزاء المرسلة الى داخلية البلاد العثمانية والتي تسبقها الى الثغور السورية تلغرافات الاستانة ، بينما كانت الاجزاء التي تسبق تلك التلغرافات الى الثغور تمر وتصل الى اصحابهـا في الداخلية دون ممانع . ولما تحققت ان كل الضرر وارد من اطـلاع قلم المطبوعـات بالاستانة على « الجامعة » قطعت الجامعة عن قلم المطبوعات في الاستانة والنظارات ، قطعـاً مطلقاً ، حتى عن مشتركيهـا في الاستانة ، فبطل ارسال التلغرافات مدة من الزمن . وقد ظننت انني بقطعي « الجامعة » عن الاستانة قد وجدت دواء للداء ، وما كنت ادري ان داء الاستانة يومئذ داء لم يكن له دواء قبـل قيام شوكت

[1] اسم المجلة التي انشأها فرح انطون .

باشا وجيشه . فان حكومـة الاستانة لم تلبث ان امرت بمنع دخول مجـلة الجامعة الى البلاد العثمانية بسبب نشرها هذه الرواية على الاخص .

وقد انقضى الآن عشر سنوات على نشري هذه الرواية قضيت منها ٤ سنوات في جهـات اوروبا والولايات المتحدة وكندا . وعنـد وصولي الى باريز ، لاول مرة في حيـاتي ، كان اول ما عملته انني زرت اشهر الاماكن التي وقعت فيها وقائع هـذه الرواية كالتويلري والمجلس البلدي وفرسايل وساحة الباستيل التي ليس فيهـا اليوم من آثار الباستيل شيء سوى تذكار نُصب في وسط ذلك المكان يذكر النـاس بهجوم الشعب على الباستيل ، واظهاره لاول مرة قوته عـلى قوة الملكية . والمكان اليوم ساحة متسعة تحيط بها القهاوي ، وكأن ارضه في ظلام الليل ونور النهار لهدوئها وقلة الزحام فيهـا كائن تعب لحمله ثقلا هائلًا عدة قرون جاس يستريح ويتنفس الصعـداء لخلاصه من ذلك الثقل الهـائل الذي كان فوقه كصخرة هائلة ملقاة على قلبـه ، او « كوحش هائل رابض على قارعة الطريق يفترس الناس » كما قال ديمـاس . وقـد وقفت غير مرة في ذلك المكان واخـذت اقول واذا اجول في انحاء تلك الساحـة الهادئة : هنا كان سجن الفكر والقلم والعقل . هنا كان مدفن الكتّاب والفلاسفة والساسة من معارضي الحكومة ، دفنوا فيه احياء ولكنهم ما لبثوا ان تمطوا وهم في مدفنهم فرفعوا عنهم بقوة الفكر الذي لا يسجن حجارة القبر ونبذوا الاكفان وفتحوا جميع قبور الاستعباد لجميع المدفونين واخرجوهم الى نور السماء ! هنا كان اول ما سطع نور الله على الارض وانـار طريق الشعوب وفتح السبل في وجهها بعـد ان كانت مسدودة ! هنا كانت اول واقعة فاصلة بـين حق الشعب وحق الملك فصرع الاول الثاني ! هنا كان مولد الديموقراطية ومدفن الاوتوقراطية والارستقراطية ! هنا كان مهبط رسالة جديدة للبشر كرسالة احمد يصونها سيف ماض كسيفه ! هنـا كان مزود بيت لحم الثاني الذي ولد فيه المسيح الثاني ولكنه (عُمّد) بالسيف والنار والدماء لا بماء الاردن ! هنا ظهر الله يوماً ظهوراً اجلى من ظهوره على جبل سينا او عليقة موسى ! هذه هي الافكار الشائعة بين الجمهور في شأن الثورة الفرنسوية ومبادئها . وقد تغذى في صباي لحمي ودمي من هـذه المبادىء ، وقرأت تاريخ تيير وميشله وشيئـاً من

تاريخ كارليل في شأنها حتى اصبحت احرم على نفسي رشقي لها ولو بوردة حتى في المبادىء التي بطل اعتقادي بها ... — (مقطع من مقدمة فرح انطون لرواية ديماس التي عر بها عن الثورة)



مُصطفى كامل باشا

١٨٧٤ - ١٩٠٨

اشتراك الشعب في حكم نفسه سبب الرقي : من الشعوب من يسلم زمام اموره الى حكومته ويجري طوع ارادتها ، ومنها من يجعل للحكومة حداً في السلطة والنفوذ ويراقبها مراقبة شديدة ، ان احسنت كافأها وان اساءت قضى عليها . فشعوب الشرق من النوع الاول ، وشعوب الغرب من النوع الثاني . ولذلك كان الشرق في تأخر وانحطاط وكان الغرب في تقدم وارتقاء ، لان الشعب هو في الحقيقة صاحب البلاد وسيدها وحارس الوطن من كل الاخطار . وما الحكومة الا وكيل عنه تُختار من نخبة ابنائه ومن اشدهم حرصاً على مصالحهم .

ان الشعب هو القوة الوحيدة الحقيقية : على اننا لو تأملنا قليلاً الى ما اقيم في هذه البلاد من عظائم الاعمال ، لوجدنا ان الشعب هو المنشىء له والموجد لكيانه . فهؤلاء الافراد الصغار الذين لا يعبأ بهم الكبراء والعظماء هم في الحقيقة قوام مصر ومصدر نعمتها ولولاهم ما عرفنا العيش ابداً . من المؤلف للجيش ؟ افراد الشعب . ومن المكوّن للشرطة وحفظ النظام ؟ افراد الشعب . ومن الموجد لمحصولات مصر وخيراتها ؟ افراد الشعب . ومن يُعيش العظماء والكبراء والامراء ؟ افراد الشعب . فهم دون غيرهم قوام الوطن ومصدر خيره ومجده وسعادته . فكيف يجحف بحقوقهم ؟ وكيف يهانون ؟ الا ترى ان العظماء انما هم كذلك ، لان افراد

الشعب يحملونهم فوق رؤوسهم ويطيعون اوامرهم ? والا فلو تحول الشعب ضدهم فماذا يفعلون ? وهل يستطيعون مقاومته او يقدرون على الوقوف امامه ? كلا ثم كلا ! ان الشعب هو القوة الوحيدة الحقيقية ، وهو السلطان الذي يخضع لارادتـه اكبر العظماء واعظم الاقوياء ...

المساواة امام الوطن : ان النـاس سواء امـام الوطن في الحقوق والواجبات .

المواطنون متكافلون متضامنون : اذا ظلمت الحكومة احـدنا ولم نعمل لرد هذه المظلمة ، كان ظلم الحكومة واقعاً لا محالة على الجميع ... — (مقاطع من خطاب الزعيم الوطني المصري ومقالاته نقلا عن كتاب « مصطفى كامل باشا في ٣٤ ربيعاً ») .



امين البستاني

١٨٥٤ - ١٩٣٧

الديموقراطية [1] : الديموقراطية لفظة يونانية تركبت من كلمتين : داموس ومعناها الامة او الشعب وكراموس ومعناها السلطة : اي سلطة الشعب ويقابلها الاوتوقراطية . واللفظة يونانية ايضاً ومعناها سلطة الفرد او الملك المطلق لا الدستوري المقيد . هـذه انكلترا « ديموقراطية » على رأسها ملك الا انه دستوري مقيد يسوس الامة ولكن على يد الامة فهو ملك جمهوري .

قلت ولم تزل الحرب مستعرة بين الديموقراطية والاوتوقراطية منذ تبلج فجر المدنية ، دلنا على هذا تاريخ اثينا ورومية في القدم وتاريخ فرنسا وانكلترا وغيرهما في الطارىء

---

١) نقلا عن كتاب « مختارات امين البستاني » ، مصر .

الحديث . فمن اوتوقراطية الى ديموقراطية ومن ديموقراطية الى اوتوقراطية حتى ظفرت الديموقراطية ، الا الولايات المتحدة الاميركانية فانها استمرت من الاصل على الديموقراطية لا تنصرف عنها ابد الايام وذلك لتمكن المذهب الديموقراطي منهـا واشرابه نفوس قومها . ولا غرو ان تسود الديموقراطية آخر الامر لانها حكومة الامة والحكومة للامة لا للملك الذي هو رجل منها اختارته ان يكون رأس دولتها او اغتصب هو هذا الملك اغتصاباً وغلاباً في حرب وقعت او فتنة فرقت بين الامة ادرك بها طالب العرش مناه .

لما قبض الملوك على صوالجة عروشهم انتحلوا حق السماء وقالوا ان ملكهم من الله لا من عباد الله . ومن هذا قيل لامبراطور الصين ابن السماء ولسلطـان العثمانيين ظل الله على الارض . ثم ظلت الامم تلقي على ملوكها مثل هذه النعوت الضخمـة حتى هووا من تلك العروش الا المـلوك الذين دانوا لسنة الديمقراطية فاستقروا عـلى عروشهم وهم اشباه رؤساء الجمهوريات لا ابناء السماء ولا ظلال الله على الارض . على ان تبدل طريقة الحكم من سنن اوتوقراطي اي من سنن التحكم والاستبداد الى سنن الحرية والدستورية فجأة وبمرة واحدة افضى الى فتن سالت فيها الدماء وتناولت رؤوس الملوك انفسهم فلم تسلم من سيوف الفتنـة ان تجزها وتجزمهـا . والشواهد كثيرة في التاريخ القديم والجديد اذ لا بـد للملوك من احزاب تنصرهم وتنفر معهم للذود عن عروشهم فتقتتل الرعية ولم تزل بالاقتتال حتى يظفر فريق بآخر ، وغلب ان يظفر فريق الحرية ان لم يكن عاجلا فبعد حين . لانه متى عصفت فتنة الحرية بأمـة واذاقتهـا شيئاً من حلاوة الديمقراطية فلا تنكص عنها حتى تبلغ امانيها . الا ان حكماء الامم اجمعوا على ان التدرج والتدرب على طريقة الديمقراطية هما اسلم عاقبة واثبت اثراً من الطفور ، فقد جاز ان تلتوي اماني الاحرار بمثل هذا التسرع وتقوم الفتنة ويفسد القصد على طالبيه .

لقد غلبت الديمقراطية وعمت بسيط هذه الارض فمن غالبها من ذوي التيجان فقد غلب على امره وهوى من عـل . وان تسأل من له اليد البيضاء في اعزاز هـذه الديمقراطية المباركة اجبتك جمهورية قدماء اليونان وقنصلية الرومان اللتان وان باتتا في ذمة التاريخ الا انهما لم تبرحا مثالين صادقين واستاذين كريمين لامم اوروبا . فهبت

ثورة الانكليز اولا في طلب الديمقراطية وعقبتها ثورة الفرنسيس عام ١٧٨٩ وكانت ام الثورات ومطلع فجر الحرية للعالم كله . ثم ان سنّة الانصاف لتدعونا ايضاً ان نذكر للولايات المتحدة الاميركانية يداً جميلة على الديمقراطية في هذا العصر ، وحق لفرنسا نصيب من هذا الشكر لانها نصرت الاميركان في حرب الاستقلال وبعثت اليهم قوادهـا الذين قادوها مع واشنطن للنصر والاستقلال .



امين الريحاني
١٨٧٦ - ١٩٤٠

الثورة الافرنسية : لو قصد المؤرخ ان يطالع كل ما كتب عـن الثورة الافرنسية في اللغتين الافرنسية والانكليزية فقط لصرف زمانه كله في المطالعة . بل انه يموت دون ان يتمم هذا العمل الخطير غير المفيد . وقد انقسم مؤرخو الثورة الى قسمين فمنهم من تحرى سرد الحوادث دون تحزب وتحيز ومنهم من ألحق بكل حادثة نتفاً من فلسفته السياسية الخصوصية فنـدد بحزب ونصر آخر وكان امـا ملكياً او جمهورياً .

اما كارليل الكاتب الانكليزي الشهير فقد حاد عن الخطتين في كتابه المسمى « تاريخ الثورة الافرنسية » فهو لا يطري الجمهوريين كهوغو ولا يندد بهم كتيارس ولا يتحامل على الملكية بانتقاده اكثر مما لو كانت حكومة جمهورية . بل اراد في تاريخه هذا ان يكون خالي الغرض غير متحيز لحزب من الاحزاب ، ولكن نيته هذه الحميدة اوقعته في الفتور الذي لا يسلم فيه صاحبه من عدم الاكتراث والشك . ومن كلف نفسه قراءة شيء من تآليف كارليل العديدة يبان له بعد قليل من التفكر ان الرجل عصبي المزاج اسير السويداء والتخمة ، وقد كان مصاباً بداء آخر اهم من الاثنين

لا فائدة من ذكره في هذا الصدد ، وان نتيجة هذه العوارض الخبيثة تتجلى دائماً في كتاباته في شكل من التهكم فظيع ، والكتاب الذي نحن بصدده الآن مفعم بمثل هذا الازدراء والسخرية . ومعلوم عند الناقدين ان هـذا الاسلوب لا يليق في سرد التاريخ فهو كثيراً ما يشوش المعـنى الحقيقي ويجعل القصة البسيطة متشعبة متلونة غامضة لا يستطيع القارىء فهمها دون ان يجردها من ثوبها المزخرف الكثير الالوان .

ليس من العدل اذاً ان يدعى هذا التأليف تاريخاً فهو خالٍ من الاعتقاد والرأي في الحوادث التي يسبرها ومفعم بوساوس الفيلسوف العديدة التي تروقنا في بقية مؤلفاته وتزعجنا في كتاب دعاه تاريخاً .

كتاب يفتقر الى روح جدية لترفعه من طبقة الخلقيات الى طبقة العقليات . ولا نقدر ان ندعو الكتاب رواية لان فصوله غير متصلة بعضها ببعض اذ نقرأ كل فصل بذاته ولا تتولد فينا رغبـة معرفة السابق واللاحق . فالكتاب اذاً مجموع مقالات متفرقة في حوادث الثورة الافرنسية ورجالها مسطرة على قرطاس الفتور والشك بيراعة التهكم والازدراء . ولا رأي خصوصي له في تلك الحوادث واولئك الزعماء سوى انه ينصر تارة الكل وطوراً يقاوم الكل ، وهذه هي المزية التي خدعت الناقدين في زمن كارليل فانزلوا كتابه هذا منزلة التاريخ في الوقت الذي يجب ان يعد في كتب الخُلقيات والوصف . كيف لا ومزاج المؤلف العصبي ظاهر في كل صفحة من الكتاب ، فهو يقيس كل حادثة ويحكم على كل فرد له علاقة في هذه الفتنـة الهائلة بمقتضى هـذا المزاج المركب من السويداء والتخمة والتهكم .

ولسنا من الذين ينكرون على الكاتب حق التهكم في بعض الاحايين اذ اننا نعتقد بصلاحية هذا الاسلوب ونعده من الطرائف الجدلية الفعالة التي يقاوم بها الكاتب كل سخيف سقيم . اما تهكم كارليل فحادّ اذا خف وفظ اذا اشتد . وبينا نحن نطالع هذا الكتاب لم نتمالك ان اعدنا الفكرة الى ما كنـا نطالعه من نفثات فولتر فرأينـا نرى بين مؤلفين نابغتين الواحد منهما لاتيني والآخر سكسوني شبهـاً عظيماً من حيث اسلوب الكتابة السخري الذي استخدماه في مقاتلة الفساد والظلم والخرافة . ولكن اين تهكم الانكليزي الكالح الجـاف من تهكم الافرنسي الوضاح المنير ، فهذا شبيـه

ببركان وذاك بمرض عضال مزمن . هذا يهلك ما يلقاه عاجلاً وذاك يدخل جسم الفساد والخرافة فيضعفه ويلاشيه تدريجاً . فضلاً عن ان تهكم كارليل خال من الذكاء الذي يزين تهكم فولتر . كان كارليل يرعد اذا غضب ويعطر واما فولتر فكان يبتسم ابتسامته المشهورة ويسير بهدوء الى غايته المطلوبة .

لنعد الآن الى الكتاب الذي نحن بصدده . اراد المؤلف ألا يتحيز في تاريخه وان يكون مع الحق اينما وجد سواء كان في جانب زعماء الثورة او حول عرش الحكومة القديمة . ولكن رغبته هذه ادت به الى الفتور وعدم الاكتراث . والحق يقال ان من لا يكترث لحادثة ما لا يستطيع ان يكتب عنها بدقة واصابة واخلاص . وكارليل يبحث عن اكبر حادثة في العالم كما تبحث صحف الاخبار عن جريمة بيتية او حادثة خصوصية يزول اثرها بعد ان يقرأ خبرها . فهو ابداً يفتش عن الحوادث الطفيفة التي كان الاحرى بها ان تدون في الروايات الغرامية ويستنتج منها نتائج عمومية فاسدة ويصور من هذه صوراً خيالية فظيعة يسأم هو منها في النهاية ويرفع يديه الى السماء صارخاً : « امكن ان تخلق ربي مثل هذا الشعب ؟ »

وهل دعوة الافرنسيس يا ترى خالية من الحقيقة وهل الثورة بذاتها نهضة فاسدة مضللة ؟ وكيف يتملص الكاتب الفاتر المشكك من لوم الناس الذين حاربوا الثورة او نصروها وبعض بنيهم واحفادهم لم يزالوا حتى يومنا هذا يقاومون نتائجها وبعضهم ينصرونها . فلو كانت فاسدة على الاطلاق لامحت آثارها بعد مئة سنة من الزمان . نحن من الذين قالوا بعدم الاكتراث في بعض المسائل الدينية التي لا تولّد الا النزاع والشقاق ، ولكن الوقت لم يحن لنبذ الحماسة السياسية والغيرة القومية ، فالمرء الذي لا يكترث لامور حكومته يعد خاملا ، والكاتب الذي لا يجد خيراً في اي نوع من الحكومات يعد فوضوياً .

ان الحقيقة التي نفصلها عن اخواتها — عن اسبابها ونتائجها — وندونها معتزلة مستقلة كثيراً ما تغش المؤلف وتضر بالغاية الاصلية التي ينبغي ان تظل نصب عينيه . اما الثورة في رأي كارليل فلا سابق ولا لاحق لها . هي فلتة اجتماعية لا سبب لها ولا نتيجة . هي ضربة من ضربات الله . هي مصيبة من مصائب الزمان . هي بنت الاتفاق

الذي نشأت عنه وماتت فيه . هي حادثة معتزلة عن حياة البشر السابقة وعن مستقبلهم . ان عدداً من الناس ينتسبون الى بلاد تدعى فرنسا قاموا في وقت من الزمن فهاجوا وماجوا وحدث بينهم شغب عظيم وقتال من اجل قوانين ونظامات سياسية جمعوها فلقبوها بالقانون الاساسي . ومن ثم اهلك بعضهم بعضا وختموا القانون بدمائهم وعادت الاشياء الى عالم النسيان ، الى ظلمات الزوال . هذا كل ما يراه كارليل في الثورة الافرنسية ، فهو لا يكلف نفسه النظر في البواعث التي من اجلها سفكت دماء الالوف من الناس . ومع ذلك هو يحاول اظهار الفاسد من الصحيح فيها . وكيف يستطيع الكاتب ان يحكم على احوال امة في عصر لم يكن هو منه بعد ان اهمل التنقيب في تاريخ الامة الماضي وفي اخلاق الشعب واحواله السياسية والزراعية والتجارية .

قد اوجب الاقدمون على المؤرخين ابداء الحكم في كل قضية يدونونها واقاموهم مقام القضاة . وبعد ان يدون المؤرخ الحوادث بدقة واخلاص يمحص الصحيح من الفاسد فيها ويستنتج من ذلك نتيجة تسوغ له وضع قاعدة ادبية فيها نور وهدى للاجيال المقبلة . وقد قام كارليل ببعض هذا الواجب في تدوين الحوادث غير انه اغفل امراً جوهرياً هو ذكر السبب الرئيسي الذي نشأت عنه الثورة فهو لا يرى فيها عملاً واحداً يستحق الشكر اذا ذكر ولكن حادثة واحدة فظيعة لا تقدح في نهضة عمومية خطيرة وان تعددت هذه الحوادث المرعبة فالنظر اليها والى اسبابها الاولية معاً لامر واجب على المؤرخ .

ان صلب المسيح بالنظر الى مصلحة الشعب الاسرائيلي عادل في الظاهر وبالنسبة الى البشرية هو جائر فظيع ، اما الحادث هذا وحده فلا معنى له ولا اهمية .

وان من يقرأ سجلات الحكومة الافرنسية ومعلومات السياسيين والكتّاب الذين شاهدوا الحوادث وكانت لهم يد فيها يبالغ لا شك في التعنيف والتنديد بما يدعى « دور الهول » اذا اغفل الغاية الرئيسية التي بسببها ومن اجلها تأسس .

ومن كان نظير كارليل سريع التأثر صعب المراس حاد المزاج يحكم على الحوادث هذه بالنسبة الى انفعالات نفسه لا بالنسبة الى الظروف التي نشأت عنها ، ولذلك لا نرى في كتابه الا مجموعة قصائد مدح وفخر وهجو ورثاء . قلت مجموعة قصائد لان في اسلوب

نثره جمال الشعر وزخرفه فهو يسير منشداً وراء عربة المنتصرين وباكياً في موكب المنهزمين • يرفع اليوم قوس نصر للقوة المادية ويبني في الغد مذبحاً للشفقة والحنان • وبين هذه المتناقضات يصبح القارىء حائراً تائهاً • كيف لا وهو يتوقع من المؤرخ اكثر مما يتوقعه من الشاعر • نريد ان نعرف كيف تخفض آلام البشر وشقاؤهم لا كيف نندب هذا الشقاء ونرثيه •

ان في حياة الاجيال الماضية امثولة للاجيال الحاضرة والمقبلة ، والمؤرخ الذي لا يظهر هذه الامثولة فيلهو عنها في وصف البؤس والشقاء لا يخفض شقاءنا ولا يعلمنا شيئاً • ان في اعمالنا اليوم امثولة ثمينة لابناء الغد هي الكنز الوحيد الدائم الذي يرثه عنا الخلف بواسطة التاريخ • ومن واجبات المؤرخ المحافظة على هذا الكنز الثمين بعد الوقوف عليه ، واذا كان ضائعاً بين انقاض الثورات والحروب او مختفياً في بحار الاهواء والتعصب فعليه ان يفتش عنه بصبر وعناء وينيره في الناس مصباح هدى وسلام •

ان الحلقة التي تصل الماضي بالمستقبل هي حلقة الترقي الدائم مما كان الى ما سيكون ، والحوادث التي تتخللها هي حلقات بعضها يشتبك ببعض وليست متفرقة متشتتة كما يزعم كارليل ، والمؤرخ الذي يكمل سلسلة الترقي او بالحري يزيد في توثيقها يخدم الناس خدمة حقيقية • ولكن كارليل لا يعتقد بحياة جامعة شاملة ، حياة روحية دائمة يتصل آخرها باولها [1] ، بل هو شديد الاعتقاد بالتفرد والافراد وقد قال مراراً ان تاريخ العالم هو تاريخ عظماء الناس • على ان الفرد انما هو صوت واحد ينطق باسم ملايين من الناس الصامتين ، فالرجل العظيم انما هو عظيم بشعبه لا بنفسه ، هو يستمد معظم قوته مما يحيط به من الاشياء والظروف والرجال ، هو خاضع كأصغر الناس لناموس الترقي الدائم الازلي بل هو صنيعة هذا الناموس وخادمه المخلص علم ذلك او جهله • فلو ولد نابليون في بلاد الصين مثلاً وعاش فيها لما كنا نعرفه الان • ورب قائل لو ولد نابليون هناك هل كانت حصلت فرنسا على المجد الذي اكسبها اياه ؟ اجيب بالايجاب اذ لو لم يولد نابليون فيها لنشأ غيره وهذا ما يجعلني شديد التمسك بما يدعى ناموس الترقي الدائم الذي يقضي بوجود رجل عظيم كل فترة من الزمن لتأييد هذا الناموس وتعزيزه •

١) الكتاب الاول الفصل الثاني والكتاب الثالث الفصل الثاني من تاريخ الثورة •

ان القنوط والشك واليأس والفتور كلها طبائع تظهر في كل صفحة من هذا التاريخ وفي اسلوب انشائه الجميل الفخيم . وقد قلت ان كارليل هو اشبه بالشاعر مما هو بالمؤرخ، والشاعر لا يكون استاذاً في الاقتصاد السياسي ولا فيلسوفاً في العمران، فهو اذا قرأ سجلات الحكومة الافرنسية ومعلومات من شاهدوا الثورة يثور ثائره الشعري فيحصل فيه انفجار اشبه بالبركان ويدهمنا بحمم تحرق ولا تنير ، فتسودّ منها آفاق البصيرة وتظهر اشباح ابطال الثورة التي يصفها وهي تتهادى في الظلمة غير المتناهية . ولكن ما هي غاية هذه الاشباح وما هو غرضها ولماذا اشغلت فكر كارليل فألف فيها مجلدين ضخمين ؟ ألأنها كانت تندب وتنوح عبثاً وتتاتل وتحارب باطلًا وتصيح وتنادي دون غاية ودون مرمى ؟ ماذا فعلت هذه الاشباح ؟ اكلها الزمان فتلاشت من ذاكرة الانسان . بلعتها الظلمات فامحت من لوح الحياة . هذا جواب كارليل وزبدة فلسفته المختبئة في اكمام الفصاحة واشواك البيان . وبناء على ذلك لا يحق لتأليفه ان يدعى تاريخاً ، وانما هو ملحق تصويري لتاريخ الثورة الافرنسية وان فصوله لأشبه بصور رسمتها يد ماهرة . صور تساعدنا على الدخول الى تاريخ الثورة الجدي ولكن لا تنبئنا به كثيراً ، فهي من هذا القبيل اشبه بالصور التي تزين بها الروايات التاريخية تحملنا الى بعض ما يقصده الكاتب ولا تكشف لنا الستار عن القصة بكاملها .

ومن جهة فلسفية يمكننا ان نقول ان المؤرخين اثنان : الاول يعتقد بالنشوء والارتقاء الاجتماعي بالترقي الدائم بالصعود المستمر . والثاني لا يعتقد بشيء من هذا . فلسفة ذاك في العمران شبيهة بخط مستقيم عمودي وفلسفة هذا بالدائرة صعود . البشر في رأي الاول دائم مستمر وفي رأي الثاني محدود تصل الشعوب فيه الى نقطة لا يستطيعون ان يتجاوزوها فيهبطون عائدين الى الهوة التي خرجوا منها . وهم في هذا يشبهون الحية التي تأكل ذَنبها . ومثل هذا المؤرخ الذي لا يكترث بالاشياء ولا يحترم روح التاريخ ولا ينظر الى ما وراء الحوادث يجرد على الفساد والظلم سلاح التهكم والازدراء ولا يفوز بغير الهدم والتدمير . ومثال ذلك ان كارليل يشغل فكرته وقريحته غالباً بطفيف الحوادث وتافهها شأن القصصي او الكاتب الاخلاقي [٢] فضلًا عن انه لا يعتقد

٢) الكتاب الاول الفصل الثاني من تاريخ الثورة .

في تاريخه هذا بغير الزوال الدائم :

كل بيت للهدم مـا تبتني الور قاء والسيد الرفيـع العماد

واللبيب اللبيب مـن ليس يغتر بكون مصيره للفساد

والمؤرخ الدهري يختلف عن الفيلسوف الدهري في ان هذا يعتقد على الاقل بأزلية المادة وخلودها وذلك لا يعتقد بخلود شيء . انما حياة الاشياء والمخلوقات الى اجـل مسمى . بل هي خيال زائل يظن ذاته حقيقة ثابتة دائمة . في مثل هـذه الاقاويل يبرهن كارليل على ان الثورة الافرنسية لا تؤثر ابداً في تاريخ الشعوب والعمران ولن تؤثر حتى في احوال اوروبا السياسية والاجتماعية .

وفي الفصل الثاني من الكتاب الاول يرفع الستار حتى النهاية عن فلسفته الاجتماعية الدهرية ، ومن يقرأه مفكراً تنجلي له النتائج التي استخلصناها منه وهي ان تعظيم الصغائر يلذ متى كان النافخ في فقاقيعها كاتب عظيم ككارليل ، ولكن الحفول في الصغائر يبعدنا عن الجوهر الحقيقي . وان الفكر الروحي الداخلي زائل لا ازلي هو ولا خالد بل هو يتغير ويتحول ويتلاشى كالمادة صحيحاً كان او فاسداً . وان النهضات الاجتماعية السياسية تظهر فجأة واتفاقا لا بعد ان تنضج في خفايا الزمان . وان الفلاسفة مخطئون على الاطلاق في مبادئهم الاقتصادية وفلسفتهم الاجتماعية . وفي بقية الفصول دليل واضح على كل هذا . وفي ما كتبه عن ميرابو بالاخص وعن ليلة رابع آب دليل انصع واوضح . ومعلوم ان مجلس النواب الغى في تلك الليلة الشهيرة في مدة ساعتين من الزمن نصف شرائع الحكومة القديمة وقوانينها . واذا اراد القارىء ان يطلع على مثال جلي من تهكمه الفظ وانتقاده العنيف الشديد فليقرأ الفصول التي يصف فيـها فرار الملك والمحالفة الوطنية في شأن ديار والمشـاغب التي نجمت عن قلة الحنطـة واحتكارها . وكم مرة ردد في كتابه عن مجلس الامة الذي نشـل فرنسا من الهوة التي كادت تبتلعها قوله ان « قد اجتمع اعضاء المجلس ليصلحوا قواعد الافعال الشاذة . »

قد لا يحترم كارليل الا القوة المادية وكثيراً ما يكبر نزوات الانسان واهواءه ويمجدها . فهو لا يرى في نهضة الافرنسيس على ارباب الظلم والظلام سوى معدة فارغة وخمسة وعشرين مليوناً من الالسنة الملتهبة حماساً الملتوية جنوناً في عالم من الفسـاد مضطرب

مدلهم . فالخبز في مذهب كارليل هو سبب الثورة ونتيجتها ، هو الاول وهو الآخر - واما المؤرخ الذي يعتقـد بالصعود المتواصل بالترقي الدائم فهو لا شك يرى ان ليس بالخبز فقط يحيا الانسان .

ان بين الكمالات النظرية والاختلال الحقيقي في حياتنا الاجتماعية علاقة خفية تكاد لا تنظر بالعين المجردة ولا تتجلى دقائق الحكمة فيها الا لمن خصتهم الطبيعة بشيء من البصيرة والذكاء وبنفس صافية شفافة صحيحة تنعكس فيها الاشياء انعكاساً تاماً جلياً صحيحاً . ولا شك ان بين ما هو كائن في تصوراتنـا وما هو حادث في حياتنا فرناً ظاهراً ومع ذلك فان هذا الا انعكاس ضعيف مختل لذاك . كأن العقل البشري اليوم اشبه بمرآة مكسرة لا تنعكس فيها الاشياء كما ينبغي . والا يجوز لنا مع ذلك ان ننفخ في الحوادث روح الكمالات النفسية فتبقى مدفونة فيهـا الى ان ينشرها الزمان فتظهر ولو بعد الوف من السنين بظهر من الحياة سام نقي جميل ؟ « الا نستطيع ان نمزج القليل مما هو كائن في تصوراتنا بما هو كائن حادث في حياتنا ؟ الا نستطيع بكلمة اوضح ان نزرع فيما نقص وفسد من الاعمال بذور ما تعالى من الآمال لتنبت وتنور ولو في جيل بعيد بل آت من الاجيال ؟ »

هذه سؤالات يضحك منها كارليل الساخر بآمال النـاس المستخف بتشوقات الروح الكمالية . فهو لا يمنحنا شيئاً ولا يدعونا الى شيء ولا يؤملنـا بشيء . القوة الحيوية المادية التي تظهر في عظام الرجال وابطال التاريخ انما هذه في مذهبه كل شيء .

انا آكلك وآخر يأكلني . برافو ! والاخير من البشر فريسة من يكون ؟

ولا نظن ان المؤلف حاول ان يضع تعليماً جديداً في الثورة الافرنسية ، فالمؤرخون كما سبق القول ينصرون الثورة او يقاومونها ، اما كارليل فشاء ان ينصرها ويقاومها معاً . ولكن هي التخمـة وعرض بل مرض آخر وأدا فيه السويداء فاصيب بالفتور والشك واصبح لا معها ولا عليها . ولا نظنه ولو شاء يستطيع ان يؤسس حزباً ثالثاً غير متحيز لانه في كل ما كتبه عن الثورة لم يبد قط رأياً وضعياً ثابتاً يتخذه الحزب دستوراً لاعماله بل كان كريشة في مهب الريح طوع تأثراته واسير وساوسه .

هل الملكية لازمة نافعة للناس ؟ كلا ، انها مبنية على اساس فلسد . هل الجمهورية

اصلح منها ؟ كلا ، فهي قد نشأت من الظلمة وشيدت على جثث الملايين من العباد . علينا اذاً بالفوضى ، هذي هي نتيجة فلسفة غير المتحيزين من المؤرخين .

وقد علمنا التاريخ حقيقــة نود لو لم تكن وهي ان من اراد تأسيس حزب او وضع تعليم او انشاء ديانة ينبغي له ان ينظر الى وجه واحــد من المسألة فقط . اذا شاء ان يكون صريحاً في رأيه حازماً في قوله ثابتاً في عقيدته ، وبكلمة اخرى اذا شاء ان يكون مؤسساً لحزب او تعليم او دين ما عليه ان يكون متحزباً متعصباً مأخوذاً بدعوته مهما كانت . عليه ان يكون اعمى اصم في ما سوى ذلك . فالنفي والشك والتردد وعدم الاكتراث والفتور هذه لا تؤسس ممالك واحزاباً وديانات . . وهذه كلها من مزايا كارليل المشهورة . فقد احب الا يكون متعصباً لا مــع الثورة ولا لها فجاءنا بتعصب جديد خصوصي لا يضر بالحقيقة الجوهرية ولا ينفعها وقد يلذ لمن تتوق نفسه الى الجديد من الاشياء والآراء . وبما انه توسع في الصغائر والتوافه التي تتعلق في الثورة ولذ له سردها بل نظمها في نثره الفخيم فهو اشبه بنور تضعضعت اشعته المرسلة في كل الجهات ولم تتعدها الى ما وراءها من الجوهريات . وانــه لو صوب نور مصباحه الى غرض واحد في جهة واحدة لارانا في الزوايا شيئاً من الحقيقة الثابتة الدائمة . لو فعل ذلك لفاز بوضــع تعليم جديد او تأسيس حزب ثالث ينظر في شؤون الثورة نظر الغريب عن هذه الارض ويقيس منافعهــا واضرارها بغير مقاييس هذا العالم .

اما التنديد برجال الثورة والاستياء من النهضة بجملتها والنفور من هولهــا والفرار من نارهــا المحرقة المنيرة فهذه ذنوب لا تغتفر للمؤرخ اذا اقترفها . فالطفــل يولد في الالم والعــذاب والجمهوريات تنشأ في الثورات والحروب . الأم تتألم ساعــة الولادة وكذلك الامة . يموت الانسان والعذاب ملازمه ويولد الطفل والالم حليفه . وكذلك الحكومات بانواعها والامم . فلا تموت حكومة بسلام ولا تنشأ حكومة بسلام .

ولا بأس في الختام من قصة صغيرة اوردها فقد ذكرتني بها مطالعة هذا الكتاب الذي اود ان يطالعه كل من يحسن اللغة الانكليزية من قرائي . ورب قائل : ولمَ تدعونا الى مطالعته بعد ان تحققت فساده وبان ذلك الضرر الذي ينجم عــن اقتباس

الافكار التي جاءت فيه ؟ اريد ان يقرأه كل من كلف نفسه قراءة هــذا البحث ليستطيع ان يقابل بين الاثنين . لا اريد ان يرتأي احد رأيي دون ان يشغل قليلا فكره . لنعد الآن الى القصة .

اراد احد الملوك الاقدمين المولعين بالعلم لن يطلع على تاريخ الامم فطلب احـد وزرائه وامره بتأليف او جمع تاريخ عام فذهب الوزير وغاب سنين ثم عاد الى الملك ومعه عدد من الجمال محملة كتباً ، فوقف امام ملكه وقال : « ها هو التاريخ الذي تطلبه . » ولكن الملك وقد هالته احمال الجمال امر الوزير ان يختصر التاريخ فغاب هذا ثانية وعاد بعد سنين ومعه جمل واحد فقط يحمل التــاريخ المختصر . اما الملك فكان قد ضعف بصره ووهنت قواه فأمر الوزير ان يختصر ايضاً فغاب الوزير المرة الثالثة وعاد فرأى مليكه يتقلب على فراش الموت فلما رآه الملك قال : « آه ثم اواه ا سأموت قبل ان اطلع على تاريخ الامم . » فأجابه الوزير معزياً : « لا تقل ذلك يا مولاي فقد احضرت لك مجموعة صغيرة تنبئك عن كل اعمالهم باختصار غريب وها هي . » ثم اخرج الوزير من جيبه ورقة صغيرة وقرأ بصوت مرتفع : « هاك يا ملك الزمان تاريخ شعوب الارض مختصراً : فانهم تنفسوا فتنافسوا فمرقوا فاتوا . »

وتاريخ كارليل المقسوم الى عشرين كتاباً وكل كتاب مقسوم الى فصول لم يفدنا عن الثورة الفرنسية اكثر ممـا افاد الوزير مليكه عن تاريخ شعوب الارض ، فالكلمات الاربع التي تؤلف تاريخ الوزير تكفي لتأليف مثل هذا التاريخ دون ان يفوتنا منـه شيء كثير . ولو شاء كارليل ان يختصر لقال مع الوزير عن الافرنسيس : قد تنفسوا فتنافسوا فمرقوا فاتوا . »ولكن في الامة الافرنسية ما لا يموت ، في الامة الافرنسية من نتائج الثورة العظيمة ما تبقى آثاره بادية حيـة نامية في ترقي الامم والناس . —
(مقالة في انتقاد تاريخ الثورة الفرنسية تأليف توماس كارليل ، « الريحانيات » جزء ١) .



الشيخ رشيد رضا

١٨٦٥ - ١٩٣٥

جمع بين القديم والجديد في الفكر والعمل السياسي : ان التطورات الاجتماعية كانت تقضي بوقوع ما وقع من التصرف في شكل الحكومة الاسلامية ، ولم يكن يمكن في تلك الازمنة ان يوضع لها نظام يكفل ان تجري على سنة الراشدين ، ولا طريقة اوائل الامويين والعباسيين ، في الجمع بين عظمة الدنيا ومصالح الدين . ولما صار هذا ممكناً كان امر الدين قد ضعف ، وتلاه في جميع الشعوب الاسلامية ضعف حكوماتها ، وضعف حضارتها ، فلم تهتد الى مثل ما اهتدى اليه الافرنج من القضاء على استبداد ملوكهم شعباً بعد شعب ، فمنهم من قضى على الحكومة الملكية قضاء مبرماً ، ومنهم من قيد سلطة الملوك فلم يدع لهم من الملك الا بعض المظاهر الفخمة التي يستفاد منها في بعض الاحوال ، دون ان يكون لهم من الامر والنهي في الحكومة ادنى استبداد .

ذلك بان كل من يعطى تصرفاً في امر يجب ان يكون مسؤولا عن سيرته فيه ، والتقاليد المتبعة في الملك ان الملك فوق الرعية فلا يتطاولون الى مقامه الاعلى ليسألوه عما فعل ، وهذا شيء ابطله الاسلام بجعله امامَ المسلمين كواحد منهم في جميع احكام الشريعة ، ونص على انه مسؤول عما يفعل بقوله (ص) : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالامام راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع في اهله وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها » الخ (متفق عليه من حديث ابن عمر) . وكان المسلمون يراجعون الخلفاء الراشدين ويردون عليهم اقوالهم وآراءهم فيرجعون الى الصواب اذا ظهر لهم انهم كانوا مخطئين ، حتى ان عمر بن الخطاب (رض) خطأته امرأة في مسألة فقال على المنبر : امرأة اصابت وأخطأ عمر — او — ورجل أخطأ ».

غفل المسلمون عن هذا فتركوا الخلافة لاهل العصبية يتصرفون فيها تصرف الملوك

الوارثـين الذين كانوا يزعمون ان الله فضلهم على سائر البشر لذواتهم ولبيوتهم واوجب طاعتهم والخضوع لهم في كل شيء ، فلم يوجد في اهل الحل والعقـد من الرؤساء من اهتدى الى وضع نظام شرعي للخلافـة بالمعنى الذي يسمى في هـذا العصر بالقانون الاساسي يقيدون به سلطة الخليفة بنصوص الشرع ، ومشاورتهم في الامر ، كما وضعوا الكتب الطوال للاحكام التي يجب العمل بها في السياسة والادارة والجبـاية والقضاء والحرب ، ولو وضعوا كتابا في ذلك معززاً بأدلة الكتاب والسنة وسيرة الراشدين ، ومنعوا فيه ولاية العهد للوارثين ، وقيدوا اختيار الخليفة بالشورى ، وبينوا ان السلطة للامة يقوم بها اهل الحل والعقد منها ، وجعلوا ذلك اصولاً متبعة ، لما وقعنا فيما وقعنا فيه .

فاما الراشدون رضي الله عنهم فقد كانوا واثقين بتحريهم للحق والعدل ويصرحون بسلطة الامة عليهم وهم واقفون في موقف الرسول (ص) من منبره كما قال ابو بكر : وليت عليكم ولست بخيركم ، فاذا استقمت فأعينوني ، واذا زغت فقوّموني . وكما قال عمر : من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقوّمه . وكما قال عثمان : امري لامركم تبع . وأقوال علي وأعماله بالشورى معروفة على اضطراب الامر وظهور الفتن في زمنه ، وموت كثير من كبراء اهل العلم وتفرق بعضهم ، ثم انهم لم يكونوا قد دخلوا في عهـد التصنيف ووضع النظم والقوانين ، ولا شعروا بشدة الحاجة الى ذلك لكثرة الصلاح وخضوع الامة لوازع الدين .

وما جاء عصر التأليف والتدوين الا وكانت الخلافة قد انقلبت الى طبيعة الملك بالبدعتين الكبريين اللتين ابتدعهما معاوية ، وهما جعل الامر تابعاً لقوة العصبية ، وجعل الخلافة تراثا ينتقل من المالك الى ولده او غيره من عصبته ، وشغل النـاس عن سوء هاتين البدعتين سكون الفتنة التي اثارها السبئيون والمجوس وافترصها الامويون ، ومـا تلاه من اجتماع الكلمة وحقن الدماء في الداخل ، والعود الى الفتوح ونشر هـداية الاسلام وسيادته في الخارج ، وذلك ان تأثير الفساد الذي يطرأ على الصلاح العظيم ، لا يظهر الا بتدرج بطيء .

هذا ، وان ما فات المسلمين في القرون الوسطى لا ينبغي ان يفوتهم في هـذا

العصر الذي عرف البشر فيه من سنن الله تعالى في الاجتماع البشري ومن فوائد النظام واحكامه ما لم يكونوا يعرفون .

وكان اجذر المسلمين بالسبق الى هذا رجال الدولة العثمانية ، ولا سيما الذين يقيمون في الاستانة والروملي من بلاد اوربة ، يشاهدون تطور شعوبها وترقيهم في العلوم والفنون والنظام ، ولكن دولتهم لم تكن دولة علوم وفنون ، لانه لم يكن لهم لغة علمية مدونة قابلة لذلك الا في اثناء القرن الماضي . ولم يكن يتعلم علوم الاسلام منهم الا قليل من المقلدين ، ولهذا جعلوا سلطة سلاطينهم شخصية مطلقة ، حتى بعد تحليتهم بلقب الخلافة ، فلما صاروا يدرسون تاريخ اوروبة وقوانينها ، وثوراتها على حكوماتها لازالة استبدادها ، ظنوا ان لا سبيل لتقييد استبدادهم ومنع ظلمهم الا بتقليد اوروبة في شكل حكوماتها ، الملكية المقيدة ، ثم رجعوا في هذا الزمن الجمهورية لانهم رأوا ان جعل السلطان مقدسا غير مسؤول كما قرروه في قانونهم الاساسي لم يف بالغرض . ولو درسوا الشريعة دراسة استقلالية كما يدرسون القوانين لوجدوا فيها مخرجا اوسع وافضل من القانون الاساسي السابق ، ومن الخلافة الروحية وحكومة الجمعية الوطنية الحاضرة ... — (من كتاب الخلافة او الامامة العظمى) .



مصطفى لطفي المنفلوطي[1]

١٨٧٦ - ١٩٢٤

الهلال أم عزاء : فارق مصر على اثر اعلان الدستور العثماني كثير من فضلاء السوريين ، بعد ما عمروا هذه البلاد بفضائلهم ومآثرهم وصيروها جنة زاخرة بالعلوم والآداب ، ولقنوا المصريين تلك الدروس العالية في الصحافة والتأليف والترجمة ، وبعدما كانوا فينا سفراء خير بين المدنية الغربية والمدنية الشرقية ، يأخذون من كمال

الأولى ليتمموا ما نقص من الاخرى ، وبعدما علموا المصري كيف ينشط للعمل وكيف يجد ويجتهد في سبيل العيش ، وكيف يثبت ويتجلد في معركة الحياة .

قضوا بيننا تلك البرهة من الزمان يحسنون الينـا فنسيء اليهم ، ويعطفون علينا فنسميهم تارة دخلاء واخرى ثقلاء ، كأننا كنا نحسب انهم قوم من شذاذ الآفاق او نفايات الامم ، جاؤوا الينـا يصادروننا في ارزاقنا ، ويتطفلون على موائدنا ، ولو انصفناهم لعرفناهم ، وعرفنا ان اكثرهم من بيوتات المجـد والشرف ، وانما ضاقت بهم حكومة الاستبداد ذرعاً ، وكذلك شأن كل حكومة مستبدة مع احرار النفوس وأباة الضيم ، فاحرجت صدرهم ، وضيقت عليهم مذاهبهم ، ففروا من الظلم تاركين وراءهم شرفاً ينعاهم ، ومجداً يبكي عليهم ، ونزلوا بيننا ضيوفاً كراماً ، واساتذة كباراً ، فما أحسنا ضيافتهم وشكرنا لهم نعمتهم .

وبعد فقد مضى ذلك الزمن بخيره وشره ، واصبحنا اليوم كلما ذكرناهم خفقت افئدتنا مخافة ان يلحق باقيهم بماضيهم ، فلا نعـلم أنشكر للدستور ان فرج عنهم كربتهم ، وامنهم على نفسهم ، وردهم الى أوطانهم ، أم ننقم منه انه كان سبباً في حرماننا منهم بعد أنسنا بهم ، واغتباطنا بحسن عشرتهم وجميل مودتهم ، ولا ندري هل نحن بين يدي هذا النظام العثماني الجديد في هناء أم في عزاء ؟

فيا ايها القوم المودعون ، والكرام الكاتبون :

أذكرونا مثـل ذكرانا لكم   رب ذكرى قربت مـن نزحا
واذكروا صباً اذا غنى بكم   شرب الدمع وعاف القدحا



جبران خليل جبران

١٨٨٣ - ١٩٣١

طلائع البعث الجديد: كتبت الفيكونتس « سيسيليا اف لوتنبرغ » رسالة الى جبران خليل جبران ، سنة ١٩١٠ ، وهي من النساء الشهيرات في عالم الادب الاوروبي ومن المستشرقين الذين يحبون سوريا والسوريين ، ولها كتابات جميلة عن الاراضي المقدسة وبلاد فارس ومصر وشبه جزيرة العرب ، فأجابها جبران بالرسالة التالية :

سيدتي الفيكونتس ،

جاء في كتابك الذي تكرمت بارساله اليّ :

« انا احب سوريا لانها جميلة ولجمالها خاصة معنوية تنبه في نفسي عواطف غريبة سحرية وتذكارات بعيدة لطيفة . واحب السوريين لانهم اذكياء وتعساء . لكنني اكره هذه الطبقة لانها تركت محاسن التمدن الشرقي القديم ومالت الى المكروه من المدنية الغربية الحديثة . فهي الآن بغير لون تتميز به عن طبقات البشر . »

هذه حقيقة جارحة يا سيدتي يسمعها المحافظون من الشرقيين فيحنون رقابهم متأسفين ويعيها العصريون بينهم فيبتسمون . وبين اوجاع ذلك الاسف وسخرية هذا الابتسام تقف سوريا الان موقف حائر ضائع في ملتقى السبل . اما انا فلا اتأسف جزعاً عندما ارى رقعة جديدة قذرة في ثوب سوريا القديم . ولا ابتسم فرحاً عندما اجد جسداً جديداً لروح عتيقة . انا انظر الى سوريا نظرة الابن الشفوق الى امه المريضة بعلّتين هائلتين ، علة التقليد وعلة التقاليد . التقاليد يا سيدتي تجعل المرء كالاعمى السائر في نور النهار . والتقليد يجعله كالبصير السائر في ظلمة الليل . وما الفرق بين الرجلين سوى ان نفس الاول « تحيط » بالظلام ونفس الثاني « محاطة » بالظلام .

ان المحافظين في سوريا هم رؤساء الاديان ووجهاء القبائل وشيوخ الاسر القديمة . فرؤساء الاديان يحافظون على التقاليد لا حباً بجمالها وبساطتها بل لانهم يجدون بالمحافظة عليها بقاء سلطتهم . اما وجهاء القبائل وشيوخ الاسر القديمة فهم كرصفائهم في كل بلاد

يميلون بالطبع الى تأييد نفوذهم بمصارعتهم كل روح جديدة تجيء سوريا من المغرب . ولا لوم عليهم لان الارواح الجديدة التي يرونها مرفرفة في فضاء بلادهم تستبيح حرمة الآداب الشرقية بمغالبتها الخرافات وتمزق نقاب « المجد » عن وجه سوريا بتمزيقها اثواب الغباوة عن جسدها .

اما العصريون الذين تخرجوا في مدارس الافرنج او الذين هاجروا الى العالم الجديد فاكثرهم كالثمار في حديقة العالم الادنى ذات منظر بهيج لكنها ملوثة بالدخان غير انهم اقل ضرراً من المحافظين لان تأثرهم اوهى ، وظلمهم اقصر ، ومطامعهم اقل . لكن سيدتي تعلم ان في سوريا طبقة ثالثة اوسع فكراً من المحافظين واكثر حكمة من العصريين المقلدين . وهؤلاء هم الذين نبذوا سلطة رؤساء الاديان حباً بجمال الدين نفسه . ونفروا من الانقياد الى ابناء الشرف الموروث احتراماً لشرف النفس . وابتعدوا عن تقليد عوائد الافرنج القبيحة توصلاً الى معارفهم وآدابهم المستحبة . ولا ادعو هذه الطبقة بالمعتدلة لانها لا تريد ان توفق بين فضائل عبيد التقاليد ومحاسن ابناء التقليد لعلمها بان الورد لا يجنى من القطرب والخمر لا يعصر من الاشواك . ولا ادعوها بالمتساهلة لانها لا ترفق بالمستسلمين الى خرافات الشرق ، ولا تشفق على المنغمسين برذائل الغرب لادراكها جهالة هؤلاء وانحطاط اولئك . بل هي طبقة مستقلة باخلاقها ومداركها ومزاياها شرقية باميالها واهوائها . تتكلم العربية في مجتمعاتها لانها تحترم اللغة العربية . وتتعمق في درس اللغتين الافرنسية والانكليزية لا حباً بالروايات السافلة والقصص القذرة التي تقذفها جوانب باريس ولندن ، بل شغفاً بآداب فرنسا العالية وعلوم انكلترا النبيلة . فهي لا تعرف شيئاً عن مؤلفي نوادر العشاق وحكايات المتهتكين في اوروبا . لكنها تعرف كل شيء عن شكسبير وغوت ودانتي وبلزاك . وهي لا تلتفت الى ما تذيعه الصحف عن غرائب التمدن الحديث التي اوجدها داروين وكنت ونيتشه ورنان .

هذه هي الطبقة التي تمتاز بها سوريا عن البلاد الشرقية وهؤلاء الرجال الذين احدثوا النهضة الادبية في مصر والشام . هؤلاء هم الذين اوجدوا في نفوس الشرقيين استعداداً لقبول الحكم النيابي .

ان الامم كالشجر تنبت وتنمو وتتعالى ثم تبلغ مبلغها فتعطي ثماراً جيدة ورديئة .

ثم تمر عليها السنون فتشيخ وتجف جذوعها وفروعها . ثم تمر بها العواصف فتنيخهـا الى الحضيض وتكفنها باوراق الخريف وثلوج الشتاء . وسوريا كرمة ، قد نمت قدماً امـام وجه الشمس واعطت عنبا لذيذاً تمجدت بطعمه الآلهة ، وخمراً سحريا شربت منـه الانسانية فسكرت ولم تصح بعد من نشوتها . واليوم بعد ان داست اقدام ابن السبيل جذوع تلك الكرمة واتلف اللصوص سياجها يمر عابر الطريق فيجدها قد اورقت ثانية واهتزت قضبانها مرتعشة بمرور نسمات الفجر . . . تلك معجزة لم يأت التاريخ بمثلها ، ولا يستعظمها سوى من عرف مآتي الاجيـال التي مرت بين ايام نبوخذ نصر وعهـد عبد الحميد !

وجوب الثورة : من يصبر على الضيم ولا يتمرد عـلى الظلم يكون حليف البطل على الحق وشريك السفاحين بقتل الابرياء .

■

كتاب محاكمة مدحت باشا

الحرية مفتاح كل شيء : وقـد يتعجب بعض الناس من احتياج رعايا الدولة العثمانية الى جلب كل شيء من الخارج ، مع وجود الاراضي المنبتة الواسعة في حوزة الدولة في قطعتي آسيا واوروبا . وطالما تذاكر العقلاء اكثر من مرة في هذه المسألة وقرروا ان السبب في ذلك هو سوء ادارة الحكومة ، فان الامن مسلوب في طول البلاد وعرضها والاراضي خالية من السكان . وقد القى الظلم جرانه في كل بقعة من البـلاد واذا اراد احد الزراع استثمار قطعة من الارض اثقلت الحكومة ظهره بالضرائب . وقد يقول بعض الناس ان خراب المزارع ناتج عن جهل الامة فنجيبه بان ابناء البلاد يهجرونها طلباً للحرية ، ويقصدون الاقطار النائية ويعملون اعمالا تدل على اجتهادهم ونشاطهم . وسيقول بعضهم : ان السلطان قد امر باعمار البـلاد فهو

بريء من كل ما يعزوه اليه اعداؤه وان الذنب كل الذنب على الوزراء . وهناك قسم ثالث يقول : ان الحكومة يجب عليها نشر الصنائع وتأسيس المعامل لافادة الشعب ، فنجيب هذا القسم بان الحكومات في اوروبا لا تنشئ المعامل ولكن الشعب يؤسس الشركات وينشئ المصانع اذا تمتع بانواع الحرية ووضع مجلس نوابه قوانين تخوله استعمال حقوقه الطبيعية واستخراج ثروة بلاده ، وهذا لا يتم الا اذا تأسست في البلاد حكومة عادلة يكون معها الانسان آمناً على ماله وتجارته وعمله .

ولمَ لا يشتغل سكان البلاد العثمانية بتأسيس المعامل وتأسيس الشركات مع وجود ارباب رؤوس الاموال من رعايا الحكومة المحلية ؟ ولاي سبب يتأخر رعايا الدولة العلية عن صناعة الاقمشة مع وجود القطن بكثرة في بلادنا وانخفاض اجرة العمال في البلاد عن اجرة مثلهم في اوروبا ؟ ولمَ لا يشتغلون باعمال المصنوعات الجلدية والكاغد (1) مع وجود ما يلزم لاحضارهما في بلادنا ؟ انهم لا يتأخرون عن صنع ذلك وحده فهم لا يعملون ايضاً اللبن والآجر والكبريت في هذه البلاد ولا يصنعون الطرابيش التي فوق رؤوسنا فلمَ نحتاج الى اوروبا في جلب هذه البضائع ؟ لا يشكّن احد ان كل هذه الاسباب ناتجة عن عدم وجود الحرية والقوانين في بلادنا .

ان عندنا قوانين ومحاكم ومجالس وليست عندنا قوة لاجبار المجالس والمحاكم على اتباع القوانين الموضوعة . فالمحاكم تظلم الناس نهاراً جهاراً وقد ثبت ان الشركات التي تتشكل في بلادنا لا يحميها احد فتذهب ارباحها ورؤوس اموالها ، والسبب الثاني هو ان البلاد محرومة من المعارف وليس الاهالي باحرار ليتعلموا ما تضطرهم اليه مرافق الحياة .

والسبب الثالث هو ان الدراهم لا توجد في بلادنا الا بفوائد فاحشة فليست عندنا بنوك تسهل للانسان الاقدام على اعمال نافعة فيستفيد ويفيد . وليست في البلاد قوانين تجبر البنوك والصيارف على الاعتدال في معاملاتهم ، فمع كل هذه الموانع لا يتسنى لاي فرد تشويق الاهالي وحثهم على الاعمال النافعة ومن اقدم على ذلك كان كمن

---

(1) القراطيس .

يحاول تسيير سفينة بلا ريح ولا بخار .

وقول بعضهم ان الحكومة لا تعمل الاعمال التي تعود علـى الاهالي بالفوائد مردود ، لان الحكومات تنشىء الطرق الحديدية والمرافىء وتجمع الاموال من الاهالي وتنشىء المعامل وتديرها على حساب الشعب ، وهي اعمال غير نافعة للامم كما اثبتت ذلك التجارب . وعليه فتكليف الحكومة باحداث المعامل وتسليمها للاهالي مردود من كل الوجوه ولا سبيل الى عزو ذلك الى تقصير الوزراء واهمال الحكومة .

والذي يجب على الحكومات ازاء الشعوب هو منحها الحرية التامة . — (عن كتاب « محاكمة مدحت باشا » تعريب يوسف كمال حتاته) .



محمد كرد علي

تحية باريز : سلام عليك مرضعة الحكمة ، وربيبة الرخـاء والنعمة ، وروح الانقلابات الاجتماعية والسياسية ، ومحيية المدنية الاصلية في الاقطار الغربية والشرقية ، ومعلمة العالم كيف يكون الخلاص من الظالمين ، والضرب على ايدي الرؤساء والنبلاء والمالكين ، انت هذبت طبائع البشر حتى غدوا يشعرون باللطف والذوق وفائدة العلم والعمل ، انت كنت في مقدمة العواصم التي انبعث منهـا تمجيد العقل بـل تأليهه ، فقضيت بالتقـدم له على كل شيء في الوجود وبالغت في اكرام رجال العقول من ابنائك ...

سلام عليك يا واضعة حقوق الانسان ، وملقحة الاذهان بالتناغي بحب الاوطان ، والداعية الى ثل عروش الجبـارين والمخربين ، أنت لم ترهبك تقاليد ابطـال القرون الوسطى ، ولا بطش الباطشين من المحافظين عليها ، ولم تعلقي مسائلك على القضـاء والقدر ، بل اخذت بالاسباب والمسببـات ، فقتلت من اراد قتلك ، ووضعت من لم يهمه رفعك ، وكنت للناهضين من الناس خير مثال ...

سلام عليك يا ملقنة الخلق معنى الاخاء والحرية والمساواة ، ليتعاشروا بالمعروف ويقوم نظام اجتماعهم على تبادل المنافع حتى لا يبقى تمييز في الحقوق والواجبات ، بين المختلفين في الموالد والديانات ، وقطعت التفاضل الا بالاعمال الصالحة والاحلام الراجحة ...

السلام على هذه العاصمة التي احسنت الى الشرق فيما مضى فعلمته حتى استمد منها النور ، فان قلنا معاشر الشرقيين ولا سيما سكان الشرق الاقرب اننا نأخذ عن المدنية الغربية فانما نعني المدنية الفرنسوية وبعبارة اصح المدنية التي تنبعث اشعتها من باريز ومن طريقها وبلغتها واسلوبها تيسر لنا ان نستطلع طلع سائر مدنيات الارض ...

سلام عليك انت العاصمة التي تركت القصور الفخمة التي عمرت بدماء الامة مباحة للناس يدخلونها وكانت بؤرة المظالم والمغارم ، ومنبعث الشهوات والاهواء ، ولطالما جأرت جوانبها بالدعاء الى السماء من حيف الكبراء ، ايام كان يوقع احد ملوكها وهو على سرير نومه توقيعاً واحداً يترك من الغد مئة الف اسرة في هذه البلاد تبيت جائعة عريانة ليعمّر بما يجمع قصراً له ، او يدفعه لمحبوبته صبرة واحدة ، فلما اضناك الظلم والعنت قمت تجعلين من تلك القصور الناشئة متاحف عامة ، ومن دور الظلم والظلمات مجالس عدل وعلم ونور ...

سلام عليك يا بلد كونت وروسو وفولتير وديدرو وسيمون ومونتسكيو وهوغو وباسكال ورنان ومئات اضرابهم ممن بذلوا حياتهم في حسن خدمتك ، فلم تنس عوارفهم عليك بعد مماتهم ...

انت ان خجلت من ذكرى الحروب الصليبية ، وديوان التفتيش الديني ، ومذبحة القديس برتلماوس ... وغير ذلك من الاعمال البربرية في عصور الظلمة ، فان سكانك يفاخرون وحق لهم الفخر بانهم احفاد ثورة سنة ١٧٨٩ قاموا من الاعمال المشكورة في عصور النور بما ينسي الماضي الا اقله ، ان الحسنات يُذهبن السيئات ! — (عن كتاب « غرائب الغرب ») .

■

يوسف جرجس زخم

كل شيء يتوقف على الشعب : الاصلاح جاء ويجيء وسيجيء من طريقين ، اما من طريق الحكومة واما من طريق الشعب . ومثال الاول حكومة اليابان ومثال الثاني الجمهورية الافرنسية والجمهورية الاميركية . والانقلاب العثماني لم يأت من طريق الحكومة ولا من طريق الشعب من حيث مجموعه بل من طريق الجيش . اما والحكومة العثمانية منصرفة قواها جملة الى حل مسائلها ومشاكلها وقد بدا حتى الان انها لا تكترث او لا تريد ان تكترث بالعربية حييت ام ماتت فقد تحتم على ابنائها ان يعلوا منارهـا ويحموا ذمارها ويحملوا لواءها وهذا لا يكون فقط بالاحتفاظ ببقايا تلك الكتب العتيقة الباحثة في مذاهب سيبويه ونفطويه واضرابهما مثلا بل يكون في نشر الصحافة الحرة بكثرة في المدائن وفي القصبات وفي المديريات وفي الضواحي والنواحي . فالصحافة الحرة الصادقة بلا مدافع اكبر كليـة للدولة واكبر مدرسة للامة واكبر جامعة للثورات الادبية المحطمة قيود الجهل والظلم وللنهضات الجالبة رفعة القدر ووفرة الفخر . ويقاس رقي الامم برقي صحافتها ، فكل أمة لها صحافة راقية لها منزلة راقية في السياسة والاجتماع والآداب والعمران والعرفان .

لم تكن الصحافة موجودة بعرفي في دور نيرون القرن العشرين . فتلك التي كان العبيد المستعبدون يدعونها صحافة لم يكن اكثرها الا وريقات او نشرات لنشر آيات التقديس والتدليس والتدنيس بل لاذاعة المين كل المين والتمويه كل التمويه والتجهيل كل التجهيل والتضليل كل التضليل وكان الاستذلال والاستعباد يقضيان بدفن الحقائق واستحياء المخارق - اما وقد عادت الى الشعب بعض حقوقـه المعطاة له من الله فمن الفضاضة على الصحافة ان تستر العيوب والعورات وكل صحافة لا تدل الدولة والامة على حسناتها وسيئاتها بكل ما في كلمة الحرية من معنى الحرية لا تدعى صحافة ولا يرجى لامتها وحكومتها صلاح واصلاح .

نعم ان مضمار الانتقاد اوسع في اميركا منه في الدولة العلية بداعي تقييد الصحافة

العثمانية واطلاق حرية اميركا ، غير ان الذنب على الشعب . فشعب اميركا مطالب وناهض وقائم والشعب العثماني قاعد وجامد ونائم . النواب هم الذين قيدوا حرية الصحافة وهم ضيقوا الخناق عليها والشعب هو الذي انتخب اولئك النواب وارسلهم الى عاصمته وهو الذي يدفع مرتباتهم ونفقاتهم ، فالشعب هو سيد النواب والنواب خدامه ولم اسمع ولم يسمع غيري ان ٢٥٠ خادماً يستطيعون ان يستبدوا بثلاثين مليون « سيد » . فيا ايها الشعب مر نوابك بتعديل قانون صحافتك واحملهم على تلبية امرك فان لبوه كان ما تريد والا فاقلب لهم ظهر المجن في الانتخاب المقبل وانتخب الاصلح فالاصلح حتى تبلغ ضالتك وتعمل عمل البلاد الشعبية . فهل من سامع او مجيب لهذا الصوت الضعيف ؟ — (عن مجلة « المقتبس » ، سنتها الخامسة) .



الدكتور ايوب ثابت

الثورة : اسبابها ، استنارة الشعب شرط نجاحها : اذا كان الملك مطلقاً لا قيد يقيده ولا نظام فوق ارادته فالغالب انه يستأثر في الرأي وهو اكثر ما يكون فاسداً ويستبد بالقوة وهي قلما تصرف في سبيل الحق والعدل . ويحوم حواليه جماعة من المتملقين والمتزلفين فيزوقون له انه ظل الله على الارض وان الناس واعراضهم واموالهم ملك له يتصرف بهم كيف شاء فيزداد بذلك عتواً واستبداداً . ولما كانت الرعية تخشى بطشه وتخاف بأسه لا تجرؤ على انتقاد اعماله وتقويم اعوجاجه فقد ساءت احكامه وزادت مظالمه . واذا هي تململت من ثقل الوطأة اتهمها بالتمرد وشق عصا الطاعة وامسى قلق الافكار مضطرب البال اذا هب نسيم السحر خاله عاصفة او مال خيال ظنه يداً قاتلة . ويقويه على هذه الهواجس والشكوك المقربون اليه لما يبيحه لهم استحكام التباغض والتنافر بينه وبين الرعية من استنزاف الاموال واستدرار المغانم فيشدد في الضغط على الامة ويزيد في التنكيل باحرارها . فطالما هي هائمة في ظلمات

الجهل فهو في أمن من نهوضها وفكاك قيودها . انما لا تعتم الا ريثما تستنير ويشملها العلم فتشعر بثقل الوطأة وسوء الحالة فتهب مستهلكة الى المطالبة بحقوقها المهضومة .

فاذا كان الملك حكيماً يرى ضعف جانبه بازاء الشعب الثائر فيسترسل الى ارادته وينيله مبتغاه . غير ان ذلك نادر قليل الحدوث ، فان التنازل عن السلطة المطلقة بل عن اية سلطة مهما كان نوعها ليس هو بالامر السهل . والغالب ان الملك يأبى الاستسلام لمطالب الامة ويأنف من تقييد سلطته المطلقة او ربما اظهر الرضى واكمن الغدر[1] حتى اذا ما امكنته الفرص من دعاة الاصلاح اوقع بهم وبدد شملهم واعاد ملكه الى ما كان عليه من سوء الحال بل ربما شدد في الضغط على الامة وزادها عسفاً وظلماً بغية استبقائها في ظلمات الجهل وديجور الفقر وهماً منه بان ذلك يمنعها من النهوض والعود الى المطالبة بحقوقها . وانما الويل لمثل هذا الملك فايامه مظلمة واحلامه مزعجة وبلاده تنتابها القلاقل والفتن . وما كان ضغطه على الامة الا ليزيدها ميلاً الى فك القيود وشوقاً الى الانتقام . وهناك البكاء وهرق الدماء يوم يتفجر بركان الثورة الخامد ويندفع الشعب الناقم فلا وعود تحيله ولا وعيد يهوله ولك في شارل الاول ملك انكلترا ولويس السادس عشر ملك فرنسا عبرة وذكرى .

وما عليك الا ان تعود الى تواريخ الامم فترى ان ما اشرنا اليه من دواعي الثورة هو ما ادى اليها في عهد هذين الملكين وغيرهما من الملوك السالفين . بل هذه ثورتنا وثورتا جارتينا ايران وروسيا فاذا بحثت في اسبابها تبينت انها هي على ما قدمناه .

ومما يجمل ذكره وان خرج عن مدار بحثنا هذا هو ان اكثر الثورات يتبع بعضها بعضا وتتفاوت ازمان وقوعها بتفاوت الامم النازعة اليها في الاستنارة والعلم . ومثال ذلك حدوث الثورة الافرنسية على اثر الثورة الاميركية والامتان يومئذ في منزلة واحدة من الرقي ثم حدوث ثورات سائر الشعوب الاوروبية المتقاربة في العرفان من مثل

---

١) هنا ، في الاصل ، تعليق لكاتب المقالة يذكر فيه شواهد تاريخية على رضى الملوك بتراجعهم ، وقتياً ، امام شعوبهم ريثما يثبون وثبة يحاولون فيها تجريد تلك الشعوب من انتصاراتها .

بروسيا والنمسا وبلجيكا على اثر الثورة الافرنسية الثانية ثم ثورات الروس والفرس والعثمانيين وهم على درجات متشابهة في العرفان وقد جاءت كل واحدة تلو الاخرى .

ولقد ادرك الملوك المطلقون ذلك فكانوا يتألبون على اخماد جذوة الثورة اين شبت خوف تطاير شرارها الى ممالكهم من تألب انكلترا والنمسا وروسيا وبروسيا على اخماد الثورة الافرنسية الاولى امّ الثورات ونور الحرية . ولا اخالنا نحن العثمانيين قد نسينا نظر الروسية الينا شذراً يوم نلنا الدستور للمرة الاولى ولم يكن قد تشكل فيها بعد مجلس الدوما .

قد لا يدرك الشعب الذي طال عليه عهد الاستعباد ان الانسان يولد حرا وان استعباده انما هو امر اغتصابي حتى لقد يتوهم ان حالة العبودية هي حالة طبيعية له لا يستغربها ولا يستنكف منها بل لو قام من طالب له بحقوقه المغتصبة رأيناه واقفا الى جانب السلطة حائلا بينها وبين حقوقه . ولا يلبث من يشك بصحة هذا القول الا ريثما يرجع الى تاريخ ثورات الامم فتبين له مكانة هذه الدعوى من الحقيقة . حتى انه لا وجوب لمراجعة التاريخ فهذه الثورة الروسية وعهدها غير بعيد بل لا يزال شرارها متطايراً هي شاهد ناطق بذلك . ولا عبرة بالقول ان الجيش وليس الشعب هو الحائل بين الامة والحكم الدستوري ، فانما الجيش من الشعب فلو كان الشعب متنوراً عالماً بحقوقه لكان الجيش المستمد منه قد عرفها ايضاً .

ومما يدلك على مكانة وقوف الشعب على حقوقه الطبيعية من الخطورة في الثورات السياسية ان فلاسفة الافرنسيس واكابر كتّابهم من مثل فولتر وجان جاك روسو ومنتسكيو توخوا تعليم الامة ذلك قبل اعلان الثورة الافرنسية بمدة بعيدة فما ثارت الا وهي عالمة بما تطالب به السلطة وملمة بالطرق الموصلة اليه . وكان من بادىء اعمال دعاة الثورة لاول التئام الجمعية الوطنية انهم نشروا على رؤوس الاشهاد منشوراً عنوانه « اعلان حقوق الانسان » .

وانك لترى في رجوعك الى تاريخ الثورة الاميركية انه قد كان اعلانها على اثر منشور هو بنفس العنوان المذكور وبما يقارب مضمونه معنى . بل لو بحث باحث بحثاً دقيقا في نظامات الحكومات الشوروية وقوانينها الاساسية لاتضح له انها مبنية على

حقوق الانسان الطبيعية .

ولم يتعمد رجال الثورة من كلتا الامتين في اعلان حقوق الانسان مجرد تحريض الشعب ودفعه الى الهياج والفتنة بل رموا الى امر مهم هو تعليم الفرد من الناس ما له من الحقوق على الامة [٢] وما للامة من الحقوق عـلى السلطة ومنزلة السلطة من الامة حتى اذا ما عرف ذلك نهض مع دعاة الثورة وكاتفهم في كبح جماح السلطة واكراهها على ردها اليه حقوقه المغتصبة وحصرها ضمن دائرة لا تتعداها .

اذا ظل السواد الاعظم من الشعب جاهلا لحقوقه الطبيعية ولمنزلة السلطة من الامة وانحصر العلم في ذلك بفئة معدودة فقامت تطالب الملك المطلق بحقوق الشعب فالارجح انه لا يتيسر لها ذلك وكان مصيرها الويل والفشل . حتى انها لو تمكنت من بغيتها وقيدت الملك بالشورى فليس ثمة ما يضمن للامة بقاء الحالة الناشئة بل الاقرب ان الملك يستعيد الحالة الماضية اما باغراء زعماء الثورة وهم قليلون واما باستمالة الشعب الجاهل لحقوقه والذي يخيل له كما اسلفنا ان العبودية حالة طبيعية وان السلطة هابطة على الملك من قوة وراء الطبيعة لا يسوغ للبشر مساسها .

والك في تواريخ الامم الحاضرة ما ينطبق على مثل ما نحن في صدده . بل لا اسألك العود الى التاريخ لترى ذلك فان الك في جارتنا الامة الفارسية بل الامة العثمانية نفسها لاول عهد جلالة السلطان الخالي مثالاً قريباً . فكل من الملكين ، قياماً بطلب فئة معدودة من الشعب ، انال امته الدستور انما ما عتم ان تمكن من ملكه فاسترد ما اناله واعاد الحكم الاستبدادي المطلق . فكان من وراء ذلك ان الامــة العثمانية بقيت نحوا من ثلاث وثلاثين سنة في حالة من العبودية لم يسطر التاريخ الحديث لها مثيلا . — (عن كراس « عبرة وذكرى » وفيه مجموعة مقالات للدكتور ثابت كتبهـا لمناسبة اعلان الدستور العثماني ١٩٠٩) .

---

(٢) لافايت في مذكراته — تعليق لكاتب المقالة

عبد الرحمن عزام [1]

النبي محمد اول وصوله الى المدينة يضع أسس دولة ديموقراطية : شرع في الحال في بناء المسجد ، وما هـذا المسجد ؟ وفيه كانت الآساس الـتي وضعها لصلاح الدين والدنيا ، واصبح معبداً و « برلماناً » ومقراً للسلطة التنفيذية ، ومركزاً للقيادة العليا ، منه تصدر الدعوة الى الله ، والشرائع خلقه ، وجميع الخطط والتدابير الادارية والسياسية والعسكرية ، وفيه تستقبل الوفود ، ويلقن العلم .

كان المسجد على سذاجة بنائه واساسه ، وعلى قـلة الأوضاع فيه ، يتناسب كل التناسب مع تياسر محمد واصحابه ، وانصرافهم للجوهري من الامر . ويذكر الناس في كل حين بهذه الحقيقة ، وهي ان الانقلابات العظيمة ، وأن النجاح فيها أثر لهذه السهولة التي تعنى بالروح والخلق ، لا بالافتنان في الاوضاع والاسراف في المظاهر .

ومن هـذا المسجد نمت تدريجياً الادارة الاسلامية الى ان شملت الجزيرة كلها ، ودانت الروم والفرس لها ، وفي هذا المسجد اتخذت تدابير قد تكون مما استلزمتـه أسباب مؤقتة ، واحوال طارئة ، ولكنها بما انطوت عليه من الحكمة السامية ، وما صدرت عنه من الادراك ، كانت بذوراً لاوسع الادارات الامبراطورية ، وقواعـد لاكبر اصلاح بشري . من هـذه التدابير ظهرت يثرب وطناً لأهلها ، لا مسكناً لاقوام متنازعين فيها ، وطناً آمناً للمسلمين والمشركين واليهود ، وللنازحين اليها من أية قبيلة كانوا ، ولاي عنصر انتسبوا ، عرباً أو عجماً .

فظهر لاول مرة معنى الوطن ، تتساوى الناس فيه تحت نظام يعطي حقوقاً ويلزم تكاليف ، من غير نظر الى الاحساب والانساب والعصبيات والعقائد .

انظروا اليه صلى الله عليه وسلم يضع دستور الوطن الجديد في صحيفة بين أهل الاديان والاجناس ، تجعلهم جميعاً وطنيين مكلفين الدفاع عن الوطن أي امام اعتداء

---

1) من كتاب مصر المعاصرين .

عليه ، متكافلين في الحرب والسلم ، لا ينصرون غيرهم ، ولا يمالئونه على اهل الوطن ، ولو كانوا آباءهم أو ابناءهم ، وتكفل حرية العقيدة لاهل الوطن ، وحرمة أموالهم ودمائهم وأعراضهم .

تبتدىء الصحيفة بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ، ولحق بهم ، وجاهد معهم ، انهم أمة واحدة من دون الناس .

ثم تقرر ان من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ، ولا متناصر عليهم ، وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ومواليهم وانفسهم ، ثم تقرر لبقية اليهود المعاهدين ما ليهود بني عوف . ثم تذكر الصحيفة أن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب اهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم ، الى ان تقول : وإن يثرب حرام جوفها لاهل هذه الصحيفة ، وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وانه لا تجار حرمة الا باذن اهلها ، وان ما كان بين اهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يخاف فساده ، فان مردّه الى الله عز وجل والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بهذه الصحيفة انقادت الى النبي سلطة يثرب الزمنية دون قصد ، فقد اقتضت العهود ان تنص على حكم في حالة الخلاف ، ولم يكن الا هو ليحكم ، ومنذ تلك الساعة وضع الحجر الاساسي لدولة الاسلام .

فقضى رسول الله على الفوضى ، والاباحة للقوة ، وجعل لاول مرة في البلاد العربية حق الامة فوق حق القبيلة ، وجعل مرجع إقامة الحدود الى الله أي الى شريعته ، والى رسوله منفذ هذه الشريعة ، وكانت الى ذلك الحين تتولاها القوة الغاشمة وحدها ، قوة العصبية لا تفرق بين المذنب والبريء ، وبذلك غرس لاجىء الى يثرب بذرة الحضارة في اشد الاقوام نزوعاً الى الاختلال والهمجية ، ووضع نواة الامبراطورية التي أزهرت قروناً طويلة ، ولا تزال فخر المشرق ، وحديث المغرب ...

(عن مجلة « الراوي الجديد » ، آب ١٩٤٣) .

محمد جميل بيهم

الثورة الفرنسية والمرأة : بينما كان الفريق الاكبر من نساء اشراف فرنسا مسترسلا بالملذات في اواخر القرن الثامن عشر، كان فريق آخر من نسوة الشعب يتداول بما صارت اليه حالة المرأة، ويتحد على المطالبة بمساواة الجنسين . بيد ان الروح العامة كانت غير ملائمة لهذا الطلب، لان معظم الامة وفي مقدمتها العلماء الذين يسمون بالجماعين « Encyclopédistes » كانت تنكر عليهن المساواة . ولا جرم فقد كانت افكار جان جاك روسو « ١٧١٢ — ١٧٧٨ » هي السائدة على الرأي العام . ومعلوم كم كانت تعتبر المرأة قاصرة ومخلوقة لاجل لذة الرجل وانشراح قلبه

وكانت الآمال في تحرير المرأة معقودة على الثورة الافرنسية « ١٧٨٩ » ولا سيما لما بذله الجنس اللطيف على مذبحها من التضحيات، من مثل مدام رولاند ولوسيل سمولن . ولكن حكومة تلك الثورة انكرت الجميل وايدت استعباد النساء . غير انها مع ذلك افادت القضية النسائية بطريق العرض بما لفتت اليها الانظار حينما اعلنت المساواة العامة، فانتصر للنساء بعضهم مثل سياس [١] وكندرست [٢] وكتب كثيرون — رجالا ونساء — مؤيدين حقوق المرأه واشتهرت من بينهم في اثناء ذلك الآنسة اولامب دي كوج « ١٧٤٨ — ١٧٩٣ » وهي تعتبر في فرنسة بمثابة ماري ولستنكرفت في بريطانيا العظمى، اول حاملة لواء القضية النسائية .

اما حكومة الثورة فهي في الواقع لم ترد ان تقف محايدة ازاء القضية النسائية، وانما انكرت على اربابها اجتماعاتهم وضجتهم، واستكرهت تطرف بعض النساء، فاصدرت امراً في سنة ١٧٩٥ تحظر فيه على النساء الاشتغال بالسياسة والاشتراك بالاجتماعات، وشرعت تطاردهن حتى لم يعد يسمع لقضيتهن همس . ولما تبوأ العرش نابليون الاول قضى على كل امل نسائي وبنفوذه على متشرعي فرنسة جعل الاسرة في

---

١) الراهب Sieyés .

٢) Condorcet.

القانون بمثابة الفرقة العسكرية ، قائدها الاب ، وعلى المرأة والاولاد الطاعة العمياء ، طاعة الاجناد .

ولما استعاد آل البوربون العرش « ١٨١٤ – ١٨٣٠ » شرع بعض المفكرين يحركون من جديد بكتاباتهم اسلاك القضية النسائية ، فتهتز معها افئدة جمهور من النساء على وجه خاص . وقد انشأ بعضهن صحيفتين لهذه الغاية ، وهما جريدة « المرأة الحرة » و « الشرارة » . ولكنهما لم تكونا من ذوات الاعمار الطويلة لان الرأي العام كان لا يزال غير مستعد لقبول فكرتها .

وقد عقد النسائيون الآمال على الجمهورية الثانية التي اعلنت سنة ١٨٤٨ ، واستبشروا حينما استقبلت ممثلاتهم في قصر الحكومة ، ووعدتهن خيراً ، ولكن اجل هذه الجمهورية كان قصيراً ، فعادت الملكية سنة ١٨٥٢ ، وعادت معها الصرامة ضد المرأة ، واصدرت امراً بنفي مدبرات الحركة النسائية .

وفي اثناء ذلك صار لبعض نساء فرنسا ضلع بالعلوم والمعارف ، فشرعن يطالبن بحقوق المرأة بالحجة العلمية والبرهان ، فالف فريق منهن الكتب : مثل مدام آدم [٣] وجني داريكورت . وكتب فريق آخر منهن بالصحف مثل : مدام اندره له يو ، وغيرها . وانشأت حنة درون جريدة سمتها رأي النساء ، وفضلاً عن ذلك استملن كثيراً من الرجال واشهرهم ليون ريشر فنهضوا بقوة للانتصار لهن .

واستمر انصار المرأة ، ولا سيما في اثناء شدة وطأة الملكية عليهم ، يذكرون مواعيد الجمهورية فيحنون الى عهدها . فعقدت بينهم وبين الحزب الجمهوري رابطة المصلحة ، وشرعوا بمظاهرة هذا الحزب . ولما اعلنت الجمهورية الثالثة ١٨٧٠ الحاكمة الآن اعترفت لهم بخدماتهم ، وهي وان لم تحقق لهم امانيهم الا انها اطلقت لهم حرية العمل ، فدخلت القضية النسائية منذ ذلك في دور جديد . – (عن كتاب « المرأة في التمدن الحديث ») .

---

٣) جوليت آدم اشتهرت في البلاد العربية لصداقتها مع مصطفى كامل الزعيم الوطني المصري .

الشيخ مصطفى الغلاييني

الحرية الصحيحة هي التي ينالها الشعب بقوته : نالت الامة العثمانية حريتها واكثر البلاد غير مستعد لذلك ، فان لم نبذل الجهد لترقية الاقوام الذين لم يفهموا — الى الآن — معنى الحرية والاستقلال الشخصي ، فلا تلبث الحكومة ان تتسفل وتتدنى الى اخلاق هذه الاقوام ثم لا يمضي زمن حتى ترجع الحالة الى شر مما كانت عليه . ذلك لان الحرية الصحيحة هي التي ينالها الشعب بقوته دون مساعدة خارجة عنه ، كالجيش مثلاً او كأن تمنح الحكومة الحرية للشعب من قبل نفسها دون مجبر .

اما الحرية التي تنال بواسطة الجيش فانها تنتزع بواسطته كما كاد يحصل في ثورة استانة الاخيرة الشهيرة بفتنة ٣١ من مارس و ١٣ من نيسان ، او تنتزع متى سكنت ثائرة ذلك الجيش وذهب رجاله الى اهليهم .

وكذا الحرية التي تمنحها الحكومة دون ثورة من الشعب ، فانها تنتزع متى مات او سقط السلطان المانح الحرية كما حصل في الحرية التي منحها سلطان العجم لشعبه ، فان خلفه انتزعها قسراً واهرق دماء كثيرة في سبيل ذلك ، فلو كانت الامة هي التي طالبت بحقوقها واصرت على نيل حريتها فلا يمكن ان تنتزع منها حريتها ما دام فيها رمق من الحياة .

فالثورة الحقيقية ليست ثورة الجيش لطلب الحرية ولا ثورة خارجة لطلب حرية أمة ، وانما هي ثورة الأمة ، وافضل معاني الثورة هي الثورة الادبية او الاخلاقية ، لانها هي كل شيء ، وكل معنى من معاني الثورة هو تابع لها على الدوام ...

القوانين يجب ان توافق البيئة والحالة الاجتماعية (٢) ، هو اللغة : وان من

---

١) معاصر من وجوه رجال الدين والادب في بيروت . كل هذه النصوص المختارة له كتبت في مجلته النبراس ، لمناسبة الانقلاب العثماني .

٢) موافق لرأي مونتسكيو .

الخطأ البيّن ان تقاس الامة العثمانية الحديثة العهد بالحرية والدستور بامـة الفرنسيس او السكسون فتحكم بقانون احداهما ، لان الفرق الشاسع بيننا وبينهم يوجب علينا ان نسن لانفسنا قوانين توافق بيئتنا وحالتنا الاجتماعية .

يجب ان يكون القـانون الذي تحكم به استـانة وسلانيك وبيروت ودمشق وغيرها غير القانون الذي تحكم به اليمن والاناضول وقسم عظيم من بلاد الارناؤوط ، فان البلاد الاولى وما هي على شاكلتها تحتـاج الى حكم أرقى من الحكم الذي تحتاج اليه البلاد الاخرى ، وهذا مشاهد حتى يكاد يُلمس باليد ، وقد وضح وضوح الشمس بعد اعلان القانون الاساسي ، فقد كان بون شاسع بين هـاتين البلادين من حيث تأثير روح الحرية والدستور في نفوس اهليهما وعدم تأثيرها ...

... واما ما يختص بالمعارف فالنظر فيه لا يقلُّ عن النظر فيما سبق ، فان المعارف روح البلاد وهي السبب الوحيد لايقاظها وانهاضها ، فيجب الاهتمام بنظامها اهتماماً عظيماً بحيث يكون عاماً شاملاً لحاجات كل قطر من الاقطار العثمانية على اختلاف لغاتهـا ومذاهبها ، فان كانت الانظمة المتعلقـة بالحقوق والجزاء والمعاملات تصلح مثلاً لبعض البلاد العربية والتركية معاً فان النظام المتعلق بالمعارف لا يصلح منه ما يصح العمل به في استانه وسلانيك لبيروت وحلب وبغداد وغيرها من الولايات العربية لاختلاف اللغة وهذا من جملة شكاوى ابناء العرب التي ملأت الخافقين ، فان اللغة التركيـة كانت تمحو اثر اللغة العربية ، فانها — فضلاً عن كونهـا لسان الدولة الرسمي — لسان العلم في مدارس الحكومة عامة في البـلاد التركية والعربيـة على السواء ، وكان الأولى بالحكومة ان تجعل لسان التدريس في كل بلاد بلغة اهلها ... فانها ان فعلت ذلك تكون قد سعت لترقية البلاد ترقية محسوسة ، لان التلاميذ لا يدركون معنى العلم ان درسوه بغير لغتهم إلا بعد اتقان اللغة التي يدرسونه بها ، ولا يتأتى لهم اتقانهـا إلا بعد مدة ليست بالقصيرة ، وفي اثناء تلقي العلم يكون التلميـذ مشغولا بتفهم العلم وتفهم الالفاظ التي تحوي ذلك العلم . فيكون علمه بسبب ذلك ناقصاً مقتضبـاً ، فلو درس التلميذ العلم بلغة ابيه وامه فـلا يُشغل الا بشيء واحد وهو تفهم معنى العلم الذي يتلقاه ، وهذا سرٌ عظيم يجب ان تتنبه اليه نظارة المعارف ، وان كان يسيء اكثر

الشبان الاتراك المغرورين الذين يسعون جهدهم لتتريك عناصر الدولة ...

الثورة وخواطر في الانقلابات: الثورة نهوض يُقصد منه تغيير في السياسة او الاجتماع او الاخلاق من قبيح الى حسن او حسن الى قبيح ، وقد يعبر عن الغاية الاولى بالانقلاب وعن الثانية بالهيجان (٣) . وقد يُخص القيام لطلب الحق بالانقلاب ، والنهوض لمناصرة الباطل بالثورة ، والثورة للحق من مطالب الامم الراقية . غير ان النهوض لتغيير نظام السياسة لا يفلح انصاره ولا تثبت دعائم مطالبهم ان لم يسعوا قبل ذلك لتغيير نظام الاجتماع والاخلاق حتى يكون للامة استعداد لتلقي ما يراد ايجاده . وحتى لا تثور ضد ما يخالف الانظمة القديمة والعادات السائرة فينتج حب التغيير عكس المقصود . ولو فرضنا انها لم تثر ولم تعارض في جديد النظام وحديث التغيير ، فانها لا يمكن ان تستفيد من الاصلاح شيئاً ، بل ربما يكون الاصلاح شراً عليها من عاداتها القديمة ولو كانت ضارة ، وهذا قول ربما لا يسلم به كثير من الناس .

وانه بقدر استعداد الامة للحكم الدستوري والاصلاح تنتفع من ذلك . فان نالت الدستور وابيح لها الاصلاح غير انها لم تستنتج شيئا فاعلم انها أمة غير صالحة لهذه النعمة ، لانها لم تقدرها قدرها ولم تهيء لها الاسباب اللازمة الكافلة ببقائها والمستخرجة لفوائدها . وليس الذنب على القوانين ولا على القائمين بتنفيذها . وانما الذنب على الامة التي تُحكم بتلك القوانين ، لانها تدع منفذيها يفسرون موادها حسب مشتهياتهم دون معارضة وما مصادمة .

.... ان الامة التي هي على هذه الشاكلة ان ثار في متنوريها وعظماء رجالها ثائرة الاصلاح السياسي قبل ان يتقدمه الاصلاح الاخلاقي وثورة الفلاسفة واهل التربية يكون ويلًا عليها كما اسلفنا ، فان تمّ نوال الاصلاح السياسي قبل الاخلاقي وانتشرت في الامة القوانين الراقية وحُمل الحكام على القضاء بها ، فترى تلك الامة آسفة كل الاسف على ماضيها وعلى الحالة التي كانت فيها ؟ وتتمنى لو ترجع في حافرتها ، مع

---

٣) او الفتنة .

انه لا يشك عاقل في ان حالتها الحاضرة هي خير من حالتها الماضية ، واي ذي لب يشك في ان العدل والمساواة خير من الجور والحكم بمقتضى الهوى ورغبات النفوس الظالمة الفاسدة ...

... لا جدال في ان شكوى هؤلاء انما هي من الحكام لا من القوانين والانقلاب الدستوري .

— مَنْ هؤلاء الحكام ؟ أليسوا من الامة ؟ فلو كانوا راقية افكارهم صحيحة اخلاقهم فهل كانوا كما هم اليوم ؟ لا ريب انهم لو تربوا تربية صحيحة وعُوّدوا الحكم بالحق دون مراعاة ولا ميل لمنفعة لرأينا منهم في هذا الدور السعيد رجالاً ينهضون بالامة ويقوّمون من اعوجاج اعمالها . فلنسخط اذن على الحكام لا على الدستور والحرية !

فان قيل ان الدور الماضي والدور الحاضر سواء لان اكثر الحكام اليوم هم الحكام بالامس ، نقول : ذلك حق ، ولكنهم بعد ان كانوا مطلقين صاروا مقيدين بارادة الامة ، غير انه لما لم يكن للامة ارادة بل سلمت ارادتها اليهم اخذوا يرجعون الى ما اعتادوه من ذي قبل شيئاً فشيئاً ، فهل للامة ان تقف في وجوههم وتجبرهم على عدم الخروج عن مواد القوانين الدستورية ؟ فان فعلت ذلك نجحت وجنت فوائد الانظمة الجديدة ، وان بقيت كما هي اليوم خاملة مستكينة فالعاقبة غير حميدة !
— (عن مجموعة « اريج الزهر » ، بيروت ١٩١١) .

ملحق شعري

الياس صالح

١٨٧٠ - ١٨٩٥

الحرية

لا تلمني يا عاذلي بهواها   فأنا قيس هذه العامريه
وعلامَ الملام، والقلب قلبي   ومعي فيه حجة شرعيه ؟
فاذا كنت تدّعيه فقدّم   عرض حال للاعين (١) التركيه
...وخبطنا العشواء لو كنت تدري   في ليالي تلك الشعور الدجيه
واتخذنا سلال الشعر قيداً   ونسينا المسكينة الحريه !
انت حرّ، يا ايها المرء، فاعلم   ولك العلم فيه والاسبقيه
انت حرّ، فاعلم بهذا، وعلّم   انت حرّ وهذه أوليه !
يتمنى الانسان لو كان عبداً   ويقيم الادلة العلميّة
ولكم قد رأيت من حيوان   يقضم الحبل بغية الحريّة !
يا بني امّنا ذوي الفضل بل يا   معشر الناطقين بالعربيّه
لست عبداً انا ولا انت مولى   أيها اللابس الحلى الذهبيّه !



احمد شوقي

١٨٦٨ - ١٩٣٢

جبل بالجبابر لا بديه

لو كان من سفر ايابك (٢) امس او فتح مبين

---

١) الاعين : الجواسيس .
٢) الخطاب موجه الى توت عنخ أمون .

او كان بعثك من دبيب الروح او نبض الوتين
وطلعت من وادي الملوك عليك غار الفاتحين
الخيل حولك في الجلال العسجدية ينثنين
وعلى نجادك هالتان من القنا والدارعين
والجند يدفع في ركابك بالملوك مصفدين
لرأيت جيلاً غير جيلك بالجبابر لا يدين
ورأيت محكومين قد نصبوا وردّوا الحاكمين
روح الزمان ونظمه وسبيله في الآخرين
ان الزمان واهله فرغا من الفرد اللعين
فاذا رأيت مشايخاً او فتية لك ساجدين
لاقِ الزمان تجدهم عن ركبه متخلفين
هم في الاواخر مولداً وعقولهم في الاولين !

النفوس لها ثورة

ان ملكت القلوب فابغ رضاها فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الاسر ، فكيف الخلائق العقلاء ؟



خليل مطران

من قصيدة « نيرون »

ذاك الشعب الذي آتاه نصراً هو بالسبة من نيرون أحرى
أيّ شيء كان نيرون الذي عبدوه ؟ كان فظ الطبع غرّا !
قزمة هم نصّبوه عالياً ، وجثوا بين يديه فاشمخرّا !
ضخّموه وأطالوا فيئه فترامى يملأ الآفاق ذُعرا

منحوه من قومهم مـا بـه صار طاغوتا عليهم ، او اضرا
انمـا يبطش ذو الامر اذا لم يُثنِ بطش الأولى ولوه أمرا

لست محزوناً على القوم ، وهل كبد تلفى على الانـذال حرّى
ما علينا من غريم غـارم ان أزرى الخلق شعب مات صبرا
ليس بالـكف، لعيش طيب كل من شق عليه العيش حرّاً !
ان رومـا جعلت نيرونهـا وهو شر القوم ممـا كان شراً
بلغتـه الملك عفواً ، فبغى ، كل ملك جاء عفواً راح هـدرا
ليس في تشنيعه من بدعـة ان للخامل عند الذكر ثأرا !
لا ولا في ظلمه من عجب ان للظالم عنـد العدل وترا !

من يلم نـيرون ، اني لائم امه لو كهرته ارتدّ كهرا [1]
امـة لو ناهضتـه ساعـة لانتهى عنها وشيكاً وانبجرا [2]
فـاز بالاولى عليهـا ، ولـه دونـه معذرة التاريخ اخرى
كل قوم خـالقو نيرونهم قيصر قيل له ام قيل كسرى !

■

جميل صدقي الزهاوي

؟ - ١٩٣٦

ملك عن فعله ليس يسأل

لقـد عبثت بالشعب اطماع ظالم يحمـله من جوره مـا يحمل
فيا ويح قوم فوضوا امر نفسهم الى ملك عن فعله ليس يسأل !

---

١) جبهته جبهاً .
٢) اعتدل .

ارادة شخص واحد

نحن في غفـلة نيـام وعنّا   نائبـات الزمان غير نيـام
نحن في دولة تداركها الله   نبيـح المحظور للحكـام
وعدها بالاصلاح جم ولكن   لا يجوز الاصلاح حد الكلام
نحن قوم قضت ارادة شخص   واحد ان نعيش كالانعـام



معروف الرصافي

يا ملوك الانام هلا اعتبرتم

انمـا نحن امـة تـدرأ الضيم ولا تستكين قـط لوال
امـة سادت الانام وطـابت   عنصراً مـن اواخر واوال
فاذا منا علا الغشوم نهضنا   فقذفنـاه سافلا من عـال
نحن من شعلة الجحيم خلقنا   لذوي الجور لا من الصلصال
يا ملوك الانام هلا اعتبرتم   بمـلوك تجوز في الافعـال
فاتركوا الناس مطلقين والا   عشتمُ موثقين بالاوحـال



بشاره الخوري

(الاخطل الصغير)

بين لويس وعبد الحميد

عاهـل الدول لفتة ثم رحب   بطريـد من الملوك شريد
قل له ، يا لويس ، ماذا جنى الملك وماذا جناه خفر العهود
قل له كيف ثل عرشك ، والعرش عليه يرف مجد الجدود
قل له كيف قادك الجند بين الشعب للقتل راسفاً بالقيود

الدساتير والثورات

ان الدساتير لا تعطي اعنتها الا الاعاصير من جن ومن بشر
من هابط كقضاء الله مكتسح او صاعد كفم البركان منفجر

دماء الشباب في سبيل الحرية

يا دماء الشباب ما انت الا ذائب الطيب ، يا دماء الشباب
ادفقي رحمة ونوراً ، وكوني جدول السفح او هزار الغاب
لا تضني على الحراب وان آذتك ، بل عطري رؤوس الحراب
املأيها شذاً ، كما يملأ الورد يد الجارحيه ، بالاطياب
قطرة منك بسمة في فم الرفق ، وسوط على يد القرضاب
كم سياج من الحديد تعفى وسياج باق من الاداب !
ما خلا الفيل من دمشق الى الشهباء من حافز ومن وثاب
بسلاح من الحقوق المدماة نسيج القلوب والالباب
شهرت مثله فرنسا على الظلم فردته من دم مخضاب !

يا فرنسا

لقني الطغيان درسا ليس ينسى
وصلي باليوم امسا يا فرنسا ...
يظمأ المجد فلا يشرب الا من يديك
ويضام الحق حتى يرفع الصوت اليك
كل فجر من جمال بسمة في شفتيك

يا فرنسا

يعرف النصر على بعد لواك ويغني السيف في الهيجا علاك

يا فرنسا

لا يسيل العطر الا من دماك

يا فرنسا

انشري الاضواء في الافق البعيد   وابعثي فينا صداقات « الرشيد »
انت والارز شعارٌ للخلود

يا فرنسا

سيفك المسلول في الشرق   سيوف الدهر دونه
باركته القدس الثكلى   وحيّته « المدينه »
صافح اليمن يمينه   قبّل الشرق جبينه

يا فرنسا

لقّني الطغيان درسا   ليس ينسى
وصلي باليوم امسا   يا فرنسا ...

■

الياس ابو شبكة

من قصيدة الشاعر الحر يخاطب السلطان الظالم

فأغمد الحرّ في عينيه [1] فوهة   من ناظريه ، كبركان ببركان
وقال : ملكك ليس الشعب يا ملكي   فلست تملك الا بعض عميان
كن من تشاء ، كن الدنيا بكاملها   فلست تعدل صدّيقاً بميزاني
جمال قلبي عريان على شفتي   ونور نفسي معقود باجفاني
وكيف اكذب ، والدنيا تصارحني   حتى قشوري َ، حتى جسمي َ الفاني
انظر الى النهر في صفو وفي كدر   فهل تخفّى على الصفصاف والبان ؟
للنور في كل مجرى منه مصقلة ،   وكل منعطف للحب ثديان
وانظر الى حرمون الشيخ كيف بدا   فهل لهيبته الشماء وجهان ؟
فذلك الجبل الجبار اطعمني   قوت النسور وهذا النهر روّاني
خفف عتوك واغسل قلبك الجاني   للظلم يوم وللمظلوم يومان
عرش العتي على بركان منكره   شتيمة رخمت في قلب سكران
ما كان سلطان هذا الشعب سيده ،   ان السيادة ما احتاجت لتيجان

١) الضمير راجع الى السلطان الظالم .

خاتمة

... وهنا ، ايها القارىء ، نشرف على هنيهة الوداع بعد صحبة طويلة . وما أحبك ان تطوي الكتاب الا وقد حملت معك هذه الخلاصة ذات السطور القليلة .

لقد شهدتَ موكباً حافلا من ادباء ومصلحين وقادة ثائرين وحوادث جسام ، في بلاد من العالم . وشهدت موكباً حافلاً من ادبائنا ومصلحينا . شهدت الافغاني والكواكبي والمراش والنديم واسحق والشميل والريحاني وجبران وغيرهم وغيرهم ... فعرفت ، اولا ، ان تاريخنا الفكري في مطلع نهضتنا الحديثة ، يباهي بصفحات خيّرة نيّرة ، من رجال جريئين متعمقين . وعرفت ، ثانياً ، ان هؤلاء الافذاذ من ادبائنا ومفكرينا لم يبتروا ما بينهم وبين ماضينا ، ثم لم يقطعوا ما بينهم وبين الدنيا ، ثم لم يقفلوا على انفسهم في « صوامع وابراج » ، ولكنهم شخصوا الى قديمنا وتعلموا ، وأطلوا على العالم وتفقهوا ، ونظروا في احوالنا وشؤوننا ، وطلعوا من ذلك كله بلواء نقشوا عليه مطامحنا ورسموا امانينا . اما هذا اللواء فهو الوطنية ، واما هذه المطامح والاماني فهي الحرية والرقي والهناء للامة بخاصتها وعامتها .

لقد عرفت ، ايها القارىء ، ان وطنيتنا الحديثة ولدت في حضن الشورى والديموقراطية ، واتجهت الى الشعب ، واستندت الى قوته وكفاءته ومصلحته . طالبت وطنيتنا ، اول شيء ، بدستور ديموقراطي تصان حرمته . طالبت بمجلس نواب تنتخبه الامة انتخاباً حراً ، ليعبر عن ارادتها . طالبت باطلاق الحريات للقول والاجتماع والكتابة والتنظيم . طالبت بالغاء الامتياز واعلان المساواة امام القانون . طالبت بنشر الثقافة ، وادخال مجانية التعليم والزامية التعليم . طالبت بانهاض مستوى المرأة ، لان « الامة نسيج الامهات » . طالبت بتربية قومية جامعة تشعر الفرد بالمسؤولية امام المجموع ، وتؤاخي بين ابناء الوطن الواحد على اختلاف المنابت والمذاهب ، لان « الدين لله والوطن للجميع » . طالبت بتشجيع المشاريع العمرانية لتحسين الزراعة وحالة

الزراع . وطالبت بتنشيط ارباب الصناعة الوطنية وترقية حالة الصناع ...

لقد عرفت ، ايها القارىء ، كل هذا . وانه لتراث مجيد ، اثمره العقل النيّر وجاد به الشعور الخيّر ، هذا التراث الذي خلفه لنا ادباؤنا ومفكرونا . وان مسألة حفظه وحمايته وتكميله ، في الدور الجديد الذي نقبل عليه ويقبل العالم خارجاً من اشد المعامع هولاً ، لهي مسألة تتعلق بشرفنا ومصيرنا ، نحن ورثة اولئك الميامين ، السابقين في محاربة الاستبداد من اجل الشورى ، ومكافحة الاستعباد من اجل الحرية !

٢٠٠٠ طبعة٣ /١١/١٩٩٣

قضايا وحوارات النهضة العربية
رئيف خوري ١٩١٢ – ١٩٦٨

ما بين ميلاده في لبنان عام ١٩١٢ ، ودراسته في بلده ، ثم عمله التربوي والادبي والصحفي والسياسي في سوريا وفلسطين ولبنان ، هذه البلدان التي كانت بالنسبة لرئيف خوري وجيله بلداً واحداً ، ثم كتاباته المتمحورة كلها حول التراث العربي الزاهي والفكر العربي المتحرر ، ومن ثم الدعوة للعدالة والسلام والوحدة العربية ، الى رحيله عام ١٩٦٨ ، وهو في أوج قدراته الفكرية ، امتدت حياة ونضال وكتابات رئيف خوري لتشكل صورة مشرقة لشخصية ثقافية نهضوية ظلت مدى عمرها مخلصة وعاملة في سبيل قناعاتها ورؤيتها ، عاملة في سبيل امل العرب الكبير بالتحرر والوحدة ، ومؤمنة بحلم الانسان الوضاء بالعدالة والمساواة ، وواثقة في الوقت نفسه ، بدور الثقافة والفكر في النهوض العربي المأمول ، مثلما هي مدركة لدور ومدى التأثير والتبادل بين الثقافات والشعوب في تحقيق هذا النهوض العربي ، والذي يستطيع ، اذا ما تحقق ، أن يدرج العرب في التاريخ الحديث ، اي في العالم المعاصر .

ها قد مرت خمس وعشرون سنة على رحيل رئيف خوري ، واكثر من خمسين عاما على صدور كتابه الرائد : « الفكر العربي الحديث : أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي » ومع ذلك فما يزال رئيف خوري حاضرا بيننا ، ورائداً لنا ، في محاولتنا استئناف ما انقطع من طريق النهضة العربية ، مثلما ما يزال كتابه الذي نعيد طبعه ضمن هذا السلسلة ، محتفظا باهميته وراهنيته ومضمر دعوته للتحرر والعدالة والنهوض .

* * *

– يصدر قريبا في سلسلة قضايا وحوارات النهضة العربية :

١ – **عبد الحميد الزهراوي** : الاعمال الكاملة ، تحقيق وتقديم : د. عبد الاله نبهان .

٢ – **القومية والوحدة** : اعداد وتقديم : محمد كامل الخطيب

٣ – **لماذا تاخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟ (١٩٣٠)** : شكيب ارسلان .

٤ – **الحلقة التنويرية** : حلب في القرن التاسع عشر – تأليف : جمال باروت .

٥ – **كامل عياد** : مختارات .

يشرف على السلسلة : محمد كامل الخطيب

الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٣

سعر النسخة داخل القطر
١٠٠ ل.س

في الاقطار العربية مايعادل
٢٠٠ ل.س